فى رحاب
قصص الأنبياء والرسل



للإمام الراحل

فضيلة الشيخ عبد الحميد كشك

راجعه وقدم له

الكاتب الإسلامى الكبير

الأستاذ / محمد عبد الله السمان

إهــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

في رحاب قصص الأنبياء والرسل

لفضيلة الشيخ

عبد الحميد كشك

رحمه الله

راجعه وقدم له

الكاتب الإسلامي الكبير

الأستاذ / محمد عبد الله السمان

الناشر

مكتبة الصحافة

العباسية - ت: ٦٨٣٤٧٨١ - ٢٥٧٥٣٠٣

رقم الإيداع: ٣٦٤٤/٢٠٠٤

الترقيم الدولي: .I.S.B.N

977-5431-59-X

تقديم

بقلم: محمد عبد الله السمان

كثيراً ما قدمت لإنتاج عدد من المؤلفين فى مجال الفكر الإسلامى، ولكنى لا أحس بشىء من الرهبة إلا حين أقدم لإنتاج الداعية المؤمن، الشيخ عبد الحميد كشك، الخطيب المفوه، الذى راودته الدنيا عن نفسه، فأعرض عنها زهداً فيها.

ولقد تعودت أن أكتب المقدمة لأى كتاب من كتب الشيخ فى الصباح، وبعد صلاة الفجر، وطوال هذه الليلة، يظل ذهنى مشغولاً بما سوف أكتب وكأنى مقدم على أمر خطير لم أتهيأ له، أو ساع إلى الهيجا بغير سلاح. فأنا أمام شيخ جليل استحوذ على مشاعر الملايين، بلا رغبة أو رهبة، ولم يكن يحمل ذهب المعز ولا سيفه، لقد أحست السلطات بخطورة الرجل الفقير الذى لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ولا يملك مع إيمانه بالله إلا لسانه وقلمه، وكان مصدر قلق السلطات فى العالم العربى، أن الرجل دأب – فى خطبه – على تعرية سلوكهم بطريق مباشر أو غير مباشر، حيين يذكر نهايات كل طاغية جبار..

لقد عاش الشيخ حياته – قبل التخرج فى الأزهر – مفعمة بالضنك والعوز والشظف، فقهر هذه كلها بإيمانه وصبره وجلده، وعاش حياته الأخرى – أى بعد التخرج والتوظف، فى مستوى العامة فى المعيشة، لم يكن يطمع فى السكنى فى قصر منيف، ولا فى شهى الطعام ولا فى لذيذ الشراب، كان ميسراً له – وأنا شاهد على ذلك – أن يلبى دعوة أكثر من دولة عربية ليعمل فى أكبر مساجد العاصمة، متمتعًا بامتيازات ذات إغراء يسيل لعُشرها لعاب كثير من العلماء والخطباء، رفض بإباء وشمم، أدرك أن النية الحسنة لم تكن تتوافر لدى الدولة العربية الداعية، كانت تهدف – إذا قبل الدعوة – أن تضمن أن يكف لسانه عن أباطرتها، وكأنما كان على علم بما حدث للإمام الشهيد حسن البنا فى أواسط الأربعينيات من القرن الماضى، لقد عرض عليه صدقى باشا وزارة الشئون

الاجتماعية، فاعتذر بأدب، كان الإخوة فى انتظاره بعد لقائه مع رئيس الوزراء، قال لهم: لقد حفروا لنا حفرة، ولكن الله سلّم.

***

كان شرفًا لى أن يسند إلىّ الأخ والابن الشيخ المرسى جمعة، كتابة مقدمات لمؤلفات - الشيخ - رحمه الله - ويحمد للناشر اهتمامه بمؤلفاته فى حياته وبعد رحيله، بدافع من حبه له، حب تلميذ وفىّ لشيخه الجدير به، ولا أظن أن للدافع المادى مكانًا لديه. كان الناشر يسند إلىّ كتابة المقدمة، إلا أنه أصر على أن أراجع كتابه: «فى رحاب قصص الأنبياء والرسل» وأن أكتب المقدمة كذلك .. وهذا ذكاء منه، فالكتاب ليس خطبًا منبرية ولكنه دراسة لها أهميتها، والحق أننى - دائمًا - أشفق على من يؤلف فى قصص الأنبياء ..

فالمكتبات الإسلامية والعربية، مزدحمة بهذا النوع من الدراسات، تراثًا وحديثًا، أضف إلى ذلك: أن سائر كتب التفسير تراثًا وحديثًا - أيضًا - قد احتلت قصص الأنبياء فى كتب التفسير أكبر مساحة، ومن هنا كانت كتب التفسير هى المرجع الأساسى لقصص الأنبياء، والمشكلة أن سائر التفاسير التراثية استعانت بالتوراة، برغم أن التوراة المتداولة لا تتمتع بالثقة الكاملة، بعد أن غير اليهود وبدلوا، وحذفوا وأضافوا بنص كتاب الله - عز وجل - وبهذا أصبح من يؤلف فى قصص الأنبياء أمام مهمة شاقة، وقد أحسن العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار - فى مؤلفه عن قصص الأنبياء - حين تجاهل تلك الإسرائيليات التى تضمنتها تفاسير القرآن من التراث، وسار على نهجه الشهيد سيد قطب فى تفسيره: الظلال، أما الشيخ - رحمه الله - فقد اختار منهجًا وسطا، فلم يهمل ما ورد فى التوراة، كليًا، ولكنه كان حذرًا فى الأخذ منها، وناقدًا نقدًا موضوعيًا، لبعض ما سجلته التوراة بين دفتيها.

***

عرض الشيخ - فى المقدمة - لأهداف القصة فى القرآن الكريم - لتشمل القصة بصفة عامة، الأنبياء وغير الأنبياء، ومن المجمع عليه أن الهدف الأساسى والرئيسى،

العبرة والعظة، ففى الآية الأخيرة من سورة يوسف: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...**﴾ إلا أن هناك أهدافًا أخرى، ولكنها تصب فى إطار العبرة والعظة أيضًا.

لقد أشار الشيخ إلى أن من أهداف القصص القرآنى، الدليل على صدق النبوة المحمدية، فمن أين لهذا النبى الأمى أنباء هذه القصص؟ وتثبيت فؤاده وإحساسه بالقناعة بأن ما عليه هو الحق: ﴿**وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [هود: ١٢٠] ففى الآية إضافة هدف آخر: ﴿**وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وأشار إلى أن الهدف الثانى من القصص القرآنى، أن هذا القصص مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله. وهى مهمة عسيرة شاقة، يجب أن يتوافر فى القائمين عليها: الثقة فى الله، والحزم والعزم وقوة الاحتمال، فالداعية إلى الله معرض للعنت من خصومه وأتباعه معًا، وفى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال الرسول - صلوات الله وسلامه عليه: «**يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر**» تعقيبًا على من قال له وهو يقسّم الغنائم على أصحابه فى غزوة حنين: «والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله».

أما الهدف الثالث، فمؤداه أن الدين كله لله، موحد الأساس، وفى سورة الشورى الآية ١٣: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾. ومن الملاحظ أن هذه الآية .. اقتصرت على أولى العزم من الرسل، وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، لأن رسالتهم عصب الرسالات السماوية، بدأت بأول رسالة؛ رسالة نوح، وانتهت بآخر رسالة؛ رسالة محمد - صلوات الله وسلامه على سائر أنبيائه ورسله.

لقد ذكر الشيخ أهدافًا كثيرة للقصص القرآنى، وقد أجمل الشهيد سيد قطب هذه المسألة فى سطور من مؤلفه: «التصوير الفنى فى القرآن». قال:

«يرد القصص فى القرآن فى مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التى يساق

القصص من أجلها هى التى تحدد مساق القصة والحلقة التى تعرض منها، والصورة التى تأتى عليها، والطريقة التى تؤدى بها، تنسيقًا للجو الروحى والفنى والفكرى الذى تعرض فيه، وبذلك تؤدى دورها الموضوعى. وتحقق غايتها النفسية، وتلقى إيقاعها المطلوب».

***

وفى إيجاز دافع الشيخ عن مسألة التكرار فى القصص القرآنى، وهذا التكرار اعتبره النقاد من المستشرقين ذوى الأهواء مثلبة ومطعنًا، مع أن هذا التكرار يمثل إحدى صور البلاغة، والنظرة الفاحصة – كما يقول صاحب الظلال: تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة، قد تكررت فى صورة واحدة من ناحية القدر الذى يساق، وطريقة الأداء فى السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفى حقيقة التكرار.

وكذلك عرض الشيخ لمسألة الرسل والأنبياء والفرق بين الرسول والنبى، من خلال آراء العلماء من السلف، فالذين قالوا: الأنبياء غير الرسل، استندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ...﴾ [الحج: ٥٢]، لأن العطف يدل على المغايرة. ومن الغريب أن هذه الآية ذاتها احتج بها القائلون بأنه لا فريق بين رسول ونبى، فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ لأن لفظ الإرسال يشملهما معًا، ويرى الفراء: أن الرسول هو الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليها عيانًا، أما النبى فهو الذى تكون نبوته إلهامًا أو منامًا، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا. والمقام لا يتسع هنا للمزيد، ثم إن الشيخ – رحمه الله – أحاط بكل جوانبها. وسجل معظم حيثيات الطرفين، القائلين بالفرق والقائلين بالمساواة بين الرسول والنبى، ولا أظن القارئ فى حاجة إلى مزيد، بالنسبة لهذه المسألة، ومن منطلق هذه الفكرة الخاصة بالنبى والرسول، أسهب الشيخ – رحمه الله – فى مسألة صاحب موسى (الخضر) أكان نبيًا أم مجرد عالم؟ ويرى البعض ومنهم الشهيد سيد قطب: أن لا داعى لكثر الجدل فى مسائل سكت عنها القرآن لحكمة مقتضاها أن لا يتشتت ذهن القارئ كتاب الله، بعيداً عن التركيز

الذهنى عن بلاغة القرآن، مع اعتبار أن مثل هذه المسائل الخلافية لا صلة لها باعتقاد المسلم، فحين يقول عز وجل عن يوسف: ﴿ **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ** ﴾ أى باعوه زاهدين فيه. وبقية الآية: ﴿ **وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ** ﴾، إذن فلا داعى لأن يقوم خلاف بين المفسرين فى عدد الدراهم..

وإنى مع هذا الرأى، ولا أنقص من قدر الرأى الآخر، الذى يقول: إن المفسرين الذين أسهبوا فى عرض الآراء حول المسائل الخلافية، أضافوا شيئًا من المعرفة فى مجال البلاغة واللغة.

***

إن مما يحمد للشيخ - رحمه الله - التركيز على إبراز العبرة من القصة، لأن هذه العبرة هى الهدف الرئيسى، كما يحمد له، إضفاؤه شيئًا من التحليل للفظ القرآنى، أكسب دراسته شيئًا من الشفافية والجاذبية.

وقد يرى البعض: أن دراسة الشيخ لم تخل من النزعة الخطابية أو المنبرية، وأرى أن هذا - وإن كان قليلاً - كان مما اقتضته بعض المواقف التى تتطلب الضرب على وتر حساس، لفت الأنظار إلى العواقب بنوعيها: الحسنة والسيئة، وفى هذا ردع للطغاة، وتشجيع للدعاة.

***

وأخيراً .. وليس آخراً:

فإن تسعين فى المائة من الرسائل البريدية أو الهاتفية، تتصل بالشيخ، والرسالة الهاتفية التى وصلتنى وأنا أبدأ السطور النهائية من المقدمة، كانت من شابة مسلمة من شبين الكوم حاصلة على ليسانس آداب، قالت لى: (إننى مدينة للشيخ الجليل الشيخ عبد الحميد كشك بأفضال ثلاثة، من خلال خطبه وأحاديثه: فقد جددت إسلامى، وازددت قربًا إلى الله، ثم عرفت عن طريقه كاتبًا إسلاميًا من طراز نادر، وبقى لدى سؤالان، أود أن تتكرم بالإجابة عنهما:

أولاً: البعض يأخذ على الشيخ فى خطبه: الحدة والعنف، وهذا لا يتفق مع

منهج الله في الدعوة إليه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثانيًا: لماذا نلحظ أن هناك تجاهلاً للشيخ الجليل في وسائل الإعلام: إذاعة وتلفاز وصحافة، أهو تجاهل متعمد أم ماذا؟

وأقول لابنتنا الشابة المسلمة:

أولاً: إن الله أرسل رسله مبشرين ومنذرين، ولكل مقام مقال، فنوح - على سبيل المثال، بدأ مع قومه: ﴿ ... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولما لم تنتج الدعوة بالحسنى ثمارها، فماذا حدث؟: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (١) (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

ولا تنسى أن الشيخ كان يخوض معركة ضد الفساد الذى استشرى وعم، القاعدة والقمة معًا، لا يصلح فيها الحكمة والموعظة الحسنة، والله يقول لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾.

ثانيًا: أما تجاهل وسائل الإعلام العربى للشيخ، فهو تجاهل متعمد، وهذه الوسائل ليست حرة، لأنها ملك للأباطرة والأكاسرة الذين تمثل خطب الشيخ غصة فى حلوقهم، أضيفى إلى ذلك: أن فى إهمال هذه الوسائل للشيخ شرفًا له، والشيخ يربأ بنفسه أن يحشر مع أهل الفن الرخيص الذين تهتم وسائل الإعلام بحياتهم ومماتهم، وحسب الشيخ من الشرف أن تذكره الملايين فى شتى أقطار الأرض، وشتان بين نبت خبيث، ونبت طيب.

محمد عبد الله السمان
القاهرة: ص. ب ١٦٢١
ت: ٥٦٨٣٥٦٤ - المحمول: ٠١٠٥١١٨٠٨٦

رمضان ١٤٢٤هـ
نوفمبر ٢٠٠٣م

---

(١) الديّار: ساكن الديار.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى أنعم علينا بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين أرسل رسوله ﷺ بشريعة كالشمس فى ضحاها فبلغها للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم، جاء بأصول العقائد، وشعائر العبادات، ومبادئ الأحكام، ومناهج السلوك، وقواعد النظام. وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، ومحا اللهُ به الظلمة، وكشف اللهُ به الغمة، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته ورسولاً عن قومه.

وبعد، فيشرفنى أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب (فى رحاب قصص الأنبياء والرسل) الذى يتحدث عن سيرة الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه السلام وحتى نبى الله عيسى عليه السلام لعل القارئ يجد فى سطوره غذاءً للروح، وضياءً فى القلب، وروحانية صافية تنير له مسالك الروح وتسمو بنفسه من غياهب الظلمات وفلول الدجى إلى باذخ العلياء فيتربع على قمة شماء من الصفاء الروحى..

وسطور هذا الكتاب أخذت من ذخيرة مؤلفات عالمنا الجليل الداعية الإسلامى الكبير فضيلة المربى الشيخ عبد الحميد كشك -فعطاء قلمه غزير وفير- ومن ثنايا خطبه المنبرية التى ما زالت تدوى فى العالم، فتوقظ النيام من سباتهم وتنبه الغافلين من غفوتهم. وقد تم ترتيب موضوعاته على نسق كتاب قصص الأنبياء للعلامة الحافظ ابن كثير رحمه الله وهذا جهد المقل فإن أكن أحسنت فما توفيقى إلا بالله وإن أكن غير ذلك فمن نفسى، والنفس فى مسيس الحاجة إلى عفو الله. فاللهم تقبل هذا العمل بقبول حسن وأنبت ثمرته فى القلوب نباتًا حسنًا إنك نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير وصلى الله على البشير النذير سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

عبد الرحمن الزينى

القاهرة فى ١٣ ربيع الأول ١٤٢٤هـ

الموافــق ١٤ مايـــو ٢٠٠٣م

أهداف القصة فى القرآن الكريم

للقصة فى القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى، ففيها إثبات النبوة للنبى الأمى صلوات ربى وسلامه عليه، وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة. وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ [هود: ١٢٠].

فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن فى القصة ما يدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبى صادق كل الصدق مؤيد كل التأييد فى نبوته فمن الذى أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم فى أوطانهم ولم يعاصرهم فى أزمانهم ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد؟ ومن ثم فإننا لنرى كثيراً من القصص القرآنى يختتم بما يدل على هذا. فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى: ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [هود: ٤٨]. يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [هود: ٤٩]. فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وتحركنا مع أحداثها من بلد إلى بلد، ومن حدث إلى حدث وواكبنا وقائعها، ألفينا أن الله تعالى وجه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه بعد ما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف: ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠١]. توجه الخطاب الربانى إلى النبى الأمى ﷺ قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ثم يختتم السورة الكريمة بما يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف: ١١١]، فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة فى

سورة طه.. نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] فإذا ما انتقلنا إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فمن الذى أوحى إلى نبيه ﷺ بأنباء الغيب؟ إنه العليم الخبير: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]، والوحى دليل النبوة ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، قال تعالى مخاطبا شمس الهداية الربانية محمداً ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

ولحكمة ما، أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آيةً وكمالاً لرسوله الكريم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩]، حتى لا يقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أثيم: إن محمداً قرأ الكتب السابقة ووعى ما فيها ثم أداها كما قرأها. والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت والتواتر يروى أن محمداً ﷺ قضى حياته بينهم فى مكة قبل البعثة أربعين عامًا. وقد جاء ذلك صريحًا فى كتاب الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥-١٧].

وإذا ما انتقلنا إلى الغرض الثانى من القصة القرآنية وهو الجانب التربوى وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله،

فالدعوة إلى الله قد تكون بالقدوة الصالحة والتى بينها القرآن الكريم بيانا كافيا شافيا وحذر الدعاة أن تخالف أقوالهم أفعالهم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وكما أن التربية تكون بالقدوة كذلك تكون بالموعظة الحسنة قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

كذلك تكون التربية بالقصة ويكفيك أن نأخذ مثلا على هذا قصة سيدنا يوسف عليه السلام وما احتوته من عبرة وحكم بالغة. نعم لقد كان فى قصصهم عبرة.

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبى ﷺ وتصبيره على ما يلاقيه من أذى قومه ولقد جاء مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] وفى هذا المجال يقول سبحانه وتعالى لصفوة خلقه ﷺ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣- ٣٦]، ويقول جل شأنه: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣] إلى غير ذلك من الآيات التى كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ بردًا وسلامًا تخفف عنه ما يلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم. قال تعالى: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

ويقول صاحب التصوير الفنى فى القرآن (.... وكان من أغراض القصة فى القرآن الكريم بيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله الواحد رب الجميع وكثيراً ما وردت قصص

عدد من الأنبياء مجتمعة فى صورة واحدة معروضة بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة. ولما كان هذا غرضًا أساسيًا فى الدعوة وفى بناء التصور الإسلامى فقد تكرر مجىء هذه القصص على هذا النحو مع اختلاف فى التعبير لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها فى النفوس).

وكان من أغراض القصة فى القرآن بيان أن الدين كله موحد الأساس فضلا على أنه كله من عند إله واحد وتبعا لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك مكررة فيها العقيدة الأساسية وهى الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء فى سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴾ [الأعراف:٥٩].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴾ [الأعراف:٦٥]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴾

[الأعراف:٧٣]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ..﴾

[الأعراف:٨٥]

فهذا التوحيد لأساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء وترد قصصهم مجتمعة فى هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص.

وكان من أغراض القصة فى القرآن الكريم تصديق التبشير والتحذير وعرض نموذج واقع من هذا التصديق كالذى جاء فى سورة الحجر ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ..﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠] فتصديقًا لهذا وذلك جاءت القصص على النحو التالى:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥١-٥٣] وفى هذه القصة تبدو (الرحمة). ثم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ

ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦١-٦٦] وفى هذه القصة تبدو (الرحمة) فى جانب لوط،ويبدو (العذاب الأليم) فى جانب قومه المهلكين.

ثم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤] وفى هذه القصة يبدو (العذاب الأليم) للمكذبين. وهكذا يصدق الأنباء ويبدو صدقه فى هذا القصص الواقع بهذا الترتيب.

وكان من أغراض القصة فى القرآن الكريم بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف شتى ويكون إبرازها هو الغرض الأول وما سواه يأتى فى هذا الموضع عرضاً.

وكان للقصة أغراض أخرى متفرقة منها بيان قدرة الله على الخوارق: كقصة آدم. وقصة مولد عيسى.. وقصة إبراهيم والطير الذى آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً. وقصة «الذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها» وقد أحياه الله بعد موته مائة عام. وبيان عاقبة الطيبة والصلاح وعاقبة الشر والإفساد. كقصة ابنى آدم. وقصة صاحب الجنتين. وقصص بنى إسرائيل بعد عصيانهم وقصة سد مأرب وقصة أصحاب الأخدود. وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة والحكمة الإلهية البعيدة الغيبة كقصة موسى مع «عبدمن عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما»...

إلى آخر هذه الأغراض التى كانت تساق لها القصص فتفى بمغزاها)(١).

ويقول صاحب الظلال رحمه الله-: «يرد القصص فى القرآن فى مواضع ومناسبات وهذه المناسبات التى يساق القصص من أجلها هى التى تحدد مساق القصة والحلقة التى تعرض منها، والصورة التى تأتى عليها، والطريقة التى تؤدى بها. تنسيقاً للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه. وبذلك تؤدى دورها الموضوعى، وتحقق غايتها النفسية، وتلقى إيقاعها المطلوب.

(١) انظر كتاب التصوير الفنى فى القرآن للمرحوم سيد قطب - دار المعارف.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً فى القصص القرآنى، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى سور شتى .ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت فى صورة واحدة، من ناحية القدر الذى يساق وطريقة الأداء فى السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفى حقيقة التكرار. ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أوتصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن – بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع –ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن العظيم، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هى التى تحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لاكتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ. وفى سياق الدعوة يجئ القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفنى الصادق الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء. وقصص الأنبياء فى القرآن الكريم يمثل موكب الإيمان فى طريقه الممتد الواصل الطويل،ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان فى نفوس هذه النخبة المختارةمن البشر، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذى خصهم بهذا الفضل العظيم.. وتتبع هذا الموكب الكريم فى طريقه يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية، ويشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز – عنصر الإيمان – وأصالته فى الوجود كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيمانى ويميزه فى الحس من سائر التصورات الدخيلة.. ومن ثم كان القصص شطراً كبيراًمن كتاب الدعوة الكريم»(١).

الرسل والأنبياء

قال العلماء: إن قوماً يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبى حتى يكون مرسلاً. والدليل على صحة هذا قوله تعالي: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ**

(١) فى ظلال القرآن – الجزء (١) دار الشروق ص٥٥، ص٥٦.

حَكِيمٌ﴾ [الحج:٥٢]. فأوجب للنبي ﷺ الرسالة وأن معنى (نبى) أنبأ عن الله عزوجل، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه. وقال الفراء: الرسول الذى أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليها عيانًا، والنبى الذى تكون نبوته إلهامًا أو منامًافكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً. قال المهدوى: وهذاهو الصحيح، أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً. وكذا ذكر القاضى عياض فى كتاب الشفا قال: والصحيح والذى عليه الجم الغفير أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً(١).

وجاء فى كتاب التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى - المجلد الثامن - دار إحياء التراث العربى - فى تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ..﴾ [الحج:٥٢] الآية: من الناس من قال: الرسول هو الذى حدث وأرسل، والنبى هو الذى لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى فى النوم، ومن الناس من قال: إن كل رسول نبى وليس كل نبى يكون رسولاً، وهو قول الكلبى والفراء. وقالت المعتزلة: كل رسول نبى، وكل نبى رسول ولا فرق بينهما واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه أحدها: هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ فإنها دالة على أن النبى قد يكون مرسلاً، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف:٩٤]. وثانيها: أن الله تعالى خاطب محمداً ﷺ مرة بالنبى ومرة بالرسول، فدل على أنه لامنافاة بين الأمرين، وثالثها :أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين، ورابعها: أن اشتقاق لفظ النبى إما من النبأ وهو الخبر، أومن قولهم نبأ إذا ارتفع، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة. أما القول الثانى: فاعلم أن شيئاً من تلك الوجوه لا يبطله بل هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ دالة عليه لأنه عطف النبى على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص.

وقال فى موضع آخر ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] وذلك يدل على أنه كان نبيًا، فجعله الله مرسلاً وهو يدل على قولنا: وقيل لرسول الله ﷺ: كم المرسلون؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، فقيل وكم الأنبياء؟ فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا الجم الغفير» إذا ثبت هذا فنقول:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن من المجلد السادس - دار الكتب العلمية جـ١٢ ص٥٤.

ذكروا فى الفرق بين الرسول والنبى أموراً: أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبى غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله. والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلاً لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ. والثالث: أن من جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى فى النوم كونه رسولاً، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبى الذى لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى](١).

الحكمة من إرسال الرسل والأنبياء

[إن كل ما هو مشهود أمامنا من مظاهر الوجود لا يمكن أن يكون من فراغ، ولا يمكن أن يكون بالصدفة المحضة وغير المحضة. ولابد أن يكون عن عمد وعن تدبير خالق حكيم عليم. والعقل يمكنه أن يصل إلى هذه الحقيقة،و لكنه يحتاج فى الوصول إليها إلى رحلة شاقة ومضنية فى عالم المقارنات واستنباط النتائج من مقدماتها، وتصنيف تلك النتائج، والوصول من خلال ذلك إلى: وحدة الخطة والمنهج الذى يقوم عليه بناء هذا الكون الفسيح. ومتى وصل العقل إلى أن خطة إيجاد هذا العالم واحدة رغم اختلاف مظاهره، وتباين عناصره، فإنه سوف يصل من تلقاء نفسه إلى أن هنالك إلها قادراً حكيماً فوق هذا الخلق هو الذى أوجده لغاية أخرى تختلف عن الغايات الظاهرية للعالم المشهود.. ولكن جمع أمة أو شعب على هذه الحقيقة التى قد يصل إليها العقل وحده دون بيان من الموجد الحق شئ يشبه المستحيل، لأن العقول تختلف فى قدرتها على التركيز ومواصلة الرحلة بين عالم الكائنات، والصبر على التجارب وصحة نتائجها، ولهذا السبب وحده كانت رحمة الرحيم الأعلى قاضية بأن تريح العالم من هذا العناء، وتضعهم أمام الحقيقة العظمى على منهج يتيح للناس الوصول إلى اليقين من أقصر الطرق وأيسرها على النفس، وهو طريق الإلهام بالإيمان، وصفاء النفس من كدر الجهل

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى المجلد الثامن ص٢٣٦.

والعناد. ولكن كيف السبيل إلى البشر أن يفقه علماً غير علمه، ولغة غير لغته، ويتفاهم على كثافته مع اللطيف وهما مختلفان في كل شئ؟!! بل كيف له أن ينخلع من مادياته المشهودة إلى ما وراءهامن الغيب غير المشهود على حقيقته إلا لفرد أو لأفراد في القرن الواحد مما لا يكفى لتكوين رأى عام يتجه نحو إله أوجد الكون؟؟

كان أقصى ما وصل إليه الإنسان البدائى هو شعوره بالفراغ الداخلى شعوراً مخيفًا ومرعبًايجعله وكأنما تحتوشه الكوارث والنكبات من جوانبه كلها، حين تقتحمه الأمواج، أو تزأر به العواصف، أو يهدده جبروت الوحش، أو تقهره ظواهر الطبيعة الأخرى، فآمن بالقوة والسلطان، فحددها في ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو في كائن قوى من الكائنات، فعبد هذه الظاهرة، وقدم إليها القرابين وابتكر الطقوس التى توحى بالرهبة وهو يمارس شعيرة الإذعان والخضوع للإله المصنوع الذى ظل عليه عاكفًا، أو حينما عبد إنسانًا مثله امتاز عنه بالتجبر والجرأة والمغامرة. أما أن يصل الإنسان إلى الله الواحد الأحد وصولاً يتهيأ له معه تكوين منهج دينى متكامل، ثم يتعدد العارفون بهذا المنهج حتى يمكنهم أن يكونوا رأيًا عامًا في الموضوع معروف البداية والغاية فهذا ما لم يحدث ولا يمكن أن يحدث لولا تقدير العزيز الحكيم أن يكون هناك خطاب من عالم الغيب إلى عالم الشهادة يحدد المنهج والبداية والغاية، ويحمى الإنسان من الإنسان،ويحمى نشاط الإنسان من العوامل المدمرة للحضارات والإنجازات الإنسانية الأخرى. وكان مقتضى الحكمة الإلهية أن يكون هناك نوع من الخطاب بين عالم الغيب وعالم الشهادة العاقل.. خطاب يرفع خسيسة الناس من اللصوق بالأرض ويوجههم إلى موجود واحد أحد ليس كمثله شيء، وإلى دلائل وجوده مما هو مشهود للناس جميعًا، وإلى وحدة الحياة المنظورة والحياة المستقبلة غير المنظورة بعد عالم الموت، ويحدد المنهج الذى يمنح الإنسان قدراً من الصفاء يؤهله للفهم عن الغيب، ولإدراك المقاصد والغايات والدلائل والحكم التى ينطق بها كل موجود من حوله.

وعالم الغيب لطيف والإنسان كثيف، وخطاب اللطيف للكثيف مستحيل، كما أن خطاب الأحد الذى ليس كمثله شئ مستحيل للّطيف والكثيف جميعًا

ومن أجل هذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يوجد من بين العالم اللطيف وهم الملائكة الذين يعتبرون غيبًا بالنسبة للكثيف – الذى هو الإنسان – نوعًا مزودًا بقدرات معينة تجعله يستطيع أن يتلقى الخطاب من الله تعالى على وجه يمكن أن تتفاعل به مع إفهام الناس ومداركهم بعدأن كان خطابًا ذاتيًا لا سبيل لأى مخلوق إلى الوصول إليه.. وكان هذا النوع من الملائكة هو «الروح الأمين» جبريل سفير عالم الغيب إلى العالم المشهود، والنازل إليهم بوحى الله كلما اقتضت الحكمة أن ينزل وحى.

ثم كانت حكمة أخرى.. فالإنسان العادى لا يمكن أن يتفاعل مع الروح الأمين ولا أن يتلقى عنه خطابًا، ولا يحفظ عنه قولاً، بسبب اختلاف عنصريهما وطبيعتهما، فكان لابد من أن يكون هناك نوع ممتاز من الناس هم ناس فى طبيعتهم، ولكن يد الله تعالى صاغتهم بطريقة تجعلهم أقدر على تلقى الخطاب من الوحى، ونقله إلى كافة البشر على اختلاف ملكاتهم، وعلى تباين درجات إدراكهم وكان ذلك المنقول من عالم الغيب إلى عالم الشهادة على هذه المراحل هى وصايا الله تعالى وكتبه التى انتهت بالقرآن الكريم على خاتم الرسل محمد ﷺ. إن وصول الإنسان إلى حقيقة التوحيد، وإلى منهج الحياة الدنيوية الذى يصل به إلى السعادة فى المعاد بعقله وحده دون خطاب من الحق سبحانه على الوجه الذى بيناه أمر مستحيل.. ولئن كان جائزًا أن يصل فرد أو أفراد إلى حقيقة التوحيد فالمستحيل هو أن يكون العارفون بها على مستوى من الكثرة يتيح تكوين رأى عام لأمة أو شعب.. ولكن الوصول إلى منهج الحياة المتكامل المنضبط والدائم فهو المستحيل الذى لا يصل إليه فرد ولا أفراد. ولقد أفصح القرآن الكريم عن هذه الحقائق فى قوله تعالى خطابًا لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥١–٥٣].

حتى الإنسان الممتاز الذى اختاره الله تعالى فأوحى إليه بإذنه ما شاء من النور والهدى لم يكن يعلم شيئًا عن الإيمان حتى أوحاه الله إليه، وعلمه إياه وإذا كان هذا هو شأن الإنسان المنتقى المختار، فما بال العامةوالجمهور من الخلق على ما فيهم من عبقريات؟!! وتنزيل الخطاب الإلهى من مرتبة العلو والحكمة الإلهية إلى منطقة العقل الإنسانى أمر مجهول للبشرية كلها، فهذا من خالص سر الله وعمله الذى استأثر به وحده، ولا علم لنا بخطابه إلابعد أن جعله كتاباً بلغة القوم الذين أنزل إليهم حتى يمكنهم أن يعقلوه: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [الزخرف: ٣، ٤].

فالرسول الذى ينقل الخطاب الإلهى إلى البشر بلغة البشر إذن هو إنسان متميز عن بقية بنى الإنسان.... متميز فى الخلق والتكوين بحيث يستطيع استقبال الخطاب الإلهى من الوحى، ذلك الاستقبال الذى لا يستطيعه إلا رسول خلقه الله بمواصفات معينة تؤهله لهذا المنصب الرفيع.. متميز من حيث أنه يحظى بالمزيد من العناية الإلهية الاختصاصية التى عبر عنها كتاب الله فى قوله تعالى: ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾، ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾، ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾، ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾، ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾.

إلى آخر الآيات التى يضيق عنها المقام، والتى تؤكد أن عناية الله تعالى برسله تضعهم فى موضع من الرعاية الخاصة التى تحفظهم من الزلل الذى يقع فيه كل الناس، وتمنحهم من العلم مالا تمنحه للناس، وتمدهم من القوة بما لا تمد به أحداً غيرهم من الناس. والله تعالى يقول: ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ** ﴾، ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ يعنى أباه داوود معه. والرسول محمد ﷺ يقول لأصحابه حينما أرادوا أن يسيروا سيرته فى عباداته الشاقة: «**إنكم لستم مثلي**». وفى رواية: «**إني لست كهيئتكم**»، «**إني أبيت عند ربى يطعمني ويسقيني**»...... والمدارك العقلية والوجدانية للإنسان بطبيعتها لا تصمد للمعرفة فى رحلتها من الشهادة إلى الغيب، فالرحلة العقلية الوجدانية من المشهود إلى الغيب تتطلب قدراً

هائلاً من قوة الاستجماع والتركيز، ودقة المراقبة صعوداً فى اليقين بالله، ونزولاً فى استصحاب نظره إلى العباد فى كل ما يأتون ويذرون على منهاج شريعته ابتغاء وجهه، وإرادة لرضاه. وهذا القدر من الاستجماع والتركيز لتحقيق تلك الغاية التى تخلق السلام بين ظاهر الإنسان وباطنه، ومن ثم بين الناس جميعًا إن لم يكن عسير التحقيق عند الكثيرين فهو عسير الاستمرار فى كيان الإنسان لفترات طويلة من الزمان ومن هنا توالت الرسالات وتعددت لتذكير الإنسان بما ينساه، ولتجديد عهده برحلة اليقين صعوداً فى عالم المعرفةونزولاً فى عالم العمل على هدى المعرفة........ وإذا كانت وحدة الخلق دليلاً على وحدة الخالق فإن وحدة الرسالة ووحدة المنهج الذى اتبعه الرسل فى الدعوة إلى الله وإلى سبيل الله دليل آخر على وحدة مرسل الرسل وواضع المنهج.. وهكذا تصبح ظاهرة النبوة فى ذاتها دليلاً على وحدانية الله قبل أن يفصل الأنبياء دلائل الوحدانية من خلال المنهج الواحد الذى اتبعوه جميعًا.......][(١)].

***

(١) من مقدمة: كتاب قصص الأنبياء للإمام ابن كثير تحقيق وتعليق الأستاذ عبد القادر احمد عطا.

آدم عليه السلام وقضية الخلق

إن أول من قص الله تعالى علينا قصصهم في القرآن الكريم من الأنبياء هو آدم أبو البشر عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام وقد ذكرت قصته في سورة البقرة والأعراف والإسراء والكهف وطه باسمه وصفته. وفي سورة الحجر وسورة ص بصفته فقط، وكلها بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط وذلك بما يدل على إعجاز القرآن الكريم. فإن أكتب الكاتبين وأبلغ البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المتانة في الأسلوب والبلاغة في التعبير كما في القرآن الكريم(١).

وقد ذكر اسم آدم في القرآن الكريم خمسًا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية وهاكم أرقام الآيات التي ذكر فيها:

ذكر في سورة البقرة في الآيات ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧.

ذكر في سورة آل عمران في الآيات ٣٣، ٥٩.

ذكر في سورة المائدة في الآية ٢٧.

ذكر في سورة الأعراف في الآيات ١١، ١٩، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٥، ١٧٢.

ذكر في سورة الإسراء في الآيات ٦١. ٧٠.

ذكر في سورة الكهف في الآية ٥٠.

ذكر في سورة مريم في الآية ٥٨.

ذكر في سورة طه في الآيات ١١٥,١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١.

ذكر في سورة يس في الآية ٦٠.

إنه أبونا آدم أبو البشر لقد رآه الحبيب ﷺ في السماء الأولى ليلة المعراج. رأى

---

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ط دار الجيل - بيروت.

آدم وعن يمينه ناس وعن شماله ناس فكان آدمُ ينظر إلى أهل اليمين ويضحك وينظر إلى أهل الشمال ويبكى. رحب بالحبيب وقال له: مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح وسأل الحبيب محمد رفيق الرحلة جبريل: يا جبريل: لماذا يضحك لأهل اليمين ويبكى لأهل الشمال؟ فقال له الأمين جبريل: إنه يضحك لأهل اليمين لأنهم أهل الجنة من أمتك، ويبكى لأهل الشمال لأنهم أهل النار..

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣]. إن الله تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والإيجاد فى قوله جل شأنه ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ بين لهم بعد ذلك تشريفه لأبيهم الذى جاءوا من صلبه، وكيف ذكره فى العالم العلوى والملأ الملائكى، وأنه تعالى لما خلق لنا ما فى الأرض جميعًا وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا منه امتن على أبينا آدم بالخلافة ليقيم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة. وليس ثمة أدنى شك فى أن تشريف الآباء تشريف للأبناء وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد. فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ تقديره اذكر لقومك يا محمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المربى عباده على كرمه ورزقه. ماذا قال؟ إنه قرار إلهى لا يقبل النقض. الله أصدر قرارًا وكلام الله لا يبدل: يا ملائكتى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض. أو إنى جاعل فى الأرض أقوامًا يخلف بعضهم بعضًا. فالمعنى الأول من باب قوله جل شأنه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ

خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص:٢٦]. والمعنى الثاني من باب قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ** ﴾ يفيد أنه خُلق لعمارة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها لحكمة بل لحِكَم. من تلك الحِكَم: أنه سيأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه. كذلك أبناؤه يخالفون ثم يتوبون. ففعل الله منزه عن العبث. ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمر ويعمرها أبناؤه من بعده. قال تعالى: ﴿ **فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٥]. ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** ﴾ [طه:٥٥].

فماذا قالت الملائكة فى هذه الحضرة الإلهية المقدسة؟ ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة: ٣٠]؟

إن هذا الاستفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم، وهو استفهام خال من الاعتراض، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا قال تعالى: ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٠] التسبيح عندهم كالتنفس عندنا، إذا كان الواحد منا يتنفس شهيقا وزفيرا فى الدقيقة ست عشرة مرة، فإن زفير الملائكة وشهيقهم: (سبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) ومعنى (لا يفترون) أى لا يضعفون بعد قوة، وقال الله فى حقهم ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] وقال فى شأنهم: ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦].

وإنما قالت الملائكة: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) لأنها رأت ما كان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والإفساد. وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧] أى من قبل آدم فقاست الملائكة هؤلاء الذين سيخلقون علي الذين خلقوا من قبل.

قالت الملائكة لرب العزة: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ التسبيح هنا المراد

به التنزيه.. ومعنى التسبيح بالحمد أى نسبح تسبيحا مقترنا بالحمد فنقول: **(سبحان الله وبحمده)** والتقديس هو التعظيم والتطهير.. ولتسبيح الله فضل عظيم عند الله، قال النبى ﷺ «الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض»(١).

قال مولانا جل جلاله للملائكة ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ أى إن فى علمى من الحكم البالغة مالا تعلمونه أنتم، فإن فى ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير، فإن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب(٢).

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعل عمر، أو بإجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب إلزامها عند الجمهور ويجب أن يكون الخليفة ذكراً حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء.

ولما كان آدم عليه السلام جديراً بالاستخلاف فى الأرض وتعميرها، فقد أراد ربك أن يظهر فضله على آدم ويبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة وأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت للملائكة أن آدم أحق بالخلافة وعمارة الأرض وأراد أن يقيم لهم الدليل القاطع والحجة الساطعة على هذه القضية، فجاء آدم وعلمه أسماء الأشياء كلها، قال تعالى ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٣١].

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٢٦٤ وما بعدها.

ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها فلولا أن الله تعالى سمى الأسماء بأسمائها وجعل الأسماء علامة عليها لتوقفت مصالح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم - فأنت لو لم تعلم اسم البحر وأردت أن تقول لأخيك تعالى إلى البحر فماذا تقول له؟ تأخذه من يده إلى شاطىء البحر وتقول له أريد أن تذهب معى إلى هذا الكائن؟! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابنك أن يشتريه فماذا كنت تقول له؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لا تعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له؟ أعلمت لماذا علم الله آدم الأسماء كلها؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته؟ العلم نور والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال، والعلماء ورثة الأنبياء. إن الملائكة، وهم عباد مكرمون، لا يستطيعون عمارة الأرض. أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزاوج والتكاثر والمأكل والمشرب والملبس والتنقيب عما فى باطن الأرض؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة فإنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة بل يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومن ثم فإن المكلف بمعرفة الأسماء هو آدم، لأنه سيتعامل معها وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة ويقول لهم أنبئونى بأسماء هذه المسميات، ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله فتنزه الله التنزيه الذى يليق بذاته قائلة ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ العليم وحدك الذى أحاط علمك بكل شيء؛ فقد وسعت كل شيء رحمة وعلما، وأنت الحكيم الذى تضع الأشياء فى نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها.

وهنا قال الله جل شأنه ﴿ **يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ أى أخبرهم بها. فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى. فقال لهم المولى جل جلاله ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أى ما غاب عنكم فى السماوات والأرض. فهو سبحانه وتعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم مالا يكون لوكان كيف كان يكون: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

بل إنه يعلم القول: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤] قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وما كنتم تكتمونه فى أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم، فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض ينشر العدل ويقيم أسس الحق.

أما قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى فى قولكم إن الله لن يخلق أعلم منا، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات.

وجلّت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحا زوجين وأنجبا من الذرية ما بلغ اليوم خمسة آلاف مليون من البشر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

آدم والملائكة وإبليس:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ١١-٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٢٦-٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ

هَذَا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٦٠-٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١١٥-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ

لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٦٧-٨٨].

أراد الله تعالى أن يقيم حفل تكريم لآدم فماذا كان الحفل؟ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٤] أنه مشهد رهيب.. الملائكة كلهم أجمعون سجدوا لآدم ولكن لنا مع السجود وقفة.. كيف كان هذا السجود لآدم؟ إنه سجود تحية لا سجود عبادة فسجود العبادة لا يجوز إلا لواحد هو الواحد سبحانه وتعالى. أما هذا السجود الملائكى فلقد كان سجود تحية وإكرام لا سجود عبادة وتقديس. ولذا فإن فى القرآن الكريم آيات وقعت فى أربع عشرة سورة ذكرت فيها آيات سجود. وهذه الآيات إذا قرأتها أو قرأت أية منها فعليك أن تخر ساجداً لله. إذا كنت على وضوء استقبل القبلة واسجد لله سجوداً يسمى سجود التلاوة فإذا لم تكن متوضأ فعليك أن تقول: « سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، فإنها تغنيك عن السجود إذا لم تكن على وضوء. وتوجد آيات السجود:

فى سورة الأعراف (١١)، وفى سورة الرعد (١٥)، وفى سورة النحل (٤٩)، وفى سورة الإسراء آية (١٠٧)، وفى سورة مريم (٥٨)، وفى سورة الحج آيتان (١٨، ٧٧) وفى سورة الفرقان آية (٦٠) وفى سورة النمل آية (٢٥)، وفى سورة السجدة آية (١٥)، وفى سورة ص (٢٤)، وفى سورة فصلت (٣٧)، وفى سورة النجم (٦٢) وفى سورة الانشقاق (٢١)، وفى سورة العلق آية (١٩).

جاء الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى إلى رسول الله ﷺ وقال له يا رسول الله: **لقد رأيت فى المنام كأنى أقرأ سورة (ص) وكان بجانبى شجرة ودواة وقلم. فلما بلغت آية السجدة وقرأتها رأيت الشجرة والدواة والقلم قد سجدوا جميعا. قال له** الحبيب: « سجدت الشجرة والدواة والقلم ولم تسجد يا أبا سعيد؟ ».

يقول الحبيب المصطفى ﷺ: « إن ابن آدم إذا قرأ آية السجدة فسجد اعتزل

الشيطان يبكي ويقول: يا ويلي يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فدخل الجنة. وأمرت بالسجود فأبيتُ فدخلتُ النار» إن الملائكة أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله، أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عناداً وجحوداً فصار بذلك من الكافرين، واستعمل القياس الفاسد فقال أنا خير منه ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية فجمح به خياله العقيم حيث قاس عنصرا على عنصر، وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر، ونسى أن الميزان العادل الذى توزن به كرامات الخلق هو التقوى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إنى جعلتُ نسبا وجعلتم نسبا فجعلتُ أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون**»(١).

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية. فلا تنظر إلى المعصية من حيث إنها معصية فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه. لقد أمرك الله أن تسجد، فكيف تنصرف من طاعة الأمر إلى البحث فى العناصر؟ قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من خردل من كبر**»(٢).

قيل لبلال بن رباح: يا بلال ابن من أنت؟ فقال: أنا ابن من أسجد الله له الملائكة وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له، كما كرمه من قبل بجعله خليفة فى الأرض وتعليمه الأسمآء كلها. وكرمه أيضا بسكناه الجنة ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥] وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته.

لقد كان إبليس بين الملائكة ولم يكن منهم - أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم - سجود تحية وتكريم - فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال له مولانا تبارك وتعالى: ما منعك ألاَّ تسجد أى ما حملك على

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ٦١٦٥ ط الشعب.

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤١٣ ط وزارة الأوقاف.

عدم السجود؟ وقد تكون (لا) في قوله تعالى: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ** ﴾ مزيدة للتوكيد، أي ما منعك من السجود، وهو المقصود هنا، لقد أمره الله بالسجود فأبي واستكبر وكان من الكافرين ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ [الأعراف: ١٢] وزعم أن المخلوق بعنصره وجحد أن الفضل للأتقى فالعناصر ليست الميزان في التكريم، فحق عليه غضب الله وسخطه، قال ﴿ **فاهبط منها** ﴾ أي اخرج من زمرة الملائكة، فما يكون لك أن تتكبر فيها فإن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون. فاخرج إنك من الصاغرين الأذلاء، ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ أي أخرني، قال ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ أي من المؤخرين ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ** ﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧] أي فيما أو قعتني في الغواية لأقعدن لهم للإغواء ثم لآتينهم من الأمام والوراء فمن ذهب منهم ليفعل الخير وقفت له في طريقه بالمرصاد ومن ذهب ليقترف المعصية دفعته إليها دفعا وسوف أفتح لهم باب الغواية لكنه لعنه الله لم يستطع أن يأتينا من فوقنا أو تحتنا، ذلك لأن جهة الفوق تنزل منها الرحمات، وجهة التحت مكان السجود، فإذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي يقول: « يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فدخل الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فدخلت النار ».

لذا حذر الله بني آدم من هذا العدو اللدود قال تعالى ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر: ٦].

قال تعالى: ﴿ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٨] أي اخرج معيبا مطرودًا لمن تبعك من الجن والإنس - ممن كفر وعصى - لأملأن جهنم منكم جميعًا.

وقد شاءت حكمته أن رحمته وسعت كل شيء ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ [طه: ٨٢]، قال إبليس لرب العزة: ﴿ **لأغوينهم** ﴾ ما دامت أرواحهم في أبدانهم، فقال له رب العزة: وعزتي وجلالي لأغفرن لهم

ماداموا يستغفرونني ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١].

آدم فى الجنة:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

لما كان آدم نموذجًا للبشرية التى عمرت الأرض، فإن الله تعالى قد أجرى على يديه شئونا كان لابد منها لتكون امتداداً منه لذريته فالله جلت قدرته أسجد له الملائكة تكريما له وتفضيلا، وإذا كان إبليس قد أبى أن يسجد، ففى ذلك درس لبنى آدم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[[فاطر: ٦] وبعد قصة السجود أدخله الله الجنة مع زوجه ليكون لبنى آدم فى ذلك عبرة يعلمون منها أن الزواج سنة المرسلين، وأنه شركة مساهمة رأس مالها المودة والرحمة، وأنه آية من آيات الله ولقد أسكن الله آدم الجنة لتشتاق نفسه إليها بعد أن يعيش فيها، فيمتد هذا الشوق إلى قلوب أبنائه فيعملون أعمالا تقربهم إليها ولقد نهاه الله عن قرب الشجرة ليمتد ذلك التكليف إلى أبنائه ولقد نسى آدم فنسى أبناؤه ولقد أكل من الشجرة فأذنب أبناؤه، ولقد تاب ليتوب أبناؤه قال ﷺ **«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»**(١)، ولقد وسوس الشيطان لآدم فوسوس لأبنائه، ولقد تاب آدم فتاب الله عليه، وهذه رحمة من الله تعالى بآدم وأبنائه إن هم تابوا وأنابوا ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وسواء أكانت هذه الجنة دار الجزاء، أم كانت جنة بربوة فوق الأرض فليست العبرة فى حقيقة الجنة، إنما العبرة كامنة فيما حدث فى تلك الجنة، نعم أنه لا طائل

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة ٤٩..

من الخلاف فى حقيقة تلك الجنة التى أدخل الله فيها آدم: أهى الجنة التى أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ أم هى جنة خاصة بآدم؟ ثم إنه لا طائل من البحث عن نوع الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه أن يقرباها، إذ لو كان في تعيينها خير لعينها الله كما عين الشجرة التى أمرت مريم أن تهزها فقال: ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ [مريم: ٢٥]. ولقد سبق فى علم الله الأزلى أن آدم وأبناءه سيعمرون الأرض ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠] وفى سورة الأعراف وقبل أن يحدثنا القرآن الكريم عن قصة آدم نقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يمر آدم بتلك المواقع: يدخل الجنة، ويوسوس له الشيطان، ويأكل من الشجرة، ويتوب الله عليه، ويهبط إلى الأرض، ويتناسل وتأتى كلمة الله الفاصلة ﴿ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٥].

قال تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠] وقال سبحانه: ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٠].

الشيطان يعرف أن الإنسان يحب التملك والخلود، إن الوساوس التى يلقيها الشيطان فى نفس ابن أدم أشد من وقع السهام على الأكباد، ولها دبيب كدبيب النمل، ولا يشترط أن يكون إبليس قد دخل الجنة ليوسوس لآدم، بل إنه يستطيع ذلك دون أن يدخلها، بل يستطيع أن يكلمه عن بعد، وأبناء آدم يجب أن يكونوا على حذر من هذا، وخير لهم أن يعلموا قول رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**»(١).

وإذا وسوس الشيطان فإنه يأتى الإنسان من مأمنه، لذا فقد جاء لآدم من نفس

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام ٢١.

المأمن: ما نهاكما عن الأكل من الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكون من الخالدين مانهاكما إلا لهذا الغرض فقد نهاكما حتى لا تكون لكما صفة الملائكة من شدة وقوة وطول الأجل وحتى لا تكونا خالدين والشيطان يدرك تماما أن الإنسان يحب الخلود ويحب التملك، الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، وجرت عادة الناس فيها أن من عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيداً لها، فكل بني آدم - إلا ما رحم ربى - يحبون الخلود فى الدنيا ولو كان طعامها زقوما، وهواؤها سموما، وماؤها آسنا ثم أراد الشيطان أن يقنع آدم بما يقول فأقسم بالله إنه من الناصحين لهما قال تعالى ﴿ **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢١] ولم يكن آدم يعرف أن هناك من تبلغ به الجرأة فيقسم بالله كذبا. وكان أحد الصالحين يقول: «من خدعنا بالله انخدعنا به». ما كان آدم ليتصور أن أحدا من خلق الله يعرض يمين الله للكذب، لذلك بذل إبليس أقصى جهده فى سبيل أن يدفع آدم إلى الأكل من الشجرة، فاستعمل سلاح القسم.

يقول تعالى: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فدلاهما (أى أهبطهما) بخداع خبيث فأكلا من الشجرة. ولما ذاقاها بدا لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما والسوأة كل ما يسوء الإنسان النظر إليه ويراد بها هنا (العورة) وهكذا من سار فى طاعة الله ألبسه الله ثيابا تقيه من عوادى الشيطان، ومن تاب إلى الله ستره الله.

وليس صحيحا ما يقال إن المقصود بالشجرة التى أكل منها آدم شجرة الجنس، فمن قال بذلك فقد قال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير فألفاظ القرآن عربية تفسر بالقواعد العربية، واللفظ إما حقيقة أو مجاز، ولا يمكن أن يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى. وبشرط أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز، فإذا قلت: سمعت أسداً يخطب، فإن الحقيقة هنا متعذرة إذ الخطابة مستحيلة فى حق الأسد إذن فالأسد هنا مجاز عن الخطيب الشجاع، وبينه وبين الخطيب علاقة هى التشابه فى الشجاعة، هكذا

تقرر قواعد اللغة التى نزل بها القرآن الكريم بلسان عربى مبين، فأين القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلى فى قوله تعالى ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾. وفى قوله جل شأنه: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ وأين العلاقة التى بين الحقيقة والمجاز؟ إن الشجرة هنا هى الشجرة بوضعها الحقيقى، لا صلة له بما يقوله الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويحملون الألفاظ مالا تحتمل، ويحرفون الكلم عن مواضعه، اللهم إنه لا علاقة ولا قرينة فلا مجاز، إنما الشجرة لفظ استعمل فيما وضع له فهو على حقيقته - إن آدم وحواء لما بدت لهما سوءاتهما طفقا وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة، أى يضعان ورقة فوق ورقة لأن ستر السوءات من نداء الفطرة السليمة وناداهما ربهما قائلا ومذكرا ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ بقولى لكما: ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ألم أقل لكما ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ولقد شعر آدم وحواء بنار الندم وبوخزها الأليم، فأقرا واعترفا وتابا وأنابا وتضرعا إلى مالك الملك وملك الملوك ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وكانت هذه الكلمات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ أى إلى الأرض التى كتب الله لكم أن تعمروها والمقصود بالخطاب هنا آدم وحواء وإبليس ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ وعداوة الشيطان لابن آدم فى غنى عن البيان ولقد شاءت الحكمة الإلهية العليا أن يظل هذا الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الوقت المعلوم ولا ملجأ من الله إلا إليه. وشاءت حكمة الله أن يكون لآدم وذريته مستقر فى الأرض ومتاع إلى حين.

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥] كما قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١١٧-١٢٣].

لقد بين الله جلت حكمته عداوة إبليس لآدم وزوجه وذلك لأنه إذا خرج من الجنة هو وزوجه فسوف يعاني ويتعب سعيا وراء لقمة العيش، فهو الرجل المسئول عن النفقة على أهله، ولذلك جاء الخطاب بالتثنية في قوله تعالى ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ [طه: ١١٧] وجاء بالإفراد في قوله تعالى ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ ذلك لأن الرجل بحكم الفطرة التي جعل الله الناس عليها هو الذي يكد ويكدح، ويلاقي من النصب والوصب ما يلاقي، وآدم في تلك الجنة في رغد وراحة. وقوله تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴾ ذلك لأن العرى يكسب الجسم برودة، مما يدعو إلى شدة الجوع. وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾: ذلك لأن حرارة الشمس تدعو إلى شدة الظمأ بإفراز ما في الجسم من عرق. فناسب ذلك أن يجمع بين الجوع والعرى، وبين الظمأ والحر - ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ وذلك لما يعلمه إبليس في الإنسان من حب الخلود والملكية ومازال إبليس بهما حتى قاسمهما أني لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور، قال تعالى ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ أي خالف آدم ما عاهد الله به إليه بألا يقرب تلك الشجرة فوقع في الغواية التي وسوس بها إليه عدو الله إبليس، وإنما سميت معصية لأنها من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وما وقع آدم فيها إلا عندما نسي، ومن ثم فقد قرن الله تعالى العهد بالتذكر في قوله تعالى: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ولقد تلقى آدم بعد ذلك كلمات من

ربه فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم، والكلمات جاءت فى قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهكذا أمر الله آدم وحواء أن يهبطا من الجنة إلى الأرض، وبين الطريق القويم إلى الجنة ونعيمها، فحذر آدم وذريته من عداوة إبليس لهم قال ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال جل شأنه ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

نعم هذا صراط مستقيم، فالطريق لائح، والمنادى صائح، والحق واضح ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ وذلك بإرسال الرسل، إنزال الكتب، وإرشاد العقل. ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، قال تعالى: ﴿ **وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [النحل: ٣٠] وقال عز من قائل: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٩٧].

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - «إن عهد الله إلى آدم كان هو الأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة، تمثل المحظور الذى لابد منه لتربية الإرادة، وتأكيد الشخصية، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها. وهذا هو المقياس الذى لا يخطىء فى قياس الرقى البشرى. فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها، والاستعلاء عليها كانت أعلى فى

سلم الرقي البشرى، وكلما ضعفت أمام الرغبة، وتهاوت كانت أقرب إلى البهيمية وإلى المدارج الأولى. من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التى ترعى هذا الكائن الإنسانى أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التى يزينها الشيطان، وإرادته وعهده للرحمن، وها هى ذى التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى: ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ ثم تعرض تفصيلاتها ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ** ﴾.. هكذا فى إجمال، يجىء هذا المشهد الذى يفصل فى سور أخرى، لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية.. فيعجل بمظاهر النعمة فى الرعاية: ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾.. وكانت هذه رعاية من الله وعنايته أن ينبه آدم إلى عدوه ويحذره غدره، عقب نشوزه وعصيانه، والامتناع عن السجود لآدم كما أمره ربه ﴿ **فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ فالشقاء بالكد والعمل والشرود والضلال والقلق والحيرة واللهفة والانتظار والألم والفقدان.. كلها تنتظر هناك خارج الجنة؛ وأنت فى حمى منها كلها ما دمت فى رحاب الفردوس ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾.. فهذا كله مضمون لك ما دمت فى رحابها، والجوع والعرى، يتقابلان مع الظمأ والضحوة. وهى فى مجموعها تمثل متاعب الإنسان الأولى فى الحصول على الطعام والكساء، والشراب والظلال. ولكن آدم كان غفلاً من التجارب. وهو يحمل الضعف البشرى تجاه الرغبة فى البقاء والرغبة فى السلطان. ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان: ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ لقد لمس فى نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشرى محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة.. ومن ثم نسى العهد وأقدم على المحظور: ﴿ **فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾.. والظاهر أنها

السوءات الحسية تبدت لهما وكانت عنهما مستورة، وأنها مواضع العفة فى جسديهما يرجح ذلك أنهما أخذا يسترانها بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع. وقد يكون ذلك إيذانا باستيقاظ الدوافع الجنسية فى كيانهما فقبل يقظة هذه الدوافع لا يحس الإنسان بالخجل من كشف مواضع العفة ولا ينتبه إليها ولكنه ينتبه إلى العورات عند استيقاظ دوافع الجنس ويخجل من كشفها، وربما كان خطر هذه الشجرة عليهما، لأن ثمارها مما يوقظ هذه الدوافع فى الجسم تأجيلا لها فترة من الزمان كما يشاء الله. وربما كان نسيانهما عهد الله وعصيانهما له تبعه هبوط فى عزيمتهما وانقطاع عن الصلة بخالقهما فسيطرت عليهما دوافع الجسد وتنبهت فيهما دوافع الجنس. وربما كانت الرغبة فى الخلود تجسمت فى استيقاظ الدوافع الجنسية للتناسل؛ فهذه هى الوسيلة الميسرة للإنسان للامتداد وراء العمر الفردى المحدود.. وكل هذه فروض لتفسير مصاحبة ظهور سوآتهما لهما للأكل من الشجرة. فهو لم يقل: فبدت سوءاتهما. إنما قال: فبدت لهما سوآتهما مما يؤذن أنها كانت محجوبة عنهما فظهرت لهما بدافع داخلى من إحساسهما.. وقد جاء فى موضع آخر عن إبليس ﴿ **لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا** ﴾، وجاء: ﴿ **ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما** ﴾ وقد يكون اللباس الذى نزعه الشيطان ليس لباسا ماديا إنما هو شعور ساتر، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله وعلى أية حال فهى مجرد فروض لا نؤكدها ولا نرجح واحدا منها إنما هى لتقرب صورة التجربة الأولى فى حياة البشرية. ثم أدركت آدم وزوجه رحمةُ الله، بعدما عصاه، فقد كانت هذه هى التجربة الأولى ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾.. بعدما استغفر آدم وندم واعتذر ولا يذكر هذا هنا لتبدو رحمة الله فى الجو وحدها.. ثم صدر الأمر إلى الخصْمَيْن اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويل بعد الجولة الأولى: ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾..

وبذلك أعلنت الخصومة فى الثقلين. فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنما أخذت على غرة ومن حيث لا أدرى. فقد درى وعلم؛ وأعلن هذا الأمر العلوى فى الوجود كله: ﴿ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾! ومع هذا الإعلان الذى

دوت به السماوات والأرضون وشهده الملائكة أجمعون. شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى. قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم. فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس، أنه آتيهم بهدى منه، فمجاز كلا منهم بعد ذلك حسبما ضل أو اهتدى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ يجيء هذا المشهد بعد القصة كأنه جزء منها، فقد أعلن عنه في ختامها في الملأ الأعلى، فذلك أمر إذن قضى فيه منذ بعيد ولا رجعة فيه ولا تعديل... ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ فهو في أمان من الضلال والشقاء باتباع هدى الله. وهما ينتظران خارج عتبات الجنة. ولكن الله يقي منهما من اتبع هداه .والشقاء ثمرة الضلال ولو كان صاحبه غارقا في المتاع. فهذا المتاع ذاته شقوة. شقوة في الدنيا وشوقة في الآخرة. وما من متاع حرام، إلا وله غصة تعقبه وعقابيل تتبعه. وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف لا يستقر ولا يتوازن في خطاه. والشقاء قرين التخبط ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء. ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يؤوب إليه في اليوم الموعود. ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ والحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة، ضنك مهما يكن فيها من سعة ومتاع. إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه. ضنك الحيرة والقلق والشك ضنك الحرص والحذر: الحرص على ما في اليد والحذر من الفوت. ضنك الجرى وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت. وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله. وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان. (ومن أعرض عن ذكرى) وانقطع عن الاتصال بى ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾..

﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ .. وذلك ضلال من نوع ضلاله في الدنيا. وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى حتى إذا سأل: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ كان الجواب ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾! ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه. أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئا. فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر في يوم القيامة أعمى! اتساق في التعبير واتساق في التصوير. هبوط من الجنة وشقاء وضلال، يقابله عودة إلى الجنة ونجوة من الشقاء والضلال وفسحة في الحياة يقابلها الضنك، وهداية يقابلها العمى.. ويجيء هذا تعقيبًا على قصة آدم - وهي قصة البشرية جميعًا - فيبدأ الاستعراض في الجنة، وينتهي في الجنة»[1].

روى الحاكم في مستدركه من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧] قال: قال آدم يارب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له بلى، ونفخت فيَّ من روحك، قيل له بلى، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل له بلى، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد.

وقال عبد الرزاق: قال معمر، أخبرني عوف عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أُخرج منها»**. وفي الصحيح من وجه آخر: **«وفيه تقوم الساعة»**.

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٤ ط دار الشروق ص ٢٣٥٣ - ص ٢٣٥٦.

احتجاج آدم وموسى عليهما السلام:

قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم. قال آدم: «يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقني، أو قدره على قبل أن يخلقني**»؟ قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم، حدثنا أبو شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدر على قبل أن أخلق**؟ قال رسول الله ﷺ: «**فحج آدم موسى**» مرتين. قلت: وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال أحمد: حدثنا حسين، حدثنا جرير - هو ابن حازم - عن محمد، هو ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقى آدم موسى فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت؟ قال آدم لموسى: أنت الذي كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟ قال: نعم. قال: فهل تجده مكتوبًا قبل أن أخلق؟ قال: نعم. قال**: «**فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب، أخبرني أنس ابن عياض عن الحارث بن أبي دياب عن يزيد بن هرمز، سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم موسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا؟ فبكم وجدت الله كتب التوراة؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم فهل وجدت فيها: ﴿ وعصى**

آدم ربه فغوى ﴾؟ قال: نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة»؟ قال: قال رسول الله ﷺ: **«فحج آدم موسى»**.

قال الحارث: وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، وقد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصاري، عن أنس بن عياض، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن يزيد بن هرمز والأعرج، كلاهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

وهذا الحديث متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه ومروي عن غيره من الصحابة كما ذكر، وقد قال بعض العلماء بأن جواب آدم عليه السلام إنما كان احتجاجًا بالقدر على المصيبة لا المعصية. والله تعالى أعلم[1].

بعض الأحاديث التي وردت في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ **«خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»** أي من طين. رواه مسلم[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثني قسامة ابن زهير، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: **«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»**.

ورواه أيضًا عن هوذة، عن عوف، عن قسامة بن زهير، سمعت الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»**.

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه، من حديث عوف ابن أبي جميلة الأعرابي، عن قسامة بن زهير المازني البصري، عن أبي موسى عبد الله ابن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه. وقال الترمذي حسن صحيح.

---

(١) يراجع بتوسع كتاب قصص الأنبياء للإمام ابن كثير ط دار التراث العربي ص ٢٧ – ٣٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٦ ص ١٥٣.

وقال ابن حبان فى صحيحه: حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا هدبه بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله»**.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا حبان ابن هلال، حدثنا مبارك بن فضالة، عن عبيد الله، عن حبيب، عن حفص - هو ابن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - عن أبى هريرة رفعه قال: **«لما خلق الله آدم عطس، فقال الحمد لله، فقال له ربه رحمك ربك يا آدم»**. وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه(١).

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أى رب من هذا؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال ستين سنة، قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطىء آدم فخطئت ذريته»**.

ثم قال الترمذى: حسن صحيح. وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، ويعلى ومحمد ابنا عبيد، قالوا: حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قرأ ابن آدم**

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربى ص ٣٧.

السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله.. أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار»، ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به.

ميثاق من الله على عباده

إن العلم بوحدانية الله مركوز في فطر الخلائق وطباع الكائنات، فمن شذ عن التوحيد فذلك شذوذ في الرأى ونشاز في التفكير، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه، ومن سمائه إلى أرضه، وقلت له: من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال: أنا مخلوق للواحد الديان. سبحانك ربى أنت الواحد في ذاتك لا قسيم لك، الواحد في صفاتك لا شبيه لك، الواحد في أفعالك لا شريك لك.

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤] يرى فريق من المفسرين أن قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢] يرى هذا الفريق أن الآية تخبر عن الإيمان الفطرى الذى ركزه الخالق العظيم في خلقه، ومن ثم فإن منطوق الآية يقول ﴿ **مِن بَنِي آدَمَ** ﴾، ولم يقل من آدم، ويقول ﴿ **مِن ظُهُورِهِمْ** ﴾ ولم يقل من ظهره، والمراد بالذرية ما يتوالد من البشر جيلاً بعد جيل، فإن الله جلت قدرته أقام في الكون من الأدلة ما لا يحصره عد، ولا يحيط به حد، وكلها ناطقة على وحدانية الله، وكفى بتلك الآيات حجة على العباد. قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤] وكما أن الشهادة تكون بلسان المقال، فإنها تكون بلسان الحال، وذلك كقوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ**

اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧] هذا وقد ذكر العلامة ابن كثير من الأحاديث ما يؤيد الإيمان الفطرى فى هذه الآية. كما ذكر الرأى الآخر الذى يرى أن الله استخرج الذرية من ظهر آدم وأخذ عليهم الميثاق بوحدانيته، فشهدوا وأقروا. ونحن نسوق ما ذكره ابن كثير تتمة للفائدة. يقول رحمه الله تعالى فى هذه الآية:

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم، ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه قال تعالى ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٠] وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**كل مولود يولد على الفطرة**» وفى رواية «**على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»(١) وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال قال رسول الله ﷺ «**يقول الله: إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»(٢). وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثنا يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال:

«ما بال أقوام يتناولون الذرية» فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسان فأبواها يهودانها وينصرانها»(٣) قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه. (**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم**) وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به.

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٧٩، ٩٢).

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣).

(٣) أخرجه مسلم فى الجهاد (٢٨).

وأخرجه النسائي، في سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثني الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك.

ثم ساق رحمه الله تعالى الأحاديث التي تؤيد الرأى الآخر فقال: وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم.

روى الإمام أحمد عن يونس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك. قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي**»(1) أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه قال عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً**»(2) قال ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه.

وعن جرير قال: «**مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده، فإن ابني مجلس ومسئول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله عما يُسأل ابنك؟** من يسأله إياه؟ فإن يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس قال «**إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم**

---

(1) أخرجه البخاري في الإيمان (11) ومسلم في الإيمان (٢٠٣، ٢٩٩، ٣٣٨) وأبو داود في الأدب (٤٧).

(2) أخرجه الإمام أحمد في (٦: ٤١، ٢٠٨).

الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة» فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم.

روى الإمام أحمد بإسناده عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية. قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون» فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»(١) رواه أبو داود والنسائي.

قال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: فجمعهم له يومئذ جميعًا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، ولا تشركوا بي شيئًا وإني سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد إنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة (١٦) والترمذي في تفسير سورة ٧ : ٢ والإمام مالك في القدر (٢).

غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببتُ أن أُشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة، والنبوة فهو الذى يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية. وهو الذى يقول ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ ومن ذلك قال ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٥٦] ومن ذلك قال ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد.

وبعد أن ساق ابن كثير هذه الأحاديث الشريفة، عقب عليها بقوله: ثم قال قائلون من السلف والخلف إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد وقد فسر الحسن الآية بذلك. ولهذا قال ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن.

كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقال ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً مقالا، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧] أى حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات: ٧].

كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى

الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه. فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى التوحيد ﴿غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الآية.

لقد قطع الله المعاذير وأبطل حجج المجادلين بالباطل قال تعالى ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

هذه الأدلة الناطقة بوحدانية الله عز وجل، الشاهدة بكماله المطلق، وعزته القائمة، ومملكته الدائمة، لا يجادل فيها إلا كل أفاك أثيم، إنها قائمة مع كل زمان ومكان، وفى كل عصر ومصر. السماء وارتفاعها، والكواكب ومدارها، والشمس وشعاعها، والأرض واتساعها، والبحار وأمواجها، والجبال ورسوخها الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويعلن بشكره، ولا يغفل عن ذكره فكل أثر يدل على مؤثر. وتحت هذه القاعدة تتدرج أدله العناية والإتقان والارتباط والكمال والواجب.

إن أصحاب الفطر السليمة وأولى الأفئدة المستقيمة، تقر لخالقها بالوحدانية وتصفه بصفات الكمال، وتنزهه عن كل نقص، إن الله أقام الأدلة لئلا يقول الناس يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل فأشركنا مثلهم

تقليداً لهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهذه حجة داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد، فلا تقليد للمبطلين، لأن الله تعالى زودنا بالعقل، وأرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وقال ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى نبينها ونوضحها، ليهتدوا ويرجعوا عن ما هم عليه من الضلال والبهتان، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٦٥].

العظة فى قصة آدم عليه السلام(١)

١ - إن الله تعالى قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه إليه كما حجب حكمة استخلاف آدم فى الأرض عن الملائكة حتى تحيروا واشتاقوا إلى معرفة الحكمة من هذا الاختيار.

٢ - إن عناية الله تعالى إذا وجهت إلى الشيء الحقير خلقت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيماً. كما توجهت عنايته تعالى إلى التراب الذى جبل منه آدم عليه السلام فصيرته بشراً سوياً وجعلته مظهراً لأسرار قدرته وحكمته وعلمه الواسع فأفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه.

٣ - إن الإنسان مهما أوتى من التجلة والكرامة ففى طبعه الضعف فهو عرضه لأن ينسى ويأتى ما لا يتفق مع إجلال الله له كما فى نسيان آدم وصية الله وتعالى، فأطاع إبليس الذى هو أعدى أعدائه وأصغى إليه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها.

٤ - إن رحمة الله تعالى لا ييأس منها من عصاه وخالف عن أمره فإن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه مع ما فرط منه من النسيان ومخالفة وصية الله. فعلى العبد إذا قارف معصية أن يلجأ إلى الله بالندم والاستغفار والإقلاع عن الذنب كما قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ط دار الجيل بيروت.

قصة ابنى آدم عليه السلام

ذكرت قصة ابنى آدم عليه السلام فى القرآن الكريم دون أن يذكر فيها اسم كل منهما وإنما ذكر اسمهما فى التوراة (قابيل وهابيل) .

قال الله تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة : ٢٧ – ٣٢] .

هذه قصة تربوية، تعبر عن مدرسة من مدارس القرآن الكريم تفيض عبرة وتتفجر حكمة، لذا أمر الله رسوله ومصطفاه ﷺ أن يتلوها على البشرية جمعاء، وسماها القرآن نبأ لأن النبأ هو الخبر العظيم، وأضاف النبأ إلى ابنى آدم لأن مكمن العبرة فيهما، فعليهما تدور أحداث القصة : لقد خلق الله الأرض طاهرة التربة طيبة مباركة، فملأها أهلها ذنوبًا وانحرافات ومخالفات وجرائم وجنايات .

إن أول جريمة وقعت على ظهر الأرض : الحسد عندما حسد إبليس آدم فخالف أمر الله فى السجود له، ووسوس له حتى أخرجه من الجنة ثم حسد قابيل هابيل، وكانت الجريمة الثانية القتل، والقرآن الكريمة عندما ذكر هذه القصة نص على مكمن العبرة فيها، فقال : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ . وإن كان المفسرون قد ذكروا أسبابًا لتقديم هذا القربان، نذكر بعضها فنقول وبالله التوفيق .

عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأمر أن ينكحها غيره من

أخوتها وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: انكحني أختك وانكحك أختي، فقال: لا أنا أحق بأختي، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن محمد بن علي بن الحسين، قال: قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان فقربا قربانا، حتى تقر عيني إذا تقبلا قربانكما فقربا وكان هابيل صاحب غنم، فقرب أكولة غنم خير ماله، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرعه - والمشاقة من الزرع أسوأ ما نتج من الأرض - فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما. فصعدا الجبل فوضعا قربانهما، ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان، فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عُنق، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل، فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه فقال: ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل: أحَبَّتَهُ فَضَلَّيْتَ على قربانه ودعوْتَ لَهُ فتقبل قربانه، ورد على قرباني، فقال قابيل لهابيل: لأقتلنك واستريح منك: دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك، وكان يتوعده بالقتل، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل أين أخوك؟ قال: وبعثتني له راعياً؟، لا أدري؟ فقال آدم: ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك، فقال قابيل في نفسه: الليلة اقتله، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب - أي عائد من المرعى - فقال يا هابيل تقبل قربانك ورد على قرباني لأقتلنك، فقال هابيل: قربت أطيب مالي، وقربت أنت أخبث مالك، وإن الله لا يقبل إلا الطيب ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل: أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك: فقتله فطرحه في حوبة من الأرض، وحثا عليه شيئاً من التراب.

روى العوفي عن ابن عباس قال: من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قربنا قربانا، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قربانا وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حراثاً، وإن صاحب الغنم قرب

خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وأن ابن آدم قال لأخيه أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد عَلَىّ، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير منى، فقال ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فقال له أخوه ما ذنبى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾(١).

إن قصص القرآن الكريم كلها عبرة وعظة لأولى الألباب وإن الله تعالى يسوق قصة ابنى آدم عليه السلام ليبين طبائع النفوس الموروثة وما يفعله الحسد الكامن والداء الباطن الذى يقضى على أقوى سبب وأمتن رابطة، وهى الأخوة، وكيف كان السبب فى أول قتل فى الأرض؟ فإذًا لا تأس يا محمد ولا تعجب من فعل اليهود ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله، على أن هذا طبع فى أبناء آدم واتل يا محمد على قومك وعلى كل من تبلغه دعوتك، اتل عليهم.. نبأ هامًا وخبرًا متلبسًا بالحق والصدق لا مبالغة فيه ولا كذب، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل: خبر ابنى آدم لصلبه على الأصح، قيل هما: قابيل (القاتل) وهابيل (القتيل)، وكانت عادتهم أن يتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن الثانية وبالعكس، فَصادف أن قابيل معه توأم جميلة، ومع هابيل توأم دميمة رغب عنها قابيل، وطلب توأمه وحسد هابيل عليها، فلما احتكما إلى أبيهما آدم قال: كل منكم يقرب قربانا، والذى يتقبله الله منه بالحريق يأخذ الجميلة، فقدم قابيل - وكان زارعًا - قليلاً من سنبل القمح، وقدم هابيل - وكان راعيًا للغنم - كبشا سمينًا، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فحنق عليه أكثر، وقال: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ قال هابيل ولم يا أخى وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك؟ فأصلح نفسك، وقدم مخلصًا لوجه الله فإنما ﴿ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يا أخى لئن مددت إلى يدك بالسوء تريد أن تقتلنى ظلمًا وعدوانًا ﴿ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أبدًا. وذلك لأنى أخاف الله رب العالمين، الذى تعهدنا بالعناية والرعاية، وخلقنا على أتم خلق وأكمله، فمن يعتدى على هذا الخلق السوى فقد استحق العقاب الشديد!! يا أخى: إنى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً، فإنك إن فعلتها تبوء

(١) ذكر هذه الروايات الإمام السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٧٣.

بإثم قتلى وإثمك الخاص بك الذى كان من شأنه عدم قبول قربانك، فارجع عما أنت مقدم عليه!! وكيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه؟ والجواب أنه أراد ذلك حينما بسط إليه يده بالقتل فعلاً ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى: ٤٠]. إنك يا أخى إن فعلت هذا الجرم فستكون من أصحاب النار الملازمين لهم، ﴿ **وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾!!! ونرى أنه نفره من القتل بثلاث: الخوف من الله، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين.

والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل، يرى فى الإقدام على هذا العمل جرمًا وفظاعة فيتردد، ولا يزال كذلك حتى تشجعه نفسه الأمَّارة بالسوء ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ** ﴾ وهدم ما بناه الله وأتقنه، ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة؟؟

روى أنه لما قتله، لم يعرف كيف يوارى جثته، ويتحير ذلك ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾ منقبا على غذائه(١)، فحفر حفرة فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله، ففعل لأخيه مثلها وواراه فيها وقال ﴿ **يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ** ﴾ والندم كان على عجزه عن مواراة أخيه.

بسبب هذا الجرم الشنيع والفعلة القبيحة، التى فعلها ابن آدم ﴿ **كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ وإنما خصهم القرآن بالذكر، وإن كان القتل محرمًا قبلهم من الأمم السابقة، لأن التوراة أول كتاب حرم فيه القتل كتابة بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء بسبب الحسد الكامن فى نفوسهم... كتبنا على بنى إسرائيل ومن بعدهم: ﴿ **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾ أى بدون قصاص ﴿ **أَوْ** ﴾ بدون ﴿ **فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ** ﴾ يزلزل الأمن والطمأنينة، ويهلك الحرث والنسل وذلك مثل قطع الطريق، من يفعل شيئًا من ذلك ﴿ **فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ واعتدى على المجتمع البشرى كله!! أفلا يكون هذا الجرم فظيعًا؟ إنه لفظيع ولذلك كان من أكبر

---

(١) ذكر هذا الوجه بعض المفسرين لكن الوجه الأشهر هو اقتتال الغراب مع أخيه ثم حفره له فدفن: يراجع القرطبى ج ٦ ص ١٤١.

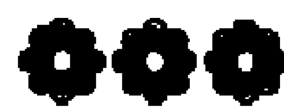
الكبائر بعد الشرك بالله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣]. ومن هنا تعلم أن نفس القتيل ليست ملكه، بل هو ملك للمجتمع الذى يعيش فيه، فمن اعتدى على نفس ولو كانت نفسه ﴿بالانتحار﴾ استحق عقاب الله الشديد يوم القيامة.. ومن أحيا نفساً بأى سبب كان، ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذ كل نفس عضو فى المجتمع. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات كالشمس أو أشد، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ بعد هذا البيان الساطع الواضح.

وهذه الآية تقرر بوضوح مبدأ تكافل الأمة الواحدة وتضامنها كوحدة خاصة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هذه القصة تقدم نموذجًا لطبيعة الشر والعدوان؛ ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذى لا مبرر له. كما تقدم نموذجًا لطبيعة الخير والسماحة، ونموذجًا كذلك من الطيبة والوداعة وتقفهما وجهًا لوجه، كل منهما يتصرف وفق طبيعته.. وترسم الجريمة المنكرة التى يرتكبها الشر والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير، ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء، وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها - على الرغم من ذلك - وجد الجزاء العادل المكافئ للفعلة المنكرة. كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن فى ظل شريعة عادلة رادعة. ولا يحدد السياق القرآنى لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة... وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن: «قابيل وهابيل» وأنهما هما ابنا آدم فى هذه القصة وورود تفصيلات عن القضية بينهما والنزاع على أختين لهما.. فإننا نؤثر أن نستبقى القصة - كما وردت مجملة بدون تحديد. لأن هذه الروايات كلها موضع شك فى أنها مأخوذة عن أهل الكتاب والقصة واردة فى العهد القديم موردة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذى تذكره هذه الروايات - والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل. وهو من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ **«لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول**

كفل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل» رواه الإمام أحمد فى مسنده... وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع فى فترة طفولة الإنسان، وأنه كان أول حادث قتل عدوانى متعمد وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث. وبقاء القصة مجملة كما وردت فى سياقها القرآنى يؤدى الغرض من عرضها، ويؤدى الإيحاءات كاملة........»(١).

«وبجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هابيل عندها. وذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة أحمد بن كثير (غير الحافظ) أنه رأى النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء فأجابه إلى ذلك وصدقه رسول الله ﷺ وقال إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان كل يوم خميس. قال الحافظ بن كثير فى تاريخه البداية والنهاية – وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعى والله أعلم. وقد ذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على هابيل حزنًا شديداً»(٢).



(١) راجع (فى ظلال القرآن) جـ ٢ ص ٨٧٢ – ٨٧٧ ط دار الشروق.

(٢) راجع (قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار) ط دار الجيل ص ٣٨.

ذكر وفاة آدم عليه السلام ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام

لما توفى آدم عليه السلام - وكان ذلك يوم الجمعة - جاءته الملائكة بحنوط وكفن - من عند الله عز وجل - من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووحيده شيثا عليه السلام.

وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن يحيى - هو ابن ضمرة السعدى - قال: رأيت شيخًا بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا هذا أبى بن كعب، فقال: إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه: أى بنى إنى أشتهى ثمار الجنة. قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل، فقالوا لهم: يا بنى آدم ما تريدون وما تطلبون؟ - أو ما تريدون؟ وأين تطلبون؟ - قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد قضى أبوكم.

فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عنى فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل. فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه، وحفروا له ولحدوه، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه فى قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بنى آدم.. وهذه سنتكم (إسناد صحيح إليه).

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون ابن مهران، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «**كبرت الملائكة على آدم أربعًا، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعًا، وكبر عمر على أبى بكر أربعًا، وكبر صهيب على عمر أربعًا**».

قال ابن عساكر: ورواه غيره عن ميمون فقال: عن ابن عمر واختلفوا فى موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند، وقيل بجبل أبى قبيس

بمكة. ويقال إن نوحًا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت، فدفنهما ببيت المقدس حكى ذلك ابن جرير.

واختلف في مقدار عمره عليه السلام: فقد ورد عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعًا: إن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وقال عطاء الخرساني: لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام. رواه ابن عساكر(١).

قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ **«إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة»**.

ومعنى شيث: هبة الله.

قال محمد بن إسحاق: ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

قال: ويقال إن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شيث، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا. والله أعلم، ولما توفي آدم قام شيث بأعباء الأمر من بعده، وكان نبيًا بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعًا، وأنه لما حانت وفاته أوصى إلى ابنه أنوش فقام بالأمر من بعده، ثم بعده ولده قينين، ثم من بعده ولده مهلاييل وهو الذي يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة وأنه أول من قطع الأشجار، وبنى المدائن والحصون الكبار، وأنه هو الذي بنى مدينة بابل، ومدينة السوس الأقصى... وأن دولته دامت أربعين سنة، فلما مات مهلاييل قام بالأمر بعده ولده يرْد، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام المشهور(٢).

وقال ابن قتيبة: وفي التوراة أن آدم طاف على امرأته حواء، فولدت له غلامًا سماه شيثا من أجل أنه خلف من عند الله مكان هابيل، وقال: قال وهب: كان

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربي ص ٥٦ - ٥٨.

(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٩٨، ٩٩.

شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم بآدم وأحبهم إليه وكان وصى أبيه وولى عهده، وهو الذى ولد البشر كلهم وإليه انتهت أنساب الناس، وهو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة.

* ولا شك أن أكثر هذه الروايات أخذ عن كتب اليهود خصوصًا فيما يختص باسم شيث نفسه وولده مع بعض الإضافات، وقد قيل إن شيث عاش ٩١٢ سنة وأنوش عاش ٩٠٥ سنة، قينان عاش ٩١٠ سنة، يرْد عاش ٩٦٢ سنة، ومهلاييل عاش ٨٩٥ سنة أما أخنوخ فقيل أنه عاش ٣٦٥ سنة وهناك خلاف بين النسخ العبرانية والسامرية واليونانية فى هذا الشأن وقد قيل إن شيثا كان نبيًا فى عصر آدم عليه السلام وإننا لا ننفى هذا الخبر نفيًا باتا فقد يكون صحيحًا، إذْ قد يكون من الرسل الذين لم يذكرهم الله فى كتابه الكريم فى قوله تعالى ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ [النساء: ١٦٤] والله جل شأنه أعلم(١).



(١) راجع (الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل للدكتور محمد وصفى) ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة الكتاب الثامن عشر ١٣٨٥ - ١٩٦٥ ص ٣٣ - ٣٥.

إدريس عليه السلام

يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

يقول النسابون إن إدريس جد أبى نوح عليه السلام ويقولون: إنه أول من خطَّ بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط، وكانوا قبله يلبسون الجلود، وهو أول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب. وجعل الله ذلك من معجزاته ويرى بعض الباحثين فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس - أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إربًا إربًا، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها. واتخذوه إلها بعد أن كان مصلحًا عظيمًا. وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يعنون بتحنيط الموتى، وقد أفادهذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال فى الخافقين. وقد كان الملك والدين في عهد تلك الدولة أمراً واحداً. فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا، فمن عصى الملك فقد عصى الله.

ويعتقدون أن أوزريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ويتمتع بأعظم الخيرات. وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة - وهم اثنان واربعون قاضيًا- بأن حسناته قلبت سيئاته يلحق بأوزريس،وهذا النبى الذى جعلوه إلهًا بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه. وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها، فالنبى بأمته، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان، بعد أن كانت خافية عن الأنظار. ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص الأنبياء):

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام واسمه فى التوراة العبرية خنوخ وفى الترجمة العربية أخنوخ، وجاء فى كتاب تاريخ الحكماء - وهو مختصر الزوزنى المسمى بالمنتخبات الملتقطات - من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى: اختلف الحكماء فى مولد إدريس عليه السلام ومنشأة وعمن أخذ العلم قبل النبوة. فقالت فرقة: ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف وقالوا هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس ومعنى أرميس عطارد وقال آخرون اسمه باليونانية طرميس وهو عند العبرانيين خنوخ وعرب أخنوخ. وسماه الله عز وجل فى كتابه العربى المبين إدريس... وقالوا: وخرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره. وقالت فرقة أخرى إن إدريس ولد ببابل وأنه أخذ أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه....
ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بنى آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم فقالوا له وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل. وبابل بالسريانية النهر. وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات. فقال إذا هاجرنا لله ورزقنا غيره فخرج وخرجوا وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذى سمى بابليون فرأوا النيل ورأوه واديًا خاليًا من ساكن فوقف على النيل وسبح لله وقال لجماعته بابليون واختلف فى تفسيره فقيل نهر كنهر وقيل نهر كنهركم وقيل نهر مبارك وقيل إن يون فى السريانية مثل افعل التى للمبالغة فى كلام العرب وكأن معناه نهر أكبر فسمى الإقليم عند جميع الأمم بابليون. وسائر فرق الأمم على ذلك إلا العرب فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان والله أعلم بكل ذلك. وأقام إدريس - عليه السلام ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وطاعة الله عز وجل. وتكلم الناس فى أيامه باثنين وسبعين لسانًا وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة فيهم بلسانهم ورسم لهم تمدين المدن وجمع له طالبى العلم بكل مدينة فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مدنًا فى أرضها فكانت عدة المدن التى أنشئت فى زمانه مائة مدينة وثمانيًا وثمانين أصغرها الرها. وعلمهم العلوم. وهو أول من استخرج

الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك. وقد دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا. وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها. وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والخنزير والكلب وحرم السكر من كل شيء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد وجعل لهم أعياداً كثيرة في أوقات معروفة.

وقيل: إنه كان رجلاً آدم تام القامة أجلح حسن الوجه كث اللحية مليح الشمائل والتخاطيط تام الباع عريض المنكبين ضخم العظام قليل اللحم براق العينين أكحلهما متأنيًا في كلامه كثير الصمت ساكن الأعضاء إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض كثير الفكرة.... وكان مدة مقامه في الأرض اثنتين وثمانين سنة... وكانت له مواعظ وآداب استخرجتها كل فرقة بلسانها تجرى مجرى الأمثال والرموز فمن ذلك قوله:

«خير الدنيا حسرة وشرها ندم»، وقوله **«إذا دعوتم الله سبحانه فأخلصوا النية وكذا الصيام والصلوات فافعلوا»**، وقوله **(تجنبوا المكاسب الدنيئة)** وقوله: **(لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه)** وقوله: **(لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل)** أ. هـ(١).

ونود أن نشير إلى أن تقادم العهد، وطول الزمن، وعدم وجود السند الصحيح الذي يعول عليه في الرواية يجعلنا في شك من كل هذا، فعلينا أن نكتفي بما جاء به الكتاب الكريم في شأن إدريس عليه السلام، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال:

١- (إنه كان صديقًا) أي مبالغًا في الصدق لم يكذب قط.

٢- (نبيًا) مرسلاً من الله تعالى، وأنه أنبأ عن الله عز وجل.

٣- (ورفعناه مكانا عليا) أي أعلينا قدره ورفعنا ذكره في الملأ ونحوهذا قوله لنبيه ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

---

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ط ودار الجيل بيروت ص٣٨ - ٤٤.

نوح عليه السلام

قال جل شأنه في سورة الحاقة : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ .

إن أول قصة البشرية يتمثل بعد خلق آدم في ذريته التي ركبت الجارية أي سفينة نوح عليه السلام وما أدراك ما سفينة نوح؟ إنها التي حملت أجدادنا وأصولنا لكي تنمو البشرية وتنتشر في مناكب الأرض ولتكون هذه الآية تذكرة لنا بنعم الله علينا وفضله ومنه ولتحفظها الآذان الواعية .

لنا مع الجارية حديث فإنها تمثل بدء خليقة الآدميين ولابدمن العناية بهذا البدء فما قصة الجارية؟

أما الجارية فإنها سفينة نوح وأما صاحبها فهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يارد بن مهلاييل بن قينن بن أنوس بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام .

وبين نوح وآدم عشرة قرون كما قال الحافظ أبوحاتم بن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه،حدثنا أبوتوبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلاً قال : يارسول الله أنبي كان آدم؟ . .

قال :«نعم مكلم» قال : فكم كان بينه وبين نوح؟ . . . . قال« عشرة قرون» .

وهذا الحديث على شرط مسلم . .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لامحالة . لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام لكن حديث

أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون. وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار. والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ** ﴾. وقال تعالى ﴿ **وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ** ﴾ وكقوله عليه الصلاة والسلام « خير القرون قرني...». فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم.

وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر فبعثه الله رحمة للعباد. فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول أهل الموقف يوم القيامة..

وقد ذكر الله قصته وماكان من قومه، وماأنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصآفات واقتربت وأنزل فيه سورة كاملة.

• حديث القرآن الكريم عن نبي الله نوح عليه السلام

سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** ﴾.

سورة يونس:

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

سورة هود:

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ

مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

سورة الأنبياء:

قال تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

سورة المؤمنون:

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ .

سورة الشعراء:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

سورة العنكبوت:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

سورة الصافات:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾.

سورة القمر:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

سورة نوح:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا (٢٨) ﴾.

بعد هذه المسيرة المباركة والزحف المقدس من آيات الله البينات يجدر بنا أن نذكر مضمون هذه القصة لما لها من جليل العظة وعميق العبرة فهذا نبى مرسل يظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ثم تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾.

أى بشرية تلك التى قضى نوح فيها هذه القرون لا هذه الأعوام ثم ماذا؟ لقد قضاها ليلاً ونهارًا يدعو إلى الله.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴾.

ومع هذا استعمل كل أساليب الإقناع وطرق الدعوة المختلفة: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾. ولم يقف الأمر عند ذلك لقد

استعمل البشارة والإنذار والخوف والرجاء والوعد والوعيد والترغيب والترهيب.
اسمع إلى قوله تعالى يحكي عن نوح في ترغيبه ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾.

ثم استمع معي إلى أسلوب الوعيد: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾. ثم استمع إليه يبصر عقولهم إلى عظمة الخالق وآياته الكونية والآفاقية بعد ما بين آياته في الأنفس وتكوين الأجنة في بطون الأمهات طوراً بعد طور.

نعم: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي تنخلع لها الأفئدة وتنفطر من هولها الأكباد جل جلالك أنت الواحد بلا عدد، القائم بلا عمد، الدائم بلا أمد لا يشغلك سائل ولا ينقصك نائل. علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر.

إن نوحًا مع قومه درس لكل داعية إلى الله أن يصبر على أذى العباد وليكن مع الناس كالشجر يرمونه بالحجر فيرميهم بأطيب الثمر.

لقد مضى بين نوح وآدم عشرةقرون من الزمان كانت البشرية فيها على التوحيد وكان الناس أمة واحدة. يحدثنا الإمام ابن كثير رحمة الله تعالى فيقول:

« ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن

موسى عن محمدبن قيس قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأتاها بأرض الحبشة ويقال لها مارية وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل يوم القيامة». والمقصود إن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كماثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى حديث الشفاعة قال:

«فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك؟ . .ألاترى ما نحن فيه ومابلغنا؟ . . فيقول :ربى قد غضب اليوم غضبًا شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن شجرة فعصيت، نفسى نفسى. اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداًشكوراً ألاترى إلى مانحن فيه؟.،. ألا ترى. ما بلغنا؟ ألاتشفع لنا إلى ربك عز وجل؟ فيقول: «ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسى نفسى».

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالاً ولا طاغوتًا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ .

وقال فيه وفى إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾.

وقال: ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦].

وقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢].

وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: ٢، ٣].

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار بالترغيب تارة والترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ أى السادة الكبراء منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠]، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦١] أى لست كما تزعمون من أنى ضال بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين أى الذى يقول للشئ كن فيكون ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا أى فصيحًا ناصحًا أعلم الناس بالله عز وجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

تعجبوا أن يكون بشرًا رسولاً وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس وهم ضعفاؤهم كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل وماذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية. وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحًا للصديق: **«مادعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم»**.

ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة سريعة من غير نظر ولا روية لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضى الله عنهم.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أى لم يظهر لكم أمر بعد إتصافكم بالايمان ولا مزية علينا.. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٧، ٢٨].

وهذا تلطف فى الخطاب معهم وترفق بهم فى الدعوة إلى الحق كما قال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٧].

وهذا منه:

يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أى النبوة

---

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ط ودار الجيل بيروت ص٣٨ - ٤٤.

والرسالة ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ أى ليس لى فيكم حيلة والحالة هذه ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم لن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم..

وقوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ووعدوه أن يجتمعوا به إن هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿ إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [هود: ٢٩] أى إنهم صائرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾. ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أى بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ولا أملك لنفسى نفعًا ولاضرًا إلا ماشاء الله ﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ يعنى من اتباعه ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قالوا فى الموضع الآخر ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾. أى ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل أوصوا ما بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقى. وكانت سجاياهم تأبى الايمان واتباع الحق، ولهذا

قال: ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ولهذا ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

أى إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذى لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر بل هو الذى يقول للشيء كن فيكون ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ .

تسلية له عما كان منهم إليه.

﴿ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه تعزيةلنوح عليه السلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن أى لا يسوء بك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجب عجيب. ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾.

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها، وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم فإنه ليس الخبر كالمعاينة ولهذا قال: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾.

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أى يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به. ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

أى نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا. وهكذا فى الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول. كما قال البخارى: حدثنا موسى ابن اسماعيل حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «يجئ نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أى رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبى. فيقول يانوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فتشهد أنه قد بلغ وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ والوسط: العدل.

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحًا بالحق وأنزل عليه الحق وأمره به وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها ولم يدع شيئًا مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد

نهاهم عنه وحذرهم منه وهكذا شأن جميع الرسل حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم كما قال البخاري: حدثنا عبدان حدثنا عبد الله عن يونس عن الزهري. قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال «إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور».

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً..

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجئ معه بمثال الجنة والنار والتي يقول عليها الجنة هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه».

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنةوالله أعلم.

ثم دعا نوح ربه قائلاً: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها ومشاهدتنا لذلك لنرشدك إلى الصواب في صنعتها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد وأمر أنه لايراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعانيه من العذاب العظيم الذي قد حتمه الفعال لما يريد.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض أي نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار..

وأما قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين..

وقوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ .. أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر فكان منهم ابنه «يام» الذى غرق.

﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أى واحمل فيها من آمن بك من أمتك. قال الله تعالى ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم.

وعن كعب الأحبار كانوا اثنتين وسبعين نفساً وقيل: كانوا عشرة وقيل: إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة «يام» الذى انخذل وانعزل وسلك عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل: وقيل كانوا سبعة وأما امرأة نوح –و هى أم أولاده كلهم وهم حام وسام ويافث، ويام ويسميه أهل الكتاب كنعان وهو الذى قد غرق، – فقد ماتت قبل الطوفان، وقيل إنها غرقت مع من غرق وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾.

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال: ﴿ **ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾. أى على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى وذو عقاب أليم مع كونه غفوراً رحيماً لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره قال الله تعالى: ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾.

وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴾ والدسر يعنى المسامير. ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ أى بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ **جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ أى السفينة ﴿ **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾.

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذى عند أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعاً وعم جميع الأرض طولها وعرضها سهولها وجبالها وقفارها ورمالها ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾.

وهذا الابن هو (يام) أخو سام وحام ويافث وقيل اسمه كنعان وكان كافراً عمل عملاً غير صالح مخالفاً أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك، هذا: وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عز وجل أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها وأمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر وغيض الماء أى نقص عما كان وقضى الأمر أى وقع بهم والذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم وقيل بُعداً للقوم الظالمين أى نودى عليهم بلسان القدرة بعداً لهم من الرحمة والمغفرة كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ .

وقد استجاب الله تعالى : – وله الحمد والمنة – دعوته فلم يبق منهم عين تطرف قال رسول الله ﷺ « مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة يعنى – إلا خمسين عامًا – وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها

سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر كيف تجرى؟! قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبًا شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى».

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين دياراً.

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ووجه السؤال إنك وعدتنى بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك - أى الذين وعدت بنجاتهم أى إنا قلنا لك ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ﴿بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ أى اهبط بسلام سالمًا مباركًا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد، أى من أولادك فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقبًا سوى نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث.

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك

قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها». وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى.

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا.

ذكر صومه عليه السلام:

قال ابن ماجة: باب صيام نوح عليه السلام..

حدثنا سهل بن أبى سهل حدثنا سعيد بن أبى مريم عن ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى».

وقال الطبرانى: حدثنا أبوالزنباغ روح بن فرج حدثنا عمر بن خالد الحرانى حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة عن يزيد بن رباح أبى فراس انه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحى وصام داود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر صام الدهر وأفطر الدهر».

ذكر حجه عليه السلام:

قال الحافظ أبويعلى عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال: «يا أبا بكر أى واد هذا؟.. قال هذا وادى عسفان. قال: لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران - أى نوق فتية - لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار[1] يحجون البيت العتيق».

ذكر وصيته لولده عليه السلام:

قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ورفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل! ثم قال: إن نبى الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إنى قاص

(١) النمار: جمع نمرة - وهى البردة.

عليك وصيةآمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين آمرك بلا إله إلا الله فإن السماوات والسبع والأراضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأراضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا ا لله، وبسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شىء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر. قال: قلت – أو قيل – يارسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟.. أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا.. قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قلت – أو قيل – يارسول الله فما الكبر؟.... قال: «سفه الحق وغمط الناس».

سؤال: لماذا كانت عقوبة قوم نوح هكذا؟

يجيب القرآن الكريم فى صرامة وحزم وصراحة ووضوح وإيجاز وجيز فيقول الله تعالى: ﴿**وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ**﴾ وهذه الآية الكريمة على إيجازها تعطى دروساً للأمم التى تريد أن تحيا وأهم هذه الدروس أن الظلم مرتعه وخيم وأن عاقبة الظالمين هلاك وتدمير.

يحدثنا العلامة ابن حجر الهيثمى فى كتابه الزواجر فيقول: قال الله تعالى ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**﴾.

والركون إلى الشىء السكون والميل إليه بالمحبةومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية: لا تميلوا إليهم كل الميل فى المحبةولين الكلام والمودة وقال السدى وابن زيد: لا تداهنوهم.

وقال عكرمة: لا تطيعوهم وتودوهم.

وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم.

والظاهر أن ذلك كله مراد من الآية :

وقال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«الظلم ظلمات يوم القيامة»** .

وأخرج مسلم وغيره : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» .

وروى مسلم وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » . وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم « إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

والطبرانى : « لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم وتستسقوا فلا تسقوا وتستنصروا فلا تنصروا » .

والطبرانى بسند رجاله ثقات : « صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى إمام ظلوم غشوم وكل غال مارق » .

والشيخان وغيرهما « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

ومسلم :« اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » .

والطبرانى فى الصغير والأوسط : « يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى » .

وأبوداود : « من حمى مؤمنًا من منافق أذاه قال : بعث الله ملكًا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم » .

وقال ﷺ : **«من أعان ظالمًا سلط عليه»** .

وقال سعيد بن المسيب لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بانكار من قلوبكم لأن تحبط أعمالكم الصالحة.

وقال مكحول الدمشقى: ينادى مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأعوانهم فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك الا حضر معهم فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم.

وهكذا تبين لنا عاقبة الظالمين من قوم نوح وعقبنا عليهم بالظالمين من بعدهم وذكرنا حشداً من كلام مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية سيدنا محمد ﷺ وكيف بين لنا خطر الظلم على الأمم وأنه إيذان بتدميرها ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ﴾.

وقد صدق الله جل شأنه إذ يقول فى شأن الظالمين ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ** ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٥].

نسأل الله أن ينجينا من الظلم ويباعد بيننا وبين الظالمين إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

قبر نوح عليه السلام

روى ابن جرير والأزرقى عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر. والله أعلم.

﴿ **سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصافات: ٧٩-٨١].



هود عليه السلام

هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ويقال إن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ويقال هود بن عبدالله بن رباح الجارود ابن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ذكره ابن جرير.

وكان من قبيلة يقال لها عاد بن عوص بن سام بن نوح وكانوا عربا يسكنون الأحقاف - وهي جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشجر، واسم واديهم مغيث، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

ويقال: إن هودا عليه السلام أول من تكلم بالعربية. وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها. وقال غيره: أول من تكلم بها نوح عليه السلام. وقيل: آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك والله أعلم ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم: عاد وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، ومحطان، وبنو يقطن وغيرهم وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والمقصود أن عادا - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله عز وجل(١).

يقول الأستاذ عبدالوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء:

« كانت مساكن عاد في أرض الأحقاف وهي تقع في شمال حضرموت وفي

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربي.

شمالها الربع الخالى وفى شرقها عمان وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أنيس بعد ذلك العمران والنعيم المقيم ولم يتعرض أحد من الأوروبيين الباحثين والمنقبين إلى الكشف عن بلادهم والتنقيب فى أرضهم. ولعل تحت الرمال من الثروة العلمية ما لو كشف لكان عظيم القيمة فى عالم الآثار وأبان عن مدينة عظيمة مطمورة تحت تلك الكثبان وقد أخبر السيد عبد الله بن أحمد بن عمر بن يحيى العلوى من أهل حضرموت أنه قام فى جماعة إلى إحدى المدن البائدة فى شمال حضرموت ونقب فيها وعثر على بعض الآنية من المرمر عليها كتابة بالخط المسمارى إلا أنه ترك التنقيب لمضايقة البدو له وإثقال كاهله بالمطالب المالية.. وعاد لم تذكر فى كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن الكريم فقد ذكر مساكنهم وأحوالهم وجسامة أجسامهم وقوتهم وما كانوا ناعمين فيه من خصب ورغد عيش وما استمسكوا به من الكفر والأوثان وعتوهم وفسادهم فى الأرض وتماديهم فى الاستمساك بعبادتهم الباطلة وما بذل هود عليه السلام فى سبيل هدايتهم وردهم عن فاسد اعتقادهم وما قابلوه به من العناد والسخرية والاستهزاء إلى أن تأذن الله بهلاكهم.. كان هود عليه السلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم إذْ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضا تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذى يعيشون منه وتنبت الكلأ الذى ترعى فيه ماشيتهم وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم وأن الذى يضر وينفع إنما هو الله تعالى الذى أغدق عليهم نعمه وهو الذى خلقهم وبيده مماتهم وأن الواجب عليهم أن يتقوه ويتوبوا إليه وأن يستغفروه لما فرط منهم من إشراك غيره معه فى العبادة وأنهم إذا تابوا إليه واستغفروه لما أسلفوا من آثام فإنه يرسل المطر عليهم متتابعا من غير أن يصحب نزوله ضرر ويزيدهم عزا إلى عزهم وكان هود يبين لهم أنه لا يطلب منهم أجرا على نصيحته لهم أو رياسة يتزعم بها بينهم. وأنه لا يطلب الأجر على ذلك إلا من الله تعالى.. ومن كان كذلك يكون أبعد عن التهمة إذْ هو لا يجر لنفسه من وراء ذلك نفعا ولا يبغى لها فائدة من إتاوة يفرضها أو زعامة يتولاها. كان فى ملأ عاد ناس قد عتوا ورأوا كبيرا على أنفسهم أن يصدوا عن أى مراد يريدونه كما

كان منهم مؤمنون إلا أن شقوة أهل الكفر والعتو قد غلبت عليهم وكانوا الجمهور الأعظم فسفهوا هودا وكذبوه وتجاهلوا الحجج والبراهين القاطعة التى أقامها على صدقه وقالوا له ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [هود : ٥٣] ورموه بالسفاهة والخروج عن السبيل السوى بابتداع ما ابتدع من الدعوة إلى ترك الأصنام وإفراد الله تعالى بالعبادة وذلك غير ما ورثوه عن الآباء من عبادتها والاستشفاع بها، وراجعهم هود بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول من رب العالمين ليبلغهم رسالة ربهم وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع بها وهو أعلم حيث يجعل رسالته وترقى قوم هود فى تكذيبه واتهموه فى عقله وقالوا: إننا لا نقول إلا أنك لما عبت آلهتنا وحاولت صرفنا عن عبادتها قد اعتراك بعضها بسوء فألحق بك الخبال والجنون فأنت عندنا فى حكم أهل العته والجنون - وقد ظنوا أنهم باتهامهم إياه عليه السلام بالجنون ينصرف الناس عن الإصغاء إليه والاعتداد بكلامه سمع هود ذلك فأشهد الله تعالى وأشهدهم أنه برئ من تلك الآلهة التى يزعمون لها القدرة على أن تمسه بسوء وتحداهم وآلهتهم أن يكيدوه إذا كان ذلك فى قدرتهم وأن يسرعوا إلى ذلك مبادرين دون أن ينظروه فإنه واثق من إلهه سبحانه الذى بيده نواصى كل ما على الأرض من دآبة أنه سينصره ويمنعه أن يصلوا إلى مسه بأذى وأعلنهم هود عليه السلام بأنهم إذا تولوا معرضين عن قوله ولم يستمعوا لنصحيته فإنه قد قام بواجبه الذى كلف به من ربه وأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوما غيرهم وأن هذا لا يضر الله شيئا لأنه حافظ ومستول على كل شيء وكل شيء فى قبضة قدرته - لم يزل هود يمحضهم النصح ويعلمهم أنه ناصح لهم خالص النية فى العمل بكل ما ينفعهم، أمين على ما يقوله لهم عن الله تعالى، فهو لا يدعوهم إلا إلى ما فيه سعادتهم وحسن حالهم وأنهم لا ينبغى لهم أن يعجبوا لأنهم جاءهم رجل منهم لينذرهم لأن ذلك من سنة الله تعالى أن يجعل الرسول إلى القوم منهم ليكونوا أشد فهمًا لما يلقيه إليهم ولأنهم أعلم بحقيقته وأمانته وما هو عليه من خلق حسن.

راجعه قومه متعجبين مما يطلبه منهم من عبادة الله وحده وترك ما وجدوا آباءهم يعبدونه من الأصنام إذ فى ذلك تحقير للآباء وامتهانهم برميهم بالكفر وفيه أيضا

تحقير أوليائهم وشفعائهم عند الله بترك التوجه بهم إليه تعالى وهم وسيلتهم إليه تعالى وهم المقصودون بالتعظيم لصورهم وتماثيلهم – ثم ترقوا إلى تحديه قائلين ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] في إنذارك بقولك ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٣٥] حينئذ أنذرهم هود بأن الله تعالى سيحل بهم عذابا قريبا بقوله : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي عذاب وغضب ومعنى ذلك أنه قد قرب الانتقام المحتم وإنما عبر بـ(وقع) لأنه محقق الوقوع ثم وبخهم قائلا : ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف : ٧١] ثم قال لهم انتظروا حلول العذاب بكم إني معكم من المنتظرين فلما عتا قوم هود على ربهم وعصوا رسوله وكذبوه وجحدوا بآيات الله التى أقامها هود على صدقه في أنه مرسل من ربه، واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومهم ولم تبق فائدة في إنذارهم أحل الله تعالى بهم نقمته في الدنيا بأن أمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا وكان كلما نزل بهم الجهد ذكرهم هود بدعوته وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له والعمل بنصائحه فكان ذلك يزيدهم عتوا إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر – أي منقلع عن قعره ومغرسه – وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ونجى الله تعالى هودا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ .

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع وقيل هم ثمود ويقول أهل حضرموت إن هودا عليه السلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة تريم قرب وادى برهوت وقد أثر عن علي كرم الله وجهه أنه مدفون في كثيب أحمر وعند رأسه سمرة في حضرموت – وأهل فلسطين يدعون أنه دفن عندهم وقد بنوا له قبرا ويعملون له في كل سنة مولدا وقول أهل حضرموت أقرب إلى المعقول لأنها متاخمة لبلاد عاد وهي الأحقاف دون فلسطين » .

هود عليه السلام ورسالته في كتاب الله عز وجل:

- قال تعالى - بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم - في سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: ٦٥-٧٢].

- وقال تعالى - بعد ذكر قصة نوح - في سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

- وقال تعالى - بعد ذكر قصة قوم نوح - في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

- وقال تعالى - بعد قصة قوم نوح - في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

- وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

- وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

(٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥].

وقال تعالى فى الذاريات: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وقال تعالى فى سورة النجم: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم: ٥٠-٥٥].

وقال تعالى فى سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢].

وقال تعالى فى سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال تعالى في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

العبرة من قصة هود مع قوم عاد:

ذكر هود فى القرآن الكريم سبع مرات فذكر فى سورة الأعراف فى الآية ٦٥ وفى سورة هود فى الآيات ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ وفى سورة الشعراء فى الآية ١٢٤

كما جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص وفي سورة ق .

والقارئ لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيل إليه أنه يرى إنسانا وقورا رزينا يزن الكلام قبل إلقائه يتجلى الإخلاص وحسن النية على قسمات وجهه وهو :

– لا يقابل الشر بمثله بل لا يفارقه استعمال اللين في كلامه مع قومه انظروا إلى قولهم له ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ كان جوابه أن قال لهم ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ [الأعراف : ٦٦ ، ٦٧] .

فمن تأمل في هذا الجواب وجده غاية في دماثة الأخلاق والتلطف في إسداء النصيحة الخالصة من شوائب جر أية منفعة .

– تلطفه بذكر نعم الله تعالى عليهم وترغيبهم في الإيمان وبيان أن ذلك يحفظ عليهم حسن حالهم وتذكيرهم بما أنعم الله عليهم به من أموال وبنين وجنات وعيون وأنه زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وأن إيمانهم يستتبع رضا الله تعالى فيرسل السماء عليهم مدرارا لسقي زروعهم وإنبات الكلأ لماشيتهم وأنه تعالى يزيدهم عزا إلى عزهم .

فكان جواب قومه له التعجب من شأنه وشأن رسالته إذ جاءهم ليعبدوا الله وحده وأن يذروا ما كان يعبد آباؤهم من قبلهم واتهموه بأن بعض آلهتهم مسه بالجنون الذي أفقده صوابه عقابا له على الخوض في حقهم والتقليل من سلطتهم .

– إنه مع مشاكستهم له وافترائهم عليه ورميهم له بالجنون لم يزد في جوابه على أن قال لهم ﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود : ٥٤–٥٦] .

– إن الذي يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ينبغي أن يكون آخذا أخذ هود عليه السلام في سعة الصدر وعدم مقابلة الشر بمثله، وأن يحتمل صلف

المدعوين وسوء ردهم عليه رجاء أن يظفر ببغيته منهم ويفوز بهدايتهم أو هداية بعض منهم وأن يكون جوابه بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب ما قاله هود عليه السلام ﴿ **فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ** ﴾.

نعم الخلق خلقه ونعم الصبر صبره(١).

﴿ **أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾ [هود: ٦٠].

نعم إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. اقرءوا إن شئتم ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود:١٠٢].

وهكذا طويت عاد كما يطوى البرق معصرات الغمام، وأدرجت في أكفان القدر ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ١٤]. أين من بنى وشيد، وعمر ومجد؟ أين الفراعنة الشداد؟! أين ثمود وأين عاد تلك بيوتهم خاوية سكنتها الذئاب العاوية؟ فهل يُرى لهم من باقية، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا**

---

(١) راجع قصص الأنبياء للأستاذ عبدالوهاب النجار ط دار الجيل بيروت ص ٦٩-٧٨.

بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢].

وكان لابد من العاقبة، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين قال جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨-٦٠].



صالح عليه السلام

كانت قبيلة ثمود من قبائل العرب البائدة وقد كانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله، فورثوا أرضهم وديارهم وآتاهم الله نعما كثيرة، وأرسل إليهم صالحا نبيا فيهم يهديهم إلى الصراط السوى ويدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر..

وقد قيل إن صالحًا هو ابن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن أرم بن نوح[(١)] أى أنه يجتمع مع هود فى جد واحد هو أرم ولكن هناك بعض اختلاف في الأسماء بين صالح وثمود فى رواية أخرى فقيل إنه صالح بن عبيد بن آصف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود[(٢)] وقيل إن ثمود هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل إن ثمود أخو جديس وطسم[(٣)] وقيل أخو جديس وقيل إن ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود، أخى جديس، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله فيهم رجلا منهم هو عبد الله ورسوله صالح[(٤)] وقيل سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى[(٥)].

لقد نادى صالح قومه ودعاهم إلى التوحيد، كما دعا من قبل قومهما نوح وهود فقال ﴿**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ وأعلن لقومه رسالته فقال لهم ﴿**إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون**﴾ وذكرهم بأسلافهم الذين بعث فيهم

---

(١) البداية والنهاية ص ١٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص٢٣٨.

(٣) تفسير غرائب القرآن جـ٨ ص١٤٦.

(٤) البداية والنهاية ص ١٣٠ - ١٣١.

(٥) تفسير غرائب القرآن جـ٨ ص ١٤٦.

هود بقوله: ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد... ﴾ كما ذكرهم بأنعم الله وفضله عليهم وأرسل الله إليهم الناقة آية من آياته ودليلا على صدق نبوة رسوله كما دعا قومه إلى الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى فقال: ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾.

كما أنذر قومه بالساعة فكذبوه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٤، ٥] وأخبر صالح قومه أنهم سيبعثون بعد الموت وفناء الحياة الدنيا وأن الله تعالى سوف يبعث من في القبور وسيحاسبهم على كفرهم وعصيانهم وعدم اتباع رسلهم وعتوهم عن أمر ربهم وأنهم سيقومون للحساب فيجازوا بحسب ما قدموا في حياتهم الدنيا وأن الحياة الآخرة صدق وأنها الدائمة إما في النعيم أو في الجحيم(١) قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٧]، ولقد عقروا الناقة بعدما كفروا بالله وخالفوا أمره فكان لابد من الجزاء قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

صالح عليه السلام ورسالته في كتاب الله:

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ

(١) راجع الأنبياء والرسل للدكتور محمد وصفي الكتاب ١٨ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: : ٧٣-٧٩].

وقال الله تعالى فى سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر: ٨٠ - ٨٤].

وقال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ

﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

وقال تعالى في سورة النمل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وقال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

وكثيرا ما يقرن الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم والفجر.

ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة. ولكن في القرآن الكريم ما يدل على أن موسى عليه السلام أخبر عنهما كما قال تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٨، ٩].

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى عليه السلام(١).

لقد أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالحا كما أرسل نوحا إلى قومه وهودا إلى قومه وجاء الأمر بعبادة الله وحده كشأن كل نبي يبعث إلى قومه فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد وهو معسكر التوحيد، وتحت لواء واحد هو قول: لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله» لقد سارت مواكب التوحيد يقودها الأنبياء وأتباعهم الذين رفعوا راياتهم خفاقة تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس في الجلاء، ومشى على وجه الزمان بنورها قوم أتقياء أنقياء أعلنوها في قوة الإيمان: لا إله إلا الله عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله قال لهم صالح عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] البينة:

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربي ص ١١٥.

الحجة القاطعة والبرهان الساطع على صدق رسالته وقد طلبوا منه آية تدل على صدقه فكانت الآية هي الناقة.

ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة صفتها كيت وكيت - وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به؟ قالوا نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى صلاة الله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله - عز وجل - تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال تعالى ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى: أكثرهم ولهذا قال لهم صالح عليه السلام ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم ﴿ **لكم آية** ﴾ أى: دليلا على صدق ما جئتكم به ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ أى تبقى بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ** ﴾ [القمر: ٢٨] أى وأخبرهم يا صالح أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين هذه الناقة، لها يوم ولهم يوم، وكل حصة منه يحضر صاحبها لأخذها فى نوبته، فتحضر الناقة تارة ويحضرون هم أخرى. وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ولا ترد الماء وهى عليه فصعب ذلك عليهم. ويقال إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ ولهذا قال الله تعالى ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر** ﴾ أى: اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون وانتظر ما

يكون من أمرهم واصطبر على أذاهم. فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملأهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم. قال الله تعالى: ﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾.. وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ولهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم قال تعالى ﴿ **فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا** ﴾ أى: احذروها ﴿ **فكذبوه فعقروها** ﴾ لقد نادوا صاحبهم قدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضوه على ذلك فلبى طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها فخرت صريعة ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح عليه السلام ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ أى غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة قال تعالى ﴿ **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** ﴾ تحالفوا وتبايعوا على قتله ليلا غيلة فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين.

وقال قتادة: تواثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم، قال العوفى عن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة قالوا: حين عقروها لنبيتن صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين(١).

وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحا فإن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبتوه فى أهله فدفعتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن

---

(١) هؤلاء هم التسعة رهط الذين عقروا الناقة ومنهم قدار بن سالف ومعنى رهط أى نفر.

العذاب نازل بكم في ثلاث فإن كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم.

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف أي غار هناك ليلا فقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدري قومهم أين هم ولا يدرون ما فعل بقومهم: فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ثم قرأ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

لقد عقروا الناقة بعدما كفروا بالله وخالفوا أمره وبدلا من أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه قالوا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] لقد قالوا: (يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) وتلك مواقف أهل الباطل، عندما يركبون رؤوسهم التي عشش الشيطان فيها فباض الإلحاد وأفرخ الكفر والكبر فكان لابد من الجزاء قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقد جاء الإخبار عن عذابهم في مواضع غير قليلة من القرآن الكريم وهذه الآية أحدها.. وفي سورة هود ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧-٦٨] وفي سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] وفي سورة الحاقة قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

ولا تعارض بين هذه الآيات فقد رجت الأرض كإنذار لهم بنزول العذاب ثم جاءت الصيحة، ثم أعقبتها الصاعقة، فكانت أنواع العذاب كلها هى الطاغية التى عمتهم وشملتهم بعد صعق أرواحهم.

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة وسبحان الوارث الباعث الواجد الماجد الواحد المحيى المميت المعز المذل الباسط القابض الرافع الخافض. سبحان من أفنى ثمود فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون والأمر يومئذ لله.

وكانت النهاية ﴿ **فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ٧٩].

إنها قمة المأساة وذروة الملهاة، ألا يقبل الناس نصح الناصحين الأمناء لقد قالها صالح بعدما حم القضاء وحل البلاء ونزل القدر المحتوم ﴿ **لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم** ﴾ أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لاتحبون الحق ولا تتبعون ناصحا، ولهذا قال ﴿ **ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ ويقال إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات.

قال الإمام أحمد: عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: « يا أبا بكر: أى واد هذا؟ قال: وادى عسفان قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام - على بكرات خطمها الليف، أزرهم العباء وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق»[1] إسناد حسن.

- مرور النبى ﷺ بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر، عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ١ ص ٢٣٢ مسند ابن عباس.

أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»(١).

وقال أحمد أيضا: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(٢).

وفي بعض الروايات أنه - عليه الصلاة والسلام - لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفي رواية: فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم - صلوات الله وسلامه عليه.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين



(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١١٧ عن ابن عمر.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص ٩ عن عبد الله بن عمر.

إبراهيم الخليل عليه السلام

« هو إبراهيم بن تارخ « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروع « ٢٣٠ » ابن راغو « ٢٣٩ » بن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » ابن أرفخشد « ٤٣٨ » ابن سام « ٦٠٠ » بن نوح عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندى كما ذكروه من المدد »(١).

وحكى الحافظ بن عساكر فى ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلى صاحب كتاب « المبتدأ » أن اسم أم إبراهيم (أميلة). ثم أورد عنه فى خبر ولادتها له حكاية طويلة. وقال الكلبى: اسمها (يونا) بنت كربتا بن كرثى من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح.

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى (أبا الضيفان).

قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام، وناحور وهاران، وولد لهاران لوط عليه السلام وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها وهى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحح ذلك الحافظ بن عساكر بعدما روى من طريق هشام ابن عمار عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له قاسيون. ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينًا للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم « سارة »، وكانت « سارة » عاقرًا لا تلد.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار الكتب الإسلامية ص ١٩١.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط ابن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها - ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين وهى بلاد بيت المقدس فأقاموا بحران وهى أرض الكلدانيين فى ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضًا. وكانوا يعبدون الكواكب السبعة. والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين. وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا، سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام. وكان الخليل إبراهيم هو الذى أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال، فإن الله تعالى آتاه رشده فى صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً فى كبره وقد كان أهلاً لذلك مصداقًا لقوله تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين ﴾.

قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه:

يقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

بهذا اللطف فى الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه يحاول أن يهديه إلى الخير الذى هداه الله إليه، وعلمه إياه؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ ويسأله ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا؟ ﴾ والأصل فى العبادة أن يتوجه بها الإنسان

إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى. وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى. فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان، بل إلى ما هو فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام. هذه هى اللمسة الأولى التى يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه. ثم يتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه. إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه. ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق؛ فهو ينصح أباه الذى لم يتلق هذا العلم، ليتبعه فى الطريق الذى هدى إليه:

﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ صراطاً مستقيماً سهلاً حنيفاً واضحاً يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك أى إن كنت أصغر منك سنا فإن الله تعالى علمنى ما لم تعلمه أنت، فلا يكن فى صدرك حرج من اتباعى هداية لك إلى الصراط السوى المستقيم، الذى فى اتباعه خير الدنيا والآخرة، وإن فى اتباع الهدى فلاح الدارين وسعادة الكونين. وليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده إذا كان الولد على اتصال بمصدر أعلى. فإنما يتبع ذلك المصدر، ويسير فى طريق الهدى.

وبعد هذا الكشف عما فى عبادة الأصنام من نكارة، وبيان المصدر الذى يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه فى دعوة أبيه.. يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن، فهو يخشى أن يغضب الله عليه فيقضى عليه فيكون من أتباع الشيطان.

﴿ **يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ** ﴾ والشيطان هو الذى يغرى بعبادة الأصنام من دون الله فالذى يعبدها كأنما يعبد الشيطان والشيطان عاصٍ للرحمن.

﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا** ﴾ وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله وليًا للشيطان وتابعًا. فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة.. نقمة تقوده إلى عذاب أشد وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب.

تأمل حرص إبراهيم على سلامة أبيه وهو يخاطبه بلسان الرحمة والرأفة: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾.

إنه يخاف على أبيه من مس العذاب، فما أَبَرَّك يا إبراهيم بأبيك، وما أعظم قلبك الرحيم، إنه إن مسك عذاب من الرحمن وأنت موال للشيطان فلن تجد من يدفع عنك العذاب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى قلب المشرك القاسي، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم وكاره لعبادتها ومعرض عنها؟ أوبلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة؟ فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ فاغرب عن وجهي وابعد عني طويلاً. استبقاء لحياتك إن كنت تريد النجاة: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير يعني دهرًا، وقال الحسن البصري: زمنًا طويلاً. وقال السدي ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: أبدًا.

وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: سويًا سالمًا قبل أن تصيبك مني عقوبة.

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى. وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب. وذلك شأن الإيمان مع الكفر، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه: ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ سلام عليك.. فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان بل يرحمك فيرزقك الهدى. وقد عودني ربي أنه يكرمني فيجيب دعائي. وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت

وقومك وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة، وأدعو ربى وحده راجيًا - بسبب دعائى لله - ألا يجعلنى شقيًا. فالذى يرجوه إبراهيم هو مجرد تجنيبه الشقاوة.. وذلك مع الأدب والتحرج الذى يستشعره فهو لا يرى لنفسه فضلاً، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة!

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم وهجر أهله ودياره فلم يتركه الله وحيداً، بل وهب له ذرية وعوضه خيراً: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وإسحاق هو ابن إبراهيم، رزقه من سارة - وكانت قبله عقيمًا - ويعقوب هو ابن إسحاق ولكنه يحسب ولدا لإبراهيم لأن إسحاق رزقه فى حياة جده فنشأ فى بيته وحجره، وكان كأنه ولده المباشر، وتعلم ديانته ولقنها بنيه وكان نبيًا كأبيه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونسلهم... والرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة فى جو السورة ولأنها هبة الله التى تعوض إبراهيم عن أهله ودياره وتؤنسه فى وحدته واعتزاله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ فكانوا صادقين فى دعوتهم مسموعى الكلمة فى قومهم يؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل(١).

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى الثناء الحسن وكذا قال السدى ومالك بن أنس وقال ابن جرير إنما قال ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال ابن عباس: مازال إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] أما عن الموعدة التى وعدها إياه فإن إبراهيم قال له: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] ولقد أنجز إبراهيم وعده عندما قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ

---

(١) راجع (الظلال) للمرحوم سيد قطب ط دار الشروق ٢٣١١ - ٢٣١٣.

﴿كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. ومعنى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] فقد ورد فى معنى الأواه معانٍ كثيرة نذكر منها ما ذكره سفيان الثورى عن عاصم بن بهدله عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الأواه الدَّعاء.

وعن شداد بن الهاد قال بينما النبى ﷺ جالس قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع». وقيل الأواه هو الدَّعاء أى كثير الدعاء، وقيل الرحيم بعباد الله. وعن ابن عباس: هو الموقن وقيل المؤمن. وقيل المسيح وذكر ابن جرير: أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: **«إنه أواه»**. وعن ابن عباس أن النبى ﷺ دفن ميتًا فقال **«رحمك الله إن كنت لأواها»** يعنى تَلاَّء للقرآن.

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

ظل إبراهيم عليه السلام صامداً فى دعوته لا تؤثر فيه الأحداث الجسام لأن الله تعالى أيده بروح من عنده، وثبت قلبه باليقين، فقد أعمل بصره وبصيرته فى علم اليقين، وحق اليقين، وعين اليقين ولقد جاهد أصدق الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله، وضرب الشرك فى جبهتين من أعْتى الجبهات: جبهة الكواكب وجبهة الأصنام.

«والظاهر أن موعظته فى الكواكب لأهل حران، فإنهم كانوا يعبدونها وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم فى عبادتها. وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها»(١).

لقد أيد الله تعالى إبراهيم عليه السلام بروح من عنده فأراه ملكوت السماوات والأرض وما اشتملت عليه الكائنات من أدلة وبراهين تؤكد عظمة الله ووحدانيته وكذلك ﴿نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾ ليعلم علم اليقين وليكون من الموقنين ولقد وقف من قومه موقف المناظرة، يرخى العنان للخصم ليلقمه بالحجارة فى حلقه ويفحمه، ويزهق باطله ويرسل قذائف الحق تدمر مواقع الباطل. لقد قال لقومه عندما جن عليه الليل وأرخى سدوله، رأى كوكبًا فقال لقومه على سبيل

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير.

الفرض الجدلى توصلا إلى الحق: هذا ربى، فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم: لا أحب الآفلين أى ما كان ينبغى إن كان هذا الكوكب معبوداً أن يأفل ويغيب، فما الذى غيبه؟ إن الذى غيبه هو خالقه الذى لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض، إنه كان عليماً قديراً. وينتقل إبراهيم من الكوكب وأفوله إلى القمر وبزوغه وظهوره، فيقول إبراهيم من باب إرخاء العنان للخصم، والجدل الموصل إلى الحق: هذا ربى، فلما أفل وغاب، قال إبراهيم معرضًا بقومه: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧] أى من هؤلاء الذين تنكبوا الجادة، وحادوا عن الطريق المستقيم، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨ – ٧٩] لما أفلت الشمس وغابت وطوتها ظلمة الليل أعلن إبراهيم النتيجة الصادقة التى لا يمارى فيها إلا كل أفاك أثيم، قال: يا قوم إنى برئ مما تشركون ثم بين لهم طريق الهدى والرشاد والحق والسداد: إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا فهو خالقهما وما فيهما: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦] حنيفًا مائلاً عن الشرك، وما أنا من المشركين.

ولقد أنكر إبراهيم الخليل عليه السلام – أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها وصغرها وتنقصها فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أى معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣].

ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

لقد مدح الله تعالى إبراهيم الخليل بما منحه فأعطاه الرشد وألهمه الحكمة منذ الصغر – والحق جل جلاله يؤتى الحكمة من يشاء ويمنحها أهلها لأنه حكيم منزه

عن العبث لذا قال سبحانه: ﴿وكنا به عالمين﴾ وعلم الله مقترن بالحكمة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

ويذكر الله تعالى صورة من صور الرشد الذى آتاه إبراهيم عليه السلام فيقول ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] إنه بذلك ينكر على قومه عبادتهم للأصنام فالاستفهام هنا استفهام توبيخ وتقريع وإنكار واسم الإشارة هنا دال على التحقير: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] . قال جل شأنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٢].

ويأتى رد هؤلاء المقلدين فى الضلال: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ كأن الله لم يخلق لهم عقولاً، ولم يرسل إليهم رسولاً، ولم يبين لهم طريق الرشد من الغى. لقد قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤] لقد أغلقوا كل طريق إلى المعرفة وسدوا كل نافذة إلى النور. لقد جاء رد إبراهيم حاسمًا وحكمه عليهم قاطعًا: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ وأى ضلال هذا؟ وأى غواية تلك؟ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئًا! ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]. وهكذا يرمى أهل الضلال أصحاب الهدى باللعب والاستهزاء واللهو، وإذا بالحق يسطع والهدى يصيح، فالحق واضح والمنادى صائح والحق أبلج والباطل لجلج ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]. نعم

إن لهذا الكون خالقًا قادراً، بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. وينقل الموقف من إقامة البراهين إلى العمل والتنفيذ لقد أقسم الخليل قسمًا أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أى ليحرضَنّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أى إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه.

قال السدى: لما اقترب وقت ذلك العيد، قال أبوه: يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: ﴿إنى سقيم﴾ فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون مه. فيقول: إنى سقيم، فلما جاز عامتهم، وبقى ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فسمعه أولئك.

وقال ابن إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إنى سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

وقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] أى جعلهم حطامًا، لقد كسرها كلها إلا كبيراً لهم يعنى إلا الصنم الكبير عندهم كما قال ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها.

لقد تحولت الأصنام التى يعبدونها إلى قطع من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه كيف وقعت الكارثة بهم وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الأصنام الأذى ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صوابهم ويدركون منه ما فى عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت. عاد القوم ليروا آلهتهم جذاذاً إلا ذلك الكبير ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها: إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئًا وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها؟ لم يسألوا

أنفسهم هذا السؤال لأن الخرافة عطلت عقولهم عن التفكير ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التدبر بل ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه الأصنام ويتوعدهم أن يكيد آلهتهم بعد انصرافهم عنها ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

« ويبدو من هذا أن إبراهيم عليه السلام كان شابًا صغير السن، حينما آتاه الله رشده فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم. ولكن أكان قد أوحى إليه بالرسالة فى ذلك الحين؟ أم هو إلهام هداه إلى الحق قبل الرسالة فدعا إليه أباه، واستنكر على قومه ما هم فيه؟ هذا هو الأرجح. وهناك احتمال أن يكون قولهم: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى ﴾ يقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره فى قولهم: ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ للتقليل من أهميته، وإفادة أنه مجهول لاخطر له؟ قد يكون. ولكننا نرجح أنه كان فتى حديث السن فى ذلك الحين »[1] ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦١] أى على رؤوس الأشهاد على الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم وكان هذا الذى أرادوه هو المقصود الأعلى لخليل الرحمن حتى يشهد الناس ضلالهم وبهتانهم ويعلموا أن الحق هو ما دعا إليه الخليل، كما قال موسى لفرعون: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٩] ذلك ليكون للحق موقفه المشهود على مرأى ومسمع. وبدأت المحاكمة: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ وقد أراد إبراهيم بهذه الإجابة أن يبادرهم بالعلم، بأن هؤلاء لا ينطقون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا ينفعون ولا يضرون ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤ – ٦٧]. فرجعوا إلى أنفسهم بالملامة إذ علموا أن ما لا يقدر على

(١) راجع الظلال للمرحوم سيد قطب ط دار الشروق ص ٢٣٨٦.

دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضر بمن ألحق به الأذى يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له وإذاً فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ وقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لا ينطق وما هذا منكم إلا غرور وجهل بما ينبغي أن تكون عليه حال المعبود. ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ، ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم، إلى فكرة خاطئة وهي الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم بأن حالهم دون حال الحيوان، فلا ينبغي لعاقل أن يعبدها لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة مع علمنا بأنهم لا ينطقون فكيف تأمرنا بسؤالهم، وإنما قال ﴿ يَنطِقُونَ ﴾ ولم يقل يسمعون أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب، وأن عدم نطقهم أبلغ في تبكيتهم ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي تبا لكم وقبحاً لمعبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر والتي اتخذتموها من دون الله أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يروج إلا على جاهل فاجر وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره وحنكتهم تجارب الأيام فمن حقكم أن تعاودوا الرأي وتقلبوه ظهراً لبطن لعلكم ترشدون بعد الضلال وتهتدون بعد الغي والعمى.

قال العلامة ابن كثير: لما دحضت حجتهم وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا عن استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً.

قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في حوبة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق، بإشارة رجل من أعراب فارس الأكراد. قال شعيب الجبائي: اسمه هيزن فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد

عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

وروى الحافظ أبو يعلى، حدثنا أبو هشام حدثنا اسحق بن سليمان عن أبى جعفر عن عاصم، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال: اللهم إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك».

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك».

وقال شعيب الجبائى: كان عمره إذْ ذاك ست عشرة، فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى.

وقال سعيد بن جبير: ويروى عن ابن عباس أيضًا قال: لما ألقى إبراهيم فى النار جعل خازن المطر يقول: متى أؤمر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾ قال: لم يبق نار فى الأرض إلا طفئت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال على بن أبى حاتم بسنده عن المنهال بن عمر، قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، قال: فكان فيها إما خمسين، وإما أربعين. قال: ما كنت أيامًا وليالى أطيب عيشًا إذْ كنت فيها، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذْ كنت فيها.

لقد أصدر رئيس المحكمة أمره على إبراهيم بالإعدام حرقًا ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]. ﴿حَرِّقُوهُ﴾ وليست احرقوه. والتشديد فى الألفاظ يدل على التشديد فى الفعل، لو أنه قال أحرقوه لكان حرقًا جلديًا أو

حرقًا سطحيًا ولكن ﴿حَرِّقُوهُ﴾ أى لا تبقوا منه عظمًا ولا لحمًا، واستعدوا لجمع الحطب شهرًا كاملاً كأنهم يريدون أن يحرقوا دولة إنه الوحيد ولكن نكاية فيه سيجمع الحطب حتى تندلع ألسنة اللهيب إلى عنان الجو. وأوقدت النار واندلع لهيبها حتى أن الطير فى هذه المنطقة كانت لا تقوى على التحليق فيها لاندلاع ألسنة النار وأتى بالخليل إبراهيم وقيد وأحضروا له آلة من آلات الرفع لتدفعه فى سواء الجحيم فماذا حدث؟ إن الله لا يغفل ولا ينام... وبينما إبراهيم ينتظر حكم الإعدام حرقًا إذا بملائكة السماء تضج إلى الله الواحد الديان: يا ربنا إبراهيم الذى يعبدك وحدك فى الأرض سيحرق بالنار فماذا قال لهم رافع السماء بلا عمد؟ يا ملائكتى إن استغاث بكم فأغيثوه فقد أذنت لكم وإن استغاث بى فسيجدنى قريبًا مجيبًا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وتقدم ملك الرياح وقال يا إبراهيم لو شئت أمرت الرياح بإذن الله أن تثور فتبعثر نيرانهم على ديارهم ويقول الخليل: لست فى حاجة إليك. ويتقدم جبريل عليه السلام ويقول: يا إبراهيم ألك حاجة إلى؟ فيقول له الخليل: وكيف أحتاج إليك وأنسى الذى أرسلك إلى؟ إنها العقيدة إذا تمكنت من شغاف القلوب وإذا ما باشرت بشاشتها نور الأفئدة تكاد تجعل المستحيل ممكنًا. تكاد تسير العوالم وتحرك الجبال. تكاد تجعل الملح ماء عذبًا فراتًا سلسبيلاً. يقول إبراهيم الخليل: أنا فى حاجة إلى الواحد الديان. فيقول له جبريل: إذن فادعوه. فيقول إبراهيم عليه السلام: حسبى بسؤالى علمه بحالى. حسبنا الله ونعم الوكيل وجئ بإبراهيم مقيداً بالأصفاد وألقى فى النار «نارهم» وإذا بمحكمة السماء تصدر قرارها وحكمها ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ﴿بَرْدًا وَسَلامًا﴾ لو قال لها كونى برداً على إبراهيم لتجمد دمه من شدة البرودة ولو قال لها كونى سلامًا على إبراهيم لتأذى من شدة حرها وحرارتها ولكنه جمع له البرودة والسلامة فنزع منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق فكانت روضة غناء وربوة حالمة باسمة فيحاء. لقد حرقت النار القيود فقط دون أن تمس لحمًا. هذا اللحم حرام على النار أن تقربه. قال المفسرون: إن الله لما قال للنار كونى برداً وسلامًا إذا بجميع النيران على وجه الأرض لا تنضج طعامًا لأن كل نار حسبت أن نداء الله لها هى

﴿ إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] وأخذت النار تخمد رويداً رويداً وبينما النمرود يطل من شرفة قصره إذ رأى إبراهيم يجلس على ربوة خضراء وجيئ بإبراهيم إلى النمرود فقال له: من الذى نجاك يا إبراهيم؟ قال إبراهيم بكل شجاعة وإيمان وعقيدة ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وأرادوا بنبى الله كيداً فكادهم الله ونجاهُ من النار فغلبوا هنالك ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠] .

وهكذا تفعل العقيدة بأصحابها، العقيدة أشد ثباتًا من الرواسى الشامخات ومن الجبال الشم، ولا يليق بحفنة من التراب تداس بالأقدام أن تتكبر على رافع السماء بلا عمد، القوى المتين.

لقد أراد قوم إبراهيم الخليل أن ينتصروا فَخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا وأرادوا أن يغْلِبُوا فَغُلبوا، وفازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاما، ولا يلقون تحية ولا سلاما، بل هى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٦] .

مناظرة إبراهيم الخليل مع الذى حاجه فى ربه

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

هذا مثل واقعى لطاغوت من طواغيت الأرض. إنه النمرود بن كنعان على عهد إبراهيم الخليل جادل فى شأن رب العالمين وكان جداله سفسطة وتضليلا ومكابرة، والذى دفعه إلى ذلك طغيانه وتجبره، فقد نسى نفسه وتلك أقصى مراحل الضلال أن ينسى الإنسان نفسه فينسى ربه قال تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة:٦٧] . وقال جل شأنه ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩] . قال الحسن رضى الله : عجبٌ لابن آدم يتكبر على الله وهو حفنة من

التراب تداس بالأقدام.. كيف يتكبر على الله وأوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة تنتنه عرقة وتؤذيه بقة وتقتله شرقة.

ماذا قال النمرود الذى أطغاه ملكه. قال لإبراهيم الخليل: أنا أحيى وأميت قالها تعقيبا على حقيقة نطق بها إبراهيم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ قال النمرود: ﴿ **قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ كيف كان ذلك؟!! جاء برجلين وأصدر حكمه عليهما بالإعدام فخفف الحكم عن واحد فادعى بذلك أنه أحياه ونفذ الحكم فى الآخر فادعى أنه أماته، وهكذا يفعل الضلال بأهله.. تهريج وفوضى ضاربة أطنابها لقد نسى أو تناسى أن الإحياء والإماتة شأن من شئون الله، فالإحياء يكون بنفخ الروح ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وكما أن الحياة مخلوقة فإن الموت أيضًا مخلوق قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ [الملك: ١، ٢].

ولما كان النمرود ﴿ **يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الحج: ٨، ٩]. أفحمه الخليل بقوله: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ** ﴾ ودهش واندحر، بعد ما ألقم الحجارة فى حلقه ﴿ **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ لأنهم اتخذوا الظلم منهجًا والجدل سبيلا والباطل طريقا فاستحقوا أن يحرموا نعمة الهداية.

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: أن هذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. قاله مجاهد وقال غيره: نمرود ابن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا

أربعة: مؤمنان وكافران. فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان والكافران: النمرود وبختنصر.

قال العلامة ابن كثير: وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم دعاه الثالثة فأبى عليه وقال اجمع جموعك وأجمع جموعي.. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بالية ودخلت واحدة منها في منخر الطاغية فمكثت في منخره وعذبه الله تعالى بها فكان يضرب على رأسه بالمرازب حتى أهلكه الله تعالى بها (١).

يقول الأستاذ أحمد بهجت في كتابه أنبياء الله:

« تحدث الناس عن معجزة الخليل إبراهيم ونجاته من الناس وعن موقفه من الملك النمرود وكيف أخرسه فلم يعرف ماذا يقول.. واستمر عليه السلام في دعوته إلى الله.. بذل جهده ليهدى قومه حاول إقناعهم بكل الوسائل لكن قومه هجروه ولم يؤمن به من قومه سوى امرأة واحدة ورجل واحد.. امرأة تسمى سارة وقد صارت فيما بعد زوجته، ورجل هو لوط وقد صار نبيا فيما بعد وحين أدرك إبراهيم عليه السلام أن أحداً لن يؤمن بدعوته.. قرر الهجرة. وقبل أن يهاجر دعا والده للإيمان، ثم تبين لإبراهيم أن والده عدو لله وأنه لا ينوى الإيمان فتبرأ منه وقطع علاقته به».

ويقول العلامة ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]، «هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم (آزر)، وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم ابيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربى ص١٤٢.

اسمه آزر. وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه آزر. ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم وهذا الذى قاله محتمل «والله أعلم».

هجرة الخليل إبراهيم عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت:٢٦]. لما رأى لوط معجزة إبراهيم عليه السلام آمن به وقال إبراهيم إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى، إذْ أمرنى ربى بالتوجه إليها، ويقال إن مهجره كان من كوثى من سواد الكوفة إلى أرض الشام، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث، وإما سكوت وهو دليل الرضا، فلم تبق إلا الهجرة. ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى أن ربى هو العزير الذى لا يذل من نصره بل يمنعه ممن أراده بسوء، الحكيم فى تدبير شئون خلقه، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه.

ذكر أهل الكتاب أنه لما قدم إبراهيم الشام أوصى الله إليه «إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك» فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً إلى التيمن وإنه كان جوع، أى قحط وشدة وغلاء، فارتحلوا إلى مصر. وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها: قولى أنا أخته. وذكروا إخدام الملك إياها هاجر. ثم إخراجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن، يعنى أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا عماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبى هريرة قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتان منهن فى ذات الله،، قوله: ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقال: ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختى. فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية مثلها أو أشد، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال إنكم لم تأتونى بإنسان وإنما أتيتمونى بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته

وهو قائم يصلي فأومأ بيده: مهيم؟ فقالت: رد الله كيد الكافر -أو الفاجر- في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء» تفرد به من هذا الوجه موقوفا.

وقال مسلم: وحدثني أبو الطاهر: أخبرنا عبد الله بن وهب: أخبرني جرير بن حازم عن أيوب السختياني عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم النبي -عليه السلام- قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله: قوله ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه، فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا تنبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتي بها فقام إبراهيم -عليه السلام- إلى الصلاة، فلما دخلت عليه؛ لم يتمالك أن بسط يده إليها. فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت، وأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها، فقال إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي، وأعْطها هاجر» قال: «فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم -عليه السلام- إنصرف فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرا كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما». قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

أخرجه البخاري (٢٢١٧) في البيوع، «باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه»، (٢٦٣٥) في الهبة، (٦٩٥٠) في الإكراه، وأخرجه أحمد (٢/ ٤٠٣، ٤٠٤) من طريق ورقاء والترمذي (٣١٦٦) في التفسير، «باب: ومن سورة الأنبياء عليهم السلام» من طريق محمد بن إسحاق، وإبراهيم بن طهمان في مشيخته (رقم٢٥) عن موسى بن عقبة، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٢٦٨) من طريق شعب، كلهم عن أبي الزناد به.

ومعنى: لك الله (في رواية مسلم) أي شاهد وضامن أن لا أضرك.

ومعنى: مهيم أي ما خبرك وما شأنك؟

ومعنى يا بنى ماء السماء: المراد العرب وذلك لخلوص نسبهم وصفائه وقيل لأن أكثرهم أصحاب مواشى وعيشهم يعتمد على ما ينبت بماء السماء وقال القاضى عياض: الأظهر عندى أن المراد بذلك الأنصار خاصة ونسبتهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد وكان يعرف بماء السماء وهو المشهور بذلك

ومن الفوائد والعبر التي يمكن استنتاجها:

- استحباب لجوء المرء إلى المعاريض إذا اضطر ففيها منادح عن الكذب.
- أن الله تعالى يصرف كيْد الكفرة عن أنبيائه بما شاء.
- إجابة الدعاء بإخلاص النية.
- كفاية الرب لمن أخلص فى الدعاء بعمله الصالح.
- ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم.
- أن من نابه أمر من الرب ينبغى له أن يفزع إلى الصلاة(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: «ما منها كلمة إلاما حل بها عن دين الله؛ فقال إنى سقيم، وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين أراد امرأته هى أختى» ومعنى ما حل جادل ودافع.

فقوله فى الحديث: «هى أختى» أى فى دين الله. وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك» يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك. ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كان معهم وهو نبى عليه السلام وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه ما الخبر. فقالت: إن الله رد كيد الكافر. وفى رواية: الفاجر - وهو الملك- وأخدم جارية.

يقول العلامة ابن كثير: «كان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله

(١) راجع (من قصص الماضين للأستاذ مشهور حسن سليمان) ط دار الهجرة للنشر والتوزيع ص٩٠- ٩٤.

بسوء وهكذا فعلت هى أيضا. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام. وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم، وكان عاملا لأخيه على مصر ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح. وذكر ابن هشام فى التيجان: أن الذى أرادها عمرو ابن امرئ القيس بن ما يلون بن سبأ، وكان على مصر. نقله السهيلي والله أعلم.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية. ثم أن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك، إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر؛ فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا. وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية ويؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ **«إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها»** أخرجه الطبرانى عن سلمان وجابر بن عبد الله.

قالوا ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا فاستنقذ لوطا عليه السلام واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة ثم رجع مؤيدا منصورا إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده. صلوات الله وسلامه عليه»(١).

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار التراث العربي ص١٥٠.

مهاجرة إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل وأمه هاجر

سأل إبراهيم الخليل ربه ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك.

قال أهل الكتاب: لما كان لإبراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت سارة له: إن الرب قد حرمني الولد فادخل على أَمَتِي هذه لعل الله يرزقك منها ولدا فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه.. فغارت منها سارة واشتدت غيرتها..

وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا. قال البخاري: قال عبد الله بن محمد -هو أبو بكر بن أبي شيبة- حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيمُ منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ وقالت له ذلك مرارا.

وجعل لا يلتفت إليها فقالت: آلله أمرك بهذا، قال: نعم؛ قالت: إذاً لا يضيعُنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حتى لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف

درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ **«فلذلك سعى الناس بينهما»** فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت «صه» -تريد نفسها- ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما يغرف.

قال ابن عباس قال الرسول ﷺ **«يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم -أو قال لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينا معينا»**، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. كان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا -أى باحثا عن الماء- فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أى رسولا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا. قالوا نعم -والمقصود أنهم لا يتملكونه - قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: **«فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس»** فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم -يعنى زاحمهم فى النفاسة وعلو الهمة- وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشَرّ، نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت جاء شيخ كذا كذا، فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرنى أن أقرأ عليك

السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك. وطلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عندهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد ذلك فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى ﷺ **«ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حبٌ لدعا لهم فيه»** قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، -أى لا يتخذهما وحدهما طعاما وهما: اللحم والماء- قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال: ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك. وكان إسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر. قال فاصنع ما أمرك الله به قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتًا .وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له. فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارةوهما يقولان: ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**﴾. قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٧]. . أ. هـ. لذلك يستحب لكل من عمل عملاً صالحًا أن يختمه بهذا الدعاء ﴿**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**﴾.

ثم دعا إبراهيم ربه قائلاً ومعه إسماعيل يدعو: ﴿**ربنا واجعلنا مسلمين لك**﴾ ويقصد بالإسلام هنا أدق معانيه وهو الإخلاص. فالإخلاص سنام الأمر وذروته، وهل الإسلام إلا أن يسلم لله وجهه؟ والإخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عباده. والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة. وقد ذاق حلاوة الإسلام من قال: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

ولما كان الأنبياء قومًا أصفياء القلوب أنقياء السريرة أتقياء الأفئدة فإن الدعوة الإبراهيمية الإسماعيلية امتد أثرها فى بطون الأزمان حيث جاءت (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) وقد استجاب الله.

ثم قالا: (وأرنا مناسكنا) أى عرفنا مواضع النسك من الإحرام والطواف والسعى وعرفات ومنى، فإن المناسك هى مواضع العبادات، وغلب إطلاقها على أفعال الحج. ثم قالا: (وتب علينا) أى وفقنا للتوبة حتى نتوب فترضى عنا ﴿ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أى كثير التوب، فليس لأحد سواك هذه الصفة فأنت الرحيم بعبادك، غافر الذنب، وقابل التوب. أليس أنت الذى تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسئ بالليل. ألست أنت الذى تنادى فى ثلث الليل الأخير: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه. ثم دعوا الله جل جلاله دعوة نفع الله بها البلاد والعباد: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

ومعنى (فيهم) أى فى هذه الأمة. « منهم »، أى عربيًا. فكانت هذه الدعوة خير خلق الله، مبعوث العناية الإلهيةوشمس الهداية الربانية الذى أرسله الله رحمة للعالمين فهو الأمى الذى علم المتعلمين، وتلا عليهم كتاب رب العالمين، ودرس لهم الحكمة الصافية وهى سنة سيد المرسلين، وزكى نفوسهم وطهرها من الغيظ والحقد والنفاق والحسد والشحناء والظلمات والشرك والظلم والفساد، فكان خير المفلحين وسيد الموحدين، وأمام المتقين، فهو النبى الخاتم الذى قال متحدثًا بنعمة الله عليه **«أنا دعوة أبى إبراهيم، وكان آخر من بشر بى عيسى بن مريم»**(١) .

لقد وقف عيسى خطيبًا فى بنى إسرائيل وقال: يابنى إسرائيل ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. فكان ذلك النبى الأمى الفقير، الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ص٤١٤ط دار الفكر.

وقاد سفينة العالم الجائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطئ الله رب العالمين.

ويختتم الخليل إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام - هذه الدعوات بالثناء على الله بما هو أهله فيقولان: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز الذى لا يغلب فهو القاهر فوق عباده، الحكيم الذى لا يعبث إذ هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق.

قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافآت: ٩٩ - ١١٣].

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شئ. إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى والصحبة والمعرفة. وكل مألوف له فى ماضى حياته وكل ما يشده إلى الأرض التى نشأ فيها والتى انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه فى الجحيم! فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصآفات: ٩٩]. هذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - عن خليله إبراهيم فقد قال هذه الكلمة بعد ما بذل الجهد فى دعوة قومه إلى الله وأقام لهم الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة فلم يجد على نارهم هدى ولم يسمع لصوته صدى ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي

سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]. فهو الهادى إلى طريق الحق وسبيل الرشاد يسأله الولد الصالح ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصآفات: ١٠٠]. ليكون فى ذلك العوض عن قومه الذين قلبوا له ظهر المجن ولبسوا له جلد النمر. وناصبوه العداء، والولد إن لم يكن صالحًا فلا خير فيه، هذه الدعوة بعدما بلغ إبراهيم ستا وثمانين سنة كاملة بعد ما جف العود واشتعل الرأس شيبا ووهن العظم وبلغ من الكبر عتيا. فجاءت الإجابة ممن يقول للشئ كن فيكون ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصآفات: ١٠١] وإنما عطف بالفاء - التى تفيد الترتيب مع التعقيب - للدلالة على أن الإجابة جاءت فورية وعاجلة. لم يقل فبشرناه بولد أو طفل وإنما قال بغلام ليزيد إلى البشرى بشرى لأن فى هذه الآية دلالة على أن الوليد سيعيش حتى يراه غلامًا كبيراً، أضاف إلى بشرى الولادة بشرى الغلامية وأضاف إلى البشريين بشرى ثالثة أن الغلام المبشر به حليم، والحلم سيد الأخلاق قال الحبيب عليه الصلاة والسلام: «**كاد الحليم أن يكون نبيًا**» والحلم هو الصبر على جهالة الجاهلين، خلق كريم جاء الغلام - وهو إسماعيل عليه السلام - على حين فترة من العقم بعد ست وثمانين سنة، وإذا كان كذلك فإنه رأى فى القلب مكانًا خاليًا فتمكن فى القلب كل تمكن وتغلغل حبه فى قلب أبيه وجاء وقت الاختبار والاختبار مع الأنبياء شديد. قال ﷺ: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. الأنبياء أولاً، جاء وقت الاختبار وإذا بإبراهيم عليه السلام - يرى عجبًا يرى أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل الذى أصبح قادراً على أن يسعى معه على لقمة العيش، وأصبحت العين تنظر إليه على أنه القرة. «فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أَنى أذبحك فانظر ماذا ترى» أذبحك هل حدث فى التاريخ أن يذبح الوالد ولده لا سيما إذا كان الولد وحيداً وجاء على حين كبر، (أنى أذبحك) ولم يقل له يابنى إنى رأيت فى المنام أنى قد ذبحتك إنما عبر بصيغة المضارع ليستحضر الصورة أمامه كأن شريط المنام لا يزال يسبح أمامه وهو لايريد أن يؤخر أوامر الله. «فانظر ماذا ترى» ما الذى تراه أنت، انظر ماذا ترى؟ ما الذى تريد أن تريه لى يا اسماعيل؟ استشارة، مفاوضة، تفاهم فماذا قال الغلام بلسان اليقين؟ لم يقل له افعل أنت ماترى، ولم يقل له افعل أنت ما تأمر، إنما قال له «افعل ما تؤمر» لأن الأمر ليس أمرك أنت.

« قال يا أبت افعل ما تؤمر » بالبناء لصيغة ما لم يسم فاعله . لأن الآمر هو مالك الملك وملك الملوك « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . لم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجمًا ولا وزنًا . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه وأصبره على ما يراد به ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] . إنه الأدب مع الله، وإنها عظمة التسليم لأمر الله . ولو أن إسماعيل قال غير ذلك لما ظهر فضله فى هذا المقام الذى ترتعد فيه الأوصال وقد تزل فيه أقدام، لكنه علم أن قضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل .

لقد أخذ ابراهيم عليه السلام ابنه الوحيد إسماعيل لينفذ أمر الله وعرض له إبليس فى منطقة منى : إلى أين تذهب يا إبراهيم إن الرؤيا التى رأيتها ليست من الله إنما هى من الشيطان فلا تنفذها . لكن إبراهيم عليه السلام عرفه فرماه بسبع حصيات فى موقع الجمار التى نرميها عند أداء الحج .

لكن إبليس لم ييأس فذهب إلى هاجر أم إسماعيل رضى الله عنها وأخبرها بأن إبراهيم سيذبح ولدها الوحيد اعتماداً على رؤيا شيطانية رآها لكن هاجر رضى الله عنها قالت له : ياعدو الله إن كان هذا بأمر إبراهيم فإبراهيم أبوه ولست أرحم عليه من أبيه وإن كان هذا بأمر الله فأنا وابنى وإبراهيم فداء لأمر الله رب العالمين .

ولم يبق أمام إبليس إلا إسماعيل نفسه وهو الذى لم يكن يبلغ الحلم ولم يجر عليه القلم قال له اللعين : يا إسماعيل إن أباك سيذبحك !

فقال إسماعيل : إن كان هذا بأمر أبى فإنه أرحم على منك، وإن كان هذا بأمر الله فأنا وأبى فداء لأمر الله . قالها بلسان اليقين ومنطق الحق المبين فماذا حدث ؟

قال الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى : فلما تشهدا وذكرا الله تعالى – إبراهيم على الذبح، والولد شهادة الموت – وقيل أسلما : يعنى استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى – وإسماعيل طاعة الله ولأبيه، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم ومعنى « تله للجبين » أى صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون

عليه. قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد وسعيد وقتادة: «وتله للجبين» أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا شريح ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن أبى عاصم عن ابى الطفيل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فأسبقه، فسبقه إبراهيم - عليه السلام ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل - عليه السلام - قميص أبيض، فقال له: يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره فاخلعه حتى تكفنى فيه. فعالجه ليخلعه فنودى من خلفه: «أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا» فالتفت إبراهيم عليه السلام فإذا بكبش أبيض أقرن أعين[1]، قال ابن عباس: «لقد رأيتنا أن تتبع ذلك الضرب من الكباش»[2] وذكر هشام الحديث في المناسك بطوله. وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئًا ونودى إبراهيم عليه السلام عند ذلك «قد صدقت الرؤيا» وقوله تعالى «إنا كذلك نجزى المحسنين» أى هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار الواضح الجلى حيث أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده إسماعيل فسارع إلى ذلك مستسلمًا لأمر الله منقاداً لطاعته ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧].

يقول تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثورى عن على قال: بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة. قال أبو الطفيل وجدوه مربوطًا بسمرة فى ثبير.

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

«مرة أخرى يرتفع نبل الطاعة وعظمة الإيمان وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ إن الرجل يمضى فيكب ابنه

---

(١) أعين: واسع العينين.

(٢) انظر مسند الإمام احمد «وابن عباس رضى الله عنهما» ج ١ص٢٩٧.

على جبينه استعداداً. وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعًا وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانًا. لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام هذا هو الإسلام فى حقيقته ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ وكلاهما لا يجد فى نفسه إلا هذه المشاعر التى لايصنعها غير الإيمان العظيم إنها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد فى الميدان، يقتل ويقتل ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه لن يعود ولكن هذا كله شئ والذى يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شئ آخر ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع فى عجلة تخفى وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنما هو الاستسلام الواعى المتعقل القاصد المريد العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لابل هنا الرضى الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل! وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف ولم يكن باقيًا إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعنى شيئًا فى ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل فى هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما. كان الابتلاء قد تم والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت وغاياته قد تحققت ولم يعد إلا الألم البدنى، وإلا الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله سبحانه وتعالى – لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شئ. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف وقد جازوا الامتحان بنجاح.

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما. فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقًا: **﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾** [الصافات: ١٠٤-١٠٧]. قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً. فالله لا يريد إلا ا لإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ماتكنه عند الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هى النفس والحياة. وأنت يا إبراهيم قد فعلت،. جدت بكل شئ.. وبأعز شئ.. وجدت به فى رضى وفى هدوء وفى طمأنينة وفى يقين. فلم يبق إلا اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح – أى ذبح من دم ولحم! ويفدى الله هذه النفس التى أسلمت وأدت يفديها بذبح عظيم قيل إنه كبش وجده مهيأ بفعل ربه

ليذبحه بدلاً من إسماعيل!! وقيل له ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء نجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء. ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء! ومضت بذلك سُنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى هو منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذى تتبع ملته، والذى ترث نسبه وعقيدته، ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه. ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئًا، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم! ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء، ولا أن يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية. مستسلمةلا تقدم بين يديه، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء وقبل منها وفداها وأكرمها كما أكرم أباها» أ. هـ.

﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ أى وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه. عن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه رواه ابن أبى حاتم.

قال مجاهد: فذبحه بمنى، وقال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لى رسول الله **«إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت، فنسيت ان أمرك أن تخمرهما – أى تغطيهما – فخمرهما فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شئ يشغل المصلى»**.

وكذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقًا عند ميزاب الكعبة قد يبس.

يقول العلامة ابن كثير: «وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل – وليس إسحاق – لأن إسماعيل كان هو المقيم بمكة أما إسحاق فلا نعلم أنه قدمها فى حال صغره والله أعلم. وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظى على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٧١]. قال : فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون لأنه مناقض البشارة المتقدمة.، والله أعلم. وقال ابن جرير: حدثنى يونس: أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل. وقال ابن أبى حاتم سألت أبى عن الذبيح فقال: الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام.

وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم. قال ابن عبد العزيز: أى ابنى ابراهيم أمر بذبحه؟ فقال الرجل: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به. فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم». أ. هـ

البشرى بمولد إسحاق عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٦٩-٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥١ – ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٤ – ٣٠].

وقالى تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصآفات: ١١٢، ١١٣].

هؤلاء هم الضيف المكرمون وهؤلاء الرسل من الملائكة المكرمين جاءوا ليزفوا البشرى إلى إبراهيم بمولد غلام له هو إسحاق كما بشروه بأن إسحاق سيعيش حتى يولد له يعقوب، وقد جاءت هذه البشرى فى حال عجيبة فقد كانت سارة عاقراً وكان إبراهيم شيخًا كبيراً ولما جاءت الملائكة إبراهيم قالوا سلامًا فرد عليهم بالرفع (قال سلام) أى تحيتى سلام، وهى جملة اسمية تدل على الثبوت والاستقرار، كما يقول علماء البيان، وكان خليل الرحمن مضيافا كريمًا فما أبطأ فى تقديم القرى وإكرام الضيف، لقد جاءهم بعجل سمين قد شواه حتى يكون أطيب لحمًا، وأحب إلى النفس لكنه فوجئ بهم لا يمدون أيديهم إليه فأنكر حالهم، ولم يعرفهم وأحس منهم خيفة، ولم يكن ذلك امتناعًا منهم إنما تلك طبيعتهم التى جبلها الله عليهم فإن الملائكة المكرمين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون، بل يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون فالتسبيح عندهم كالتنفس عندنا لا يوصفون بذكورة أو أنوثة ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠]، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ

هَذه الْقَرْيَة إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالمينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

فما حدث بعد ذلك؟ قال تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ عجبًا لحال هؤلاء الذين يمتنعون عن تناول هذا اللحم الطيب.

وهنا جاءت البشرى من الملائكة ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب. فماذا قالت سارة؟ قالت: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾. وكلمة (ياويلتا) تقال للتعجب من أمر مفاجئ، فقد عجبت على أى حال ستلد وهى العجوز. وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التي يبست فيها العظام واشتعل الرأس شيبًا وأكدت هذا القول بقولها ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ لذا جاء الرد من الملائكة: ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، فزكريا عندما قال: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨]، جاء الجواب: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٩] ومريم عندما قالت ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]، كان الجواب ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠]. ثم قالت الملائكة: ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾.

ثم ماذا بعد البشرى؟ لقد ذهب عن إبراهيم الروع والخوف الذى اعتراه فإذا هو يجادل فى قوم لوط وقد جاءت صورة تلك المجادلة في سورة العنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] الآية وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ والحلم صفة من أجل الصفات، إذ هو الصبر عند الغضب، وإن شدة الجهالة لا تزيد الحليم إلا حلمًا. جاء فى الحديث الشريف «كاد الحليم أن يكون نبيًا». كما وصفه تعالى: بأنه «أواه» أى كثير التأوه والتوجع لما يثير ويؤلم، فهو صاحب القلب السليم والوجدان اليقظ، ذو قلب منيب، يرجع دائمًا إلى الله.

ثم يأتى القول الفصل فى شأن قوم لوط فيقول تعالى: ﴿ **يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** ﴾ أى عن الجدال فى قوم لوط ﴿ **إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ أى هكذا قضى الله فى شأنهم ولا راد لما قضى ولا معقب لما حكم وهو سريع الحساب، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود أى لا مرد له من الله ما لهم من الله من عاصم ﴿ **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ [الرعد: ١١].

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، علا فقهر، وملك فقدر، وبطن فخبر، الوجود ملكه، والقضاء حكمته، وكل الكائنات طوع إرادته، علم فحكم، وحكم فعدل، وأراد فنفذت إرادته، وقال فصدق وأمر فأرشد، ونهى فوجه، هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده، الظاهر فلا شيء فوقه، الباطن فلا شيء دونه، وهو بكل شيء عليم ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يقول العلامة ابن كثير: فقوله تعالى: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب. أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده. ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة. ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بمولده كما سرا بمولد أبيه من قبله. وقال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا** ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [مريم: ٤٩] وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه عن أبى ذر، قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**» قلت: ثم أى؟ قال: «**ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد**». وعند أهل الكتاب: أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله. فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام - وهو إسرائيل - بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء. وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود

إسحاق؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

بيت الله الحرام: بنايته ومكانته

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: ٢٦, ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو

عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩]، وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧].

يخبر الله تبارك وتعالى أن أول بيت وضع للناس أى لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده (للذى ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان عن شريك عن مجاهد عن الشعبى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال: كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله.

وحدثنا أبى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة قال: قام رجل إلى على رضى الله عنه فقال: ألا تحدثنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض؟ قال: لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا.

وبكة من أسماء مكة على المشهور قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها. وقيل لأن الناس يتباكون فيها أى يزدحمون . وقال قتادة: إن الله بَكّ به الناس جميعًا فيصلى النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها. وذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه قال: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء. وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم: بكة البيت والمسجد وكذا قال الزهرى، قال عكرمة فى رواية وميمون بن مهران: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة.

وقال أبو مالك وأبو صالح وإبراهيم النخعى وعطية العوفى ومقاتل بن حيان: بكة موضع البيت، وما سوى ذلك مكة. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة

وبكة. والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسة، والباسة، والحاطمة، والرأس، وكوثاء، والبلدة، والبنية، والكعبة وغير ذلك.

وإن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى، **الأول مكة**: مأخوذ من تمككتْ العظم أى اجتذبت ما فيه من المخ، وتمكك الفصيل ما فى ضرع الناقة. فكأنها تجتذب إلى نفسها ما فى البلاد والأقوات التى تأتيها فى الموسم. وقيل إنها تمك الذنوب أى تذهبها. وقيل لقلة مائها، وقيل: لما كانت فى بطن وادٍ فهى تمكك الماء من جبالها عند نزول المطر وتنحدر إليها السيول.

الثانى بكة: بالباء لأنها تبك أعناق الجبابرة، أى تكسرهم فَيُذَلُّون بها ويخضعون. والبك الدق، وقيل: من التباك وهو الازدحام فى الطواف وقيل: مكة وبكة بمعنى واحد، ورجحه ابن قتيبة وغيره لأن الباء تبدل من الميم وقيل: بل مختلفان، فمكة بالميم الحرم كله، وبالباء المسجد خاصة، وقيل: بالميم اسم البلد، وبالباء البيت وموضع الطواف، وقيل: البيت خاصة وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى بطحا - والفج هو فج الروحاء وهو موضع بين مكة والمدينة. والفج الطريق الواسع بين جبلين. والتنعيم موضع بينه وبين مكة فرسخان.

الثالث: البلد الأمين، لتحريم القتال فيها. قال تعالى ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ [التين:٣].

الرابع: البيت العتيق لأنه قديم البناء إذ كانت الملائكة تطوف به قبل خلق آدم. وقيل لأنه أعتق يوم الغرق، وقيل لأنه لم يظهر عليه جبار قط قال مجاهد: عتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وروى الترمذى من حديث الزهرى عن محمد بن عمرو عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار، وقال: حسن غريب. ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى مرسلاً.

الخامس: البيت الحرام، لتحريم القتال فيه.

السادس: المأمون كذلك.

السابع: أم القرى، لأن الأرض كلها دحيت من تحتها. وقيل: لأن أهل القرى يرجعون إليها في الدين والدنيا حجًا واعتمارًا وجوارًا. وقيل: لأنه لايصح نسك أهل البلد إلا بقصدها، ومنه قوله تعالى: ﴿ **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ** ﴾ [المائدة: ٩٧]. أى قوامًا لدينهم وصلاحًا لدنياهم وفى ذلك عمارة بلادهم، وحكى الرشاطى فى الأنساب عن بعضهم فى نسبته ﷺ الأمى، إنه منسوب إلى أم القرى مكة، والمشهور إنه نسبة إلى أمة العرب الذين لا يكتبون.

الثامن: الناسة بالنون فى أوله والسين المهملة فى آخره المشددة من نسى الشيء إذا يبس من العطش قال فى الصحاح: ويقال لمكة: الناسة لقلة مائها من النس وهو اليبس.

التاسع: الباسة بالباء الموحدة، حكاه الخطابى فى غريبه عن مجاهد لأنها تبس من ألحد فيها أى تحطمه وتهلكه، والبس: الحطم قال تعالى: ﴿ **وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا** ﴾ [الواقعة: ٥].

العاشر: صلاح بفتح الصاد وكسر الحاء على وزن قطام معدولة عن صالحة لا ينصرف، لأن فيها صلاح الخلق أو لأنها تعمل فيها الأعمال الصالحة. ذكره المبرد.

الحادى عشر: أم رُحم، بضم الراء لأن الناس يتراحمون ويتواصلون فيها قال ابن السيد فى المثلث: والرحم بضم الراء وتسكين الحاء، الرحمة ومكة أم رحم، وذكرها ابن عديس فى السين من المثلث أم الرحم بالتعريف أى أصل الرحمة.

الثانى عشر: أم زحم بالزاى من ازدحام الناس فيها. ذكره الرشاطى فى الأنساب.

الثالث عشر: كوثى، بضم الكاف وفتح الثاء المثلثة باسم موضع منها يقال له: محلة بنى عبد الدار. قاله الخطيب فى تاريخه. وقال المبرد فى قول على بن أبى طالب: إن تسألوا عنا فإنا قوم من أهل كوثى: إنما يعنى مكة. وكانت تسمى: كُوثى.

الرابع عشر: الحاطمة بالحاء المهملة لحطمها الملحد.

الخامس عشر: العرش بفتح العين المهملة وإسكان الراء على وزن بدر كذا ضبطه كراع في المنخل – وهو على بن الحسن المعروف بكراع النمل – والعُرُش بضم العين والراء كما ضبطه البكرى في معجمه والعريش كما ذكره ابن سيده. وممن ذكر هذا الاسم صاعد في كتاب الفصوص عن ثعلب عن ابن الأعرابى ووقع في حديث المتعة إطلاق العُرش على بيوت مكة. قال النووى: هو بضم العين والراء. قال أبو عبيد: سميت بيوتها بذلك لأنها عيدان تنصب وتظلل.

السادس عشر: القادس من التقديس وهو التطهير لأنها تطهر الذنوب.

السابع عشر: المقدسة والقادسة.

الثامن عشر: البلد. قال تعالى: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾ [التين: ٣].

التاسع عشر: البلدة. قال تعالى ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا**﴾ [النمل: ٩١].

العشرون: القرية. قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً**﴾ [النحل: ١١٢]. يريد بذلك مكة.

الحادى والعشرون: البنية.

الثاني والعشرون: طيِّبة: ذكره الوزير في أدب الخواص.

الثالث والعشرون: الحرم.

الرابع والعشرون: المسجد الحرام.

الخامس والعشرون: المعطشة.

السادس والعشرون: برَّة. ذكره ابن خليل.

السابع والعشرون: الرتاج ذكره الطبرى في شرح التنبيه والمعروف أن الرتاج أم الباب. قال الخليل. وربما أريد به الكعبة. وفى الحديث من جعل ماله فى

رتاج الكعبة، فإن المراد به أن يجعل ماله هديًا للكعبة، وأطلق عليها لأنها يغلق بابها.

الثامن والعشرون: الكعبة.

التاسع والعشرون: الرأس، لأنها أشرف الأرض كرأس الإنسان. قال أبو السعادات الجزرى: وتهامة اسم لمكة وما حولها من الأغوار من قولهم: تهم الحر إذا اشتد مع ركود الريح. وقال الحافظ صدر الدين أبو على الحسن بن محمد البكرى فى الأربعين البلدانية: ويقال له: قبلة أهل الإسلام، والبيت العتيق، ومَعادُ، وصاحب المشاعر العظام، وزمزم، والمقام، والمسجد الحرام. وهى مهبط الوحى، وملاذ الرسل، ومعاذ الصالحين من سائر الأمم، وَمَعَادُ – ذكر الفاسى فى شفاء الغرام أنه من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ كما نقل عن ابن عباس أن المراد به مكة.

﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ أى دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم عليه السلام وقد عظمه الله وشرفه ثم قال سبحانه ﴿**مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ يعنى الذى لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ أى فمنهن مقام إبراهيم والمشاعر، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودى قالا: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ**﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم. (ومن دخله كان آمنًا) يعنى إذا دخل الخائف حرم مكة يأمن من كل سوء. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى التميمى عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاذه البيت؛ ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه. قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ**

هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ومن جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها.

ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**» وقال يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها**» فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: «**إلا الإذخر**» ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ولهما واللفظ لمسلم أيضًا عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قال به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إنَّ مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب**» فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًا بدم ولا فارًا بخربة وعن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة**» رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول: «**والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**» رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه وروى أحمد عن أبي هريرة نحوه وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا بشر بن آدم

ابن بنت أزهر السمان حدثنا بشر بن عاصم عن زريق بن مسلم الأعمى مولى بنى مخزوم حدثنى زياد بن أبى عياش عن يحيى بن جعدة بن هبيرة فى قوله تعالى: ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ قال: آمنًا من النار، وفى معنى هذا القول الحديث الذى رواه البيهقى.

وقوله سبحانه ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا وإنما يجب على المكلف فى العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرازق أنبأنا الثورى عن إسماعيل وهو أبو إسرائيل الملائى عن فضيل يعنى ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعجلوا إلى الحج - يعنى الفريضة - فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له**». وقال أحمد أيضًا: حدثنا أبو معاوية حدثنا الحسن بن عمرو عن مهران بن أبى صفوان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «**من أراد الحج فليتعجل**» ورواه أبو داود عن مسدد عن أبى معاوية. وروى وكيع بن الجراح عن أبى جناب يعنى الكلبى عن الضحاك ابن مزاحم عن ابن عباس قال: «من استطاع إليه سبيلا» قال: قال الزاد والبعير. وقوله (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه[1].

إن البيت الحرام فيه هدى للعالمين وقد جمع الله لهذا البيت وهذا البلد الأمن والطمأنينة وتجبى إليه الثمرات، ثمرات كل شيء، اجتمعت النعمتان العظيمتان الأمن والثمرات، ومن أتى البيت وطاف به شرح الله صدره وهدى قلبه، إن الله ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة، ستين للطائفين وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين وفى هذا البيت آيات بينات، ودلائل قاطعات على مكانة إبراهيم عليه السلام ففيه المقام، أى المكان الذى كان يقوم فيه يعبد الله تعالى، ونزل الحكم

---

(١) راجع تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير المجلد الأول ط المكتبة القيمة، ص٣٦١ - ٢٦٤.

في القرآن العظيم باتخاذ هذا المقام مصلى. قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**».

وروى ابن جريج بإسناد حسن - عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونًا على الله إن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده، رده بأجر وغنيمة**».

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**جهاد الكبير والضعيف والمرأة: الحج**» رواه النسائي بإسناد حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور» رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم» رواه النسائي وابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ولفظهما «وفد الله ثلاثة: الحاج والمعتمر والغازي».

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ أي هيأنا له هذا المكان وأرشدناه إليه ومعنى (لا تشرك بي شيئًا) أي ابن هذا البيت لرفع راية التوحيد (وطهر بيتي للطائفين) قال قتادة: أي من الشرك.

أي اجعله خالصًا للطائفين والقائمين والركع السجود لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له فاللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وزد من حجه أو اعتمره تشريفًا وتعظيمًا ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ** ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل

على الحجر. وقيل على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك.

هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف. والله أعلم. (يأتوك رجالاً): أي مشاة (وعلى كل ضامر) أي راكبين.

وقد حج رسول الله ﷺ راكبًا مع قدرته على المشي مما يدل على أن الركوب أفضل، فالله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر **﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾** [البقرة: ١٧٨] قال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾** [إبراهيم: ٣٧] والفج والفجاج هي الطريق والفج العميق هو البعيد. فتأمل معي حين قال الله لإبراهيم عليه السلام أذن في الناس بالحج، قال إبراهيم وما يبلغ صوتي يارب العزة؟ قال له: يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا الإبلاغ فصعد إبراهيم جبل أبي قبيس، ونادى: أيها الناس إن ربكم بنى بيتًا فحجوه، فلبت الأرواح: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

فليس لأحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

وقال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** [البقرة: ١٢٥] يقول لا تقضون منه وطرًا يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه: وقال علي بن أبي طلحة عن

ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون، رواهما ابن جرير: وقال ابن أبى حاتم أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس** ﴾ قال يثوبون إليه ثم يرجعون وقال سعيد بن جبير: وعكرمة وقتادة وعطاء الخراسانى ﴿ **مثابة للناس** ﴾ أى مجمعا ﴿ **وأمنا** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أى أمنا للناس وروى عن مجاهد وعطاء والسدى وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمنا، ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفا به شرعًا وقدرا من كونه مثابة للناس أى جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضى منه وطرا ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام فى قوله ﴿ **فاجعل افئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ إلى أن قال ﴿ **ربنا وتقبل دعائى** ﴾ ويصفه تعالى بأنه جعله آمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يعرض له كما وصف فى سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس** ﴾ أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض وما هذا الشرف إلا شرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا** ﴾ وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عمرو بن شبة النميرى حدثنا أبو خلف يعنى عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبى هند عن مجاهد عن ابن عباس قال مقام إبراهيم الحرم كله.

وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وقال أيضا أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال: سألت عطاء عن ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ فقال سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذى ذكر هنا

فمقام إبراهيم هذا الذى فى المسجد ثم قال: ومقام إبراهيم يعدّ كثير مقام إبراهيم الحج كله. ثم فسره لى عطاء فقال: التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمى الجمار والطواف بين الصفا والمروة، فقلت أفسره ابن عباس؟ قال لا. ولكن قال: مقام إبراهيم الحج كله. قلت أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال نعم سمعته منه.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا عبدالوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبى ﷺ قال: لما طاف النبى ﷺ قال له عمر هذا مقام أبينا؟ قال: «نعم» قال أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾.

وروى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار: قال سمعت عمر يقول قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين، فهذا مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروف تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية:

وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة　　　على قدميه حافيا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبدالله بن وهب أخبرنى يونس بن زيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم، قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه وقد تكلفت هذه الأمة شيئا ما تكلفته الأمم قبلها ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فمازالت هذه الأمة يمسحونه حتى أخلولق وانمحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر

يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر» وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن الحسين البيهقى أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد ابن إسماعيل السلمى حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم(١).

قوله تعالى ﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود** ﴾ والعهد هنا معناه الأمر أو الوحى أى وأمرناهما أو أوحينا إليهما أن يبنيا هذا البيت بنية طاهرة خالصة لله وأن يقوما بتطهيره من كل أذى ورجس ونجس، ومن كل ما يعبد من دون الله لأنه أشرف بيت. طهراه للطائفين به والعاكفين، أى المقيمين عنده والمصلين من الراكعين الساجدين وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلما فإنه ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة: ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين. ومن فضله تعالى أن أبواب السماء تفتح عند النظر إلى بيت الله الحرام، وعند إقامة الصلاة، وعند نزول الغيث وعند الالتحام فى القتال؛ وما أدراك إذا ما فتحت أبواب السماء: تنزل الرحمات وتستجاب الدعوات وهناك يكون القبول كله.

وقوله تعالى ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا أمنا** ﴾ جاء فى صحيح مسلم

(١) راجع تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير المجلد الأول ط المكتبة القيمة ص١٦٠ - ١٦٣.

عن رسول الله ﷺ: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**»[1] وروى النسائي عن رسول الله ﷺ «**إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها**»[2].

وقول تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿ **وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾ من حب إبراهيم للمؤمنين وحرصه عليهم أنه سأل الله أن يجعل رزقه مقصورا على المؤمنين فحسب، ولكن رب العزة قال له: ومن كفر، فليس الرزق في الدنيا مقصورا على المؤمنين، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن يحب وفي الصحيحين ﴿ **ولا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم** ﴾[3].

قوله تعالى ﴿ **ثم أضطره إلى عذاب النار** ﴾، الاضطرار هو الإلجاء إلى الشيء وهو من باب قوله تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [الحج: ٤٨] وليس هذا إلا لما اقترفوه من الذنوب ﴿ **وبئس المصير** ﴾ أي بئس المثوى جهنم وبئس ما يصيرون إليه جهنم.

وقوله تعالى ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾.

قال ابن كثير: لما قرأ وهيب بن الورد هذه الآيات أخذ يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك؟ وهذا كما حكي الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله سبحانه ﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥٨-٦١] أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة، أي خائفة، أن لا تقبل منهم.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ٣ ص ٥٠٧ ط الشعب.

(٢) العضاه: الشجر الضخم له شوك.

(٣) الجامع الصغير للسيوطي جـ١ ص ٣٣٠ ط دار الفكر.

(٤) تفسير ابن كثير جـ٨ ص ٥٤٨ ط الشعب.

ويستحب لكل من عمل عملا صالحًا أن يختمه بهذا الدعاء (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ثم دعا إبراهيم ربه قائلا ومعه إسماعيل يدعو (ربنا واجعلنا مسلمين لك) ويقصد بالإسلام هنا أدق معانيه وهو الإخلاص. فالإخلاص سنام الأمر وذروته وهل الإسلام إلا أن يسلم لله وجهه؟ والإخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عباده والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

ولما كان الأنبياء قوما أصفياء القلوب أنقياء السريرة أتقياء الأفئدة فإن الدعوة الإبراهيمية الإسماعيلية امتد أثرها في بطون الزمان حيث جاءت ﴿ **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ وقد استجاب الله.

ثم قالا: ﴿ **وأرنا مناسكنا** ﴾ أى عرفنا مواضع النسك من الإحرام والطواف والسعى وعرفات ومنى فإن المناسك هى مواضع العبادات وغلب إطلاقها على أفعال الحج. ثم قالا: ﴿ **وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم** ﴾ أى وفقنا للتوبة حتى نتوب فترضى عنا فليس لأحد سواك يا الله - هذه الصفة فأنت الرحيم بعبادك غافر الذنب وقابل التوب ثم دعوا الله تعالى دعوة نفع الله بها البلاد والعباد ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ﴿ **فيهم** ﴾ أى فى هذه الأمة. ﴿ **منهم** ﴾ أى عربيا فكانت هذه الدعوة خير خلق الله، مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية الذى أرسله الله رحمة للعالمين، فهو الأمى الذى علم المتعلمين، وتلا عليهم كتاب رب العالمين، ودرس لهم الحكمة الصافية وهى سنة سيد المرسلين، وزكى نفوسهم وطهرها من الغيظ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء والظلمات والشرك والظلم والفساد فكان خير المفلحين وسيد الموحدين وإمام المتقين فهو النبى الخاتم الذى قال متحدثا بنعمة الله عليه: «أنا دعوة أبى إبراهيم، وكان آخر ما بشر بى عيسى بن مريم»(١) لقد وقف عيسى خطيبا فى بنى إسرائيل وقال يا بنى إسرائيل ﴿ **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف: ٦] فكان ذلك هو النبى الأمى الفقير الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطىء الله رب العالمين، ويختتم

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص٤١٤ ط دار الفكر.

الخليل وابنه هذه الدعوات بالثناء على الله بما هو أهله فيقول ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ﴿ **العزيز** ﴾ الذى لا يغلب فهو القاهر فوق عباده، ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى لا يعبث إذ هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق.

الثناء على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام من القرآن الكريم والسنة المطهرة

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ١٢٤].

هذه صورة قرآنية معبرة أتم التعبير عن موقع هذا النبى ومكانته فهو إمام الموحدين الذى رفع راية التوحيد خفاقة عالية تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء على ربوع قلعة الأصنام وعاصمة الشرك. ومعنى الابتلاء: الاختبار ليعلم الناس مكانة هذا المبتلى بتلك الأحكام وكيف قام بها خير قيام وأداها على أتم وجه وأحسن صورة.

وكلمات الله قد يراد بها الكلمات القدرية كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾ [التحريم: ١٢].

وقد يراد بالكلمات الكلمات التشريعية من الأوامر والنواهي: كما فى قوله جل شأنه ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والكلمات التى بين أيدينا فى آية الابتلاء كلمات تشريعية، اختبر الله بها خليله فأداها على خير وجه وأكمله، قال ابن عباس: المقصود بهذه الكلمات المناسك، والطهارة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد، فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواك، وفرق الرأس؛ وفى الجسد: تقليم الأظافر وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، والاستنجاء وقال ابن عباس: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم: قال الله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ قلت: وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهما، منها عشر فى سورة براءة: ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ**

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢] وعشر في أول سورة قد أفلح المؤمنون قال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وعشرة في سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]..

وقال الحسن: إن الابتلاء كان في الكوكب والقمر والشمس والقذف في نار الدنيا وذبح ولده والهجرة من وطنه فوفى بكل هذا فاستحق ثناء الله عليه في قوله: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٧].

وقال آخرون إن الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم جاءت في هذه الآيات ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله التي سبق بيانها وأداهن كما أمره الله سأل ربه بعدما قال الله له ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ أي رسولا يبلغ شرع الله، أمينا على وحي الله، يخرج الناس من الظلمات إلى النور وفيا لدين الله أسوة حسنة للناس وقدوة طيبة لعباد الله، سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته أئمة، قال له الله تعالى ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ أي سأجعل الصالحين من ذريتك أئمة، أما الظالمون فإن عهدي لا ينالهم، وقد أفاض السلف في تفسير هذا النص الكريم: فمن قائل إن المقصود بالظلم هنا هو الشرك، والمشرك لا ينال عهد الله، لأنه ليس له عند الله عهد

ولا ذمة؛ فقد برئت منه ذمة الله. ومن قائل إن المراد بالعهد طاعة الله، وطاعة الله لا تنال الظالم، فليس للظالم طاعة. ومن هنا فقد قالوا: إن الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهداً ولا راويا. وقد أخبر الله عن ذرية إبراهيم وإسحاق فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، فالمحسن يناله عهد الله سواء كان ذلك العهد نبوة أو طاعة أو خلافة فى الأرض، أما الظالم لنفسه فلا مجال له فى تلك المسئوليات.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل، فمن ذريته وشيعته، وإن الله تعالى يخبر أنه منذ بعث نوحا -عليه السلام- لم يرسل بعده رسولا ولا نبيا إلا من ذريته وكذلك إبراهيم -عليه السلام- خليل الرحمن «وهذه خلعة سنية لا تضاهى، ومرتبة علية لا تباهى وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة وولد له يعقوب - وهو إسرائيل- الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا بحيث لا يعلم عددهم إلا الله واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى بن مريم من بنى إسرائيل. وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة محمد رسول الله ﷺ. فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى الدرة الزاهرة والجوهرة الفاخرة وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة وقد ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال: «سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم» فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة فى هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق فى هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق»(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط دار الكتب الإسلامية ص٢٤٩.

لم يكن سؤال إبراهيم شكا ومعاذ الله أن يكون كذلك فإبراهيم هو الذى قال الله فى شأنه: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]. روى الإمام البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى**» يريد الرسول ﷺ أن يقول ما شك إبراهيم عندما سأل الله هذا السؤال لأننا أحق بالشك منه فقد أمرنا باتباعه وحيث انتفى الشك عن التابع فإنه بالأولى ينتفى عن المتبوع قال شراح الحديث: لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ما سألا. وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما، يقول إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع. وسؤال إبراهيم لا يفيد شكا ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان. فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال، والحاصل أن الله عز وجل أجاب إبراهيم عليه السلام إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطير فيمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه فى بعض ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزءا ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتى إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدرة الله فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا ويقال أنه أمر أن يأخذ رؤوسهن فى يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان. فلا إله إلا الله.

«وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فهو قد سأل عن الكيفية لا عن أصل القضية فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله»(١).

وقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ**

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط دار الكتب الإسلامية ص٢٥١.

إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨].

أخرج ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ**﴾ أى لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ويدعى كل منكم أنه على دينه؟ وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق. وقد ألقى القرآن باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية وإلى التوارة أو الإنجيل، مع أن العقل يقضى بأن المتقدم فى الزمان كيف يكون تابعا لما سيأتى بعده وقد كان إبراهيم قبل أن تنزل التوارة والإنجيل فكيف يكون متقدما وتابعا لما بعده؟! إن هذا دليل على الحمق والسفه، ولذلك قال الله فى ختام الآية ﴿**أفلا تعقلون**﴾. الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره: أجننتم فلا تعقلون.

وقوله تعالى ﴿**حاججتم فيما لكم به علم**﴾ أى من أمر عيسى عليه السلام وقد قامت عليكم الحجة وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ومنكم من فرط وقال إنه دعى كذاب ولم يكن علمكم بمانع من الخطأ ﴿ **فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم**﴾ أى فى شأن الخليل إبراهيم عليه السلام فقد وقعتم فى جهل مطبق لأحداث التاريخ وقواعد العقائد وهذا الجهل أدى بكم إلى الجدل العقيم الذى سلككم فى سلك الجاهلية جهلا مركبا فليتكم تستمعون إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ ثم بين تعالى حقيقة **شأن إبراهيم فقال** ﴿**ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا**﴾ أى مائلا عن العقائد الفاسدة ﴿**مسلما**﴾ لله ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**﴾ [البقرة: ١٣١] قال سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبى**

ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل» ثم قرأ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ وهذه الآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى الذين زعموا كذبا وبهتانا أن إبراهيم ينتمي في العقيدة إلى دين كل منهم فقال الله تعالى: لستم أولى الناس بإبراهيم لأنكم انحرفتم عن الجادة وكفرتم بالله ورسوله بل إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه ونصروه، وعبدوا الله وحده، وهذا النبي محمد ﷺ ومن معه من الأنصار والمهاجرين هم أولى الناس بإبراهيم. والله سبحانه هو الذي يتولى الصالحين بالرعاية والنصر المبين ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، كما قال تعالى ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين وقد اصطفاه الله في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] أي لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصا لله وحده فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء ولا يجعل بينه وبين ربه حجابا من الوسطاء والشفعاء ولا يرى في الوجود إلا هو ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات؛ فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها. وهي السنن والأسباب التي سنها في الخليقة وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحل بأحسن الأخلاق والفضائل واتبع إبراهيم عليه السلام في حنيفيته التي كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وقد اصطفى الله تبارك وتعالى إبراهيم الخليل لإقامة دينه في بلاد غلبت فيها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صحَّ به أن يسمى خليلا والخلة هي غاية المحبة. لقد من الله عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح. وكمال المعرفة وفنائه في التوحيد.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد السلمي، حدثنا الوليد

عن اسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بُعد كما كان يسمع خفقان الطير فى الهواء.

يقول العلامة ابن كثير: وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيرا فى غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل: إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعا، منها خمسة عشرة فى البقرة وحدها وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء فى آيتى الأحزاب والشورى.. ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ﷺ.. وقال الله تعالى: ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾ قالوا: وَفّى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطى ومحمد بن موسى القطان قال: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن فى الجنة قصرا -أحسبه قال من لؤلؤ- ليس فيه فصم ولا وهى[1] أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا»**

وأما عن صفته عليه السلام: قال أحمد حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن عثمان -يعنى ابن المغيرة- عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم»**. قالوا له: فإبراهيم؟ قال: **«انظروا إلى صاحبكم»** يعنى نفسه.

وأما عن أولاده عليه السلام: فأول من ولد له: إسماعيل من هاجر القبطية المصرية، ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل. ثم تزوج بعدها «قنطورا» بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة: مدين، وزمران، وسرج، ويقشان، ونشق، ولم يسم السادس. ثم تزوج بعدها «حجون» بنت أمين فولدت له خمسة: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس. هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه «التعريف والإعلام».

---

(١) فصم: كسر/ ووهى: ضعف.

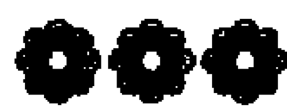
وأما عن وفاة الخليل عليه السلام وما قيل في عمره: فقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان وهو -فيما قيل- الضحاك الملك المشهور، الذى يقال إنه ملك ألف سنة وكان فى غاية الغشم والظم.. وكان مولده بالسوس، وقيل ببابل وقيل بالسواد من ناحية كوثى، وقد ورد عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق. فلما أهلك الله النمرود على يديه هاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد إيليا وولد له إسماعيل وإسحاق. وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب.

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها. وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان.

قال محمد بن إسماعيل الحسانى الواسطى حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: كان إبراهيم أول من تسرول وأول من فرق، وأول من استحد، وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قرى الضيف وأول من شاب.

وروى ابن حبان عن عبد الرازق أنه قال: القدوم اسم القرية وأما عن قبره: فقبره وقبر ولده اسحاق وقبر ولد ولده يعقوب فى المربعة التى بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد «حبرون» وهو البلد المعروف بالخليل اليوم. وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا:

أن قبره بالمربعة تحقيقا. فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم. فينبغى أن تراعى تلك المحلة، وان تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.



لوط عليه السلام

هو لوط بن حاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام ولد في أورالكلدانيين في الطرف الشرقي من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا، وهناك كانت مملكة آشور، ثم أسكنه إبراهيم شرقي الأردن لجودة مراعيها، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط، قرى خمس، سكن لوط في إحداها المسماه بسدوم، وكانت تعمل الخبائث.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤]. يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل لوطا إلى قومه فقال لهم ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم بين نوع تلك الفاحشة فقال ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ وفي سورة النمل يقول سبحانه ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فوصفهم هنا بالجهل وهنا بالإسراف لأن الإسراف والجهل متلازمان فكل مسرف جاهل وكل جاهل مسرف وفي سورة العنكبوت يعدِّد جرائمهم المنكرة وفعالهم الشنيعة فيقول سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ فهذه فعال وخصال بلغت من القبح مدى بعيدا، ويكفي أنهم أتوا عملا لم يسبقهم به أحد من العالمين، وهو قلب الفطرة السليمة عن وجهها الصحيح، بتصريف الشهوة في غير ما وضعت له، فقد خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى وشرع ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوى وغيرت المنهج الرباني، كان ما كان من العقاب السماوي.

فبماذا أجاب القوم؟ لقد كان الجواب يدعو إلى الأسى وما كان ينبغي منهم أن يقابلوا النصيحة بالإعراض والدعوة إلى النجاة بالفظاظة والغلظة. إنه الباطل إذا أفلس يختلق، ويدعي، ويعربد، ولا أساس له من الحق ولا نصيب له من الصدق. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ فاعجب معى هل التطهير صار تهمة؟ هل النقاء أضحى جريمة؟ هل العفة أصبحت جناية؟ إنهم يختلقون ويهرفون بما لا يعرفون. سبحانك ربى هل أصبح النقاء والسمو الخلقى والتحلى بالفضيلة تهما يلام عليها صاحبها؟ إذن لا بد من كلمة فصل تحكم هذا الصراع بين الحق والباطل، بين السمو إلى علياء الطهر والارتكاس فى حمأة الرذيلة، وهل يملك كلمة الفصل إلا رافع السماء بلا عمد. إن الباطل سيظل يعربد فى عرصات الدنيا ولن يعربد إلا فى غفلة أهل الحق وسيظل كذلك حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق، يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وجاءت كلمة الفصل قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى من الباقين فى العذاب فقد خانت الله ورسوله، لذلك استحقت هذا الجزاء. لقد رجموا بالحجارة التى أشبهت المطر الغزير المدرار، حتى جاء التعبير القرآنى غاية فى البلاغة عندما شبه الحجارة وكثرتها بالمطر الغزير قال تعالى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء:١٧٣].

ولهؤلاء القوم قصة فصلها العلى الحكيم فى سورة هود، فبعد أن نزلت الملائكة بالبشرى على إبراهيم توجهوا بعد ذلك إلى نبى الله لوط لينزلوا العذاب بالقوم، فالملائكة رحمة بالصالحين كما أنهم ينزلون بالنقمة على أعداء الله الفاسقين يقول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي

إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٤– ٨٣].

وعلى جناح السرعة انتقلت الملائكة الكرام من بيت إبراهيم الخليل إلى بيت ابن أخيه لوط وكان قد ابتلى بقوم وصفهم الله تعالى بقوله: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾** [العنكبوت:٢٨، ٢٩].

إن الملائكة لما نزلت على لوط سيء بهم، أى استاء لمجيئهم، فقد نزلوا بين قوم ضاعت بينهم القيم، واهتزت المعايير، واختلت موازين المثل، فأصبح المعروف بينهم منكرا، والمنكر معروفا، كما صار الذئب عندهم راعيا، وأضحى الخصم العنيد بينهم قاضيا. من أجل هذا خشى لوط عليهم من هؤلاء القوم الغلاظ الأكباد، والجفاة الطباع، القساة القلوب، وضاق بهم ذرعا وطاقة، فإنهم ضيف وللضيف واجب عند الكرام، فكيف يؤدى واجب الضيافة بين هؤلاء الأوغاد الأنذال، لقد وصف يوم مجيئهم لديه بأنه يوم عصيب وشديد وما أن استقر الضيف المكرمون عنده حتى جاءه قومه يسرعون يراودونه عن ضيفه، ومن قبل مجيئهم كانوا يعملون السيئات، ويأتون المنكرات، وهنا بلغ السيل الزبى ولم يبق فى قوس الصبر منزع، قال لوط **﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** يقصد بنات قومه، فكل نبى فى قومه كالوالد الرحيم، فاتقوا الله واحذروا عقوبته ولا تخزون ولا تفضحون فى ضيفى أليس منكم رجل ذو رشد وعقل ينهاكم عما تفعلون. وبكل صفاقة وخلاعة قالوا له: **﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾** أى أنهم لا يأتون النساء إنما يأتون الذكران من العالمين وإنك يا لوط تعلم ما نريد قال لهم نبى الله لوط **﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾** أى ليتنى أملك من القوة ما أستطيع أن أدفعكم بها، أو آوى إلى ركن شديد، أو قوم ذى عصبية، أستطيع بهم أن أكف بأسكم وأدفع شركم وإذا بالملائكة الكرام تقول له: **﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ**

بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٣، ٣٤].

ولقد نفذ لوط تعليمات ربه فأسرى بأهله ليلا وما أن جاء الصبح حتى قامت الملائكة بشن الغارة التى دمرتهم وقال الله تعالى فيها: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] وقال فيها ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣- ١٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧- ٣٩].

وقال سبحانه فى سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ذلك لأنهم غيروا فطرة الله التى فطر الناس عليها، فأتوا الذكران من العالمين، وتركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أى على تلك القرية ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، وهو الطين المتحجر الذى تتابع حتى قضى عليهم جميعا قضاء مبرما. هذه الحجارة كانت ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ -أى معلمة-، ما أخطأت واحدة منها صاحبها الذى سيموت بها، وليس هذا الانتقام مقصورا على قوم لوط، إنما هو ممتد حتى يصل إلى كل ظالم وطاغية، قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرءوا إن

شئتم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وهكذا أرخى الستار على تلك المأساة البشرية التى انحرفت عن طريق الجادة، فصاروا عن الصراط ناكبين ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ولقد ذكر الله قصة لوط وقومه في غير ما موضع فى القرآن العظيم في سورة الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل والعنكبوت والصآفات والذاريات والنجم والقمر.

يقول العلامة ابن كثير: والمقصود إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم وذلك أن لوطا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا. بل استمروا على حالهم، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم واستضعفوه وسخروا منه وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم -إذا كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦] فجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج. فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم فى محلتهم خالدين، لكن بعدما صيرها على القوم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى، التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلا فيها، ويأتون فى ناديهم -وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم- المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه.. ولا يستحون فى مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا.. فأخذهم الله أخذاً وبيلا وقالوا للوط عليه السلام فيما قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[العنكبوت: ٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وآله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين. فغار الله لغيرته وغضب لغضبه واستجاب لدعوته وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١ – ٣٤]... قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم –وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل– أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، فى صور شبان حسان، اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم. فتضيفوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرا من الناس و﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم فى غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى ما لا يمكن المحيد عنه.. وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا سدوم لقوا ابنة لوط تسقى من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى «ريثا» والصغرى «زغرتا». فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟ فقالت لهم: نعم مكانكم لا تدخلوا حتى أتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا: خل عنا فلنضف الرجال فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها؛ فقالت: إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم

بطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦ - ٣٨].

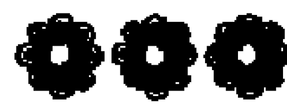
ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾. قالت الملائكة ﴿**يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ**﴾ [هود: ٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل أنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط، عليه السلام، آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ﴿**وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ**﴾ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه. وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم. وقوله ﴿**إِلَّا امْرَأَتَكَ**﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ**﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسرى بها، ويحتمل أن يكون من قوله ﴿**وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ**﴾ أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول أظهر فى المعنى. والله أعلم.

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائب مريب ﴿**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾ فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه لم يتبعه منهم رجل واحد، فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد. قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].. وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لاينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها فصارت

عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨ – ٩].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٥ –٣٧].

أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط. ومن تشبه بقوم فهو منهم... فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه يتمثل ما أمر الله به عز وجل ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال وإياه أن يتتبع كل شيطان مريد فيحق عليه الوعيد(١) ويدخل فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].



(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط ص٢٧٣ – ٢٨٥.

إسماعيل عليه السلام

هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هي مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل في هذه الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ۝٥٤ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٥].

لقد كان عليه السلام ﴿ **صَادِقَ الْوَعْدِ** ﴾ فما وعد عدة إلا وفى بها، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ فصدق في ذلك ووفى بما قال وامتثل حتى جاءه الفداء وصدق الوعد صفة كل نبي وكل صالح وهي صفة بارزة في إسماعيل عليه السلام بدرجة تستدعي إبرازها والتنويه بها بشكل خاص، وهي من الصفات التي حث عليها الدين وشدد فيها أيما تشديد فقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢]. وقال رسول الله ﷺ «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**» وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسماعيل بالذكر تشريفًا له. والله أعلم. ﴿ **وكان رسولاً نبيًا** ﴾ أي وكان رسولاً إلى جُرهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه وكان مرسلاً من الله بتبليغ شريعة إبراهيم عليه السلام منبئًا بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل. ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ** ﴾ أي أنه بعد أن كمل نفسه اشتغل بتكميل أمته وأقرب الناس إليه على نحو ما قاله لنبيه محمد ﷺ ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقال سبحانه ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ [طه: ١٣٢]. وقال ﴿ **قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ [التحريم: ٦]. ومن صفاته عليه السلام أيضًا ﴿ **وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾: عمله، محمودًا فيما كلفه به، غير مقصر في طاعته ويقول القرطبي: أي رضيًا زاكيًا صالحًا.

يقول الدكتور محمد وصفي في كتابه «**الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل**»: لم يذكر إسماعيل عليه السلام في آية من آيات الكتاب منفردًا إلا في الآية ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ وذكر الله

إسماعيل مضموماً إلى أبيه إبراهيم عند ذكر رفع القواعد من الكعبة في قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . . . الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٢٥ – ١٣٢]

وذكر الله تعالى إسماعيل عليه السلام مع غيره من الرسل في قوله ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]. وقوله: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. وقوله لرسوله خاتم النبيين ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨]. وقال جل شأنه لرسوله الكريم خاتم النبيين ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] أ. هـ.

ويقول العلامة ابن كثير: «ذكر علماء النسب وأيام الناس: أنه – أي إسماعيل عليه السلام، أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها. وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثنا شيخ من قريش، حدثنا عبد الملك ابن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل**». وكانت هذه العراب وحوشاً فدعا لها بدعوته التي كان أعطى فأجابته وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

قال الأموي: حدثني علي بن المغيرة، حدثنا أبوعبيدة مسمع بن مالك عن محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل،وهو ابن أربع عشرة سنة**»، فقال له يونس: صدقت يا أبا سيار هكذا أبوجري حدثني. وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق. ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة» أ. هـ.



إسحاق عليه السلام

ولد إسحاق عليه السلام ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة وكان عمر أمه سارة حين بشرت به تسعين عامًا. وقد ذكره الله في كتابه الكريم بالثناء عليه في أكثر من آية قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

[الصافات: ١١٢ – ١١٣]

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم بكفرهم وفجورهم. و قال تعالى في سورة هود: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧١ – ٧٣]. فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب. فماذا قالت سارة؟ قالت ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وكلمة «ياويلتا» تقال للتعجب من أمر مفاجئ، فقد عجبت على أي حال ستلد وهي العجوز، وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التي يبست فيها العظام واشتعل الرأس شيبًا، وأكدت هذا بقولها. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾. ولذا جاء الرد من الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ثم قالت الملائكة: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

لقد كان إبراهيم عليه السلام أمة وكان من القانتين وهو من أولي العزم وهو أبو الأنبياء فما من نبي بعده إلا وهو من سلالته ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]. ووهب الله له على كبر منه، وعقم من

امرأته ويأس، إسحاق . ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ جزاء إيمانه الكامل وإحسانه الشامل وبخاصة فى ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل. فإبراهيم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فهو من سلالة نوح ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [الأنعام: ٨٤] وهدينا من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون.

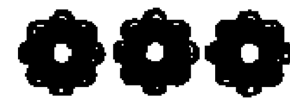
فهى ذرية طيبة ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ٣٤]. وإبراهيم واسطة العقد جده نوح، وأولاده الأنبياء، وكذلك نجزى المحسنين. وهدينا من ذريته كذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين، وهدينا من ذريته إسماعيل ابنه لصلبه، وجد المصطفى ﷺ، إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلاً فضلنا على عالمى زمانهم وهدينا بعضهم آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، إذ لم يكن الكل مهديًا إلى الخير ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦]. ولقد اجتبيناهم وخصصناهم بمزايا كثيرة وهديناهم صراطًا مستقيمًا ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾. أولئك المذكورون جميعًا ينهلون من معين واحد ولهم رسالة واحدة هى إرساء قواعد التوحيد فى الدنيا لله سبحانه وتعالى، وإن اختلفت فى الشكل وطرق الأداء والمعجزات تبعًا لظروف كل زمن وأمة، أولئك الذين آتيناهم الكتاب كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى وآتيناهم الحكم والعلم والفهم الصادق والنبوة، ولاشك أن كل نبى كذلك، إذ أساس النبوة العلم والفقه والفهم والفطانة. فالنبوة قيادة وزعامة فى الدين والدنيا، أما الحكم بمعنى فصل القضاء والحكم بين الناس فلم يعط لكل نبى، وهذه مراتب الفضل فيهم فكل من أوتى الكتاب أوتى الحكمة والنبوة، وكل من أوتى النبوة أوتى الحكم وليس كل من أوتى النبوة أوتى الكتاب.

يقول الدكتور محمد وصفى فى كتابه «الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل».

«ولا تختلف العقائد فى رسالة إسحاق عنها فى رسالة أخيه إسماعيل عليه

السلام أو أبيه إبراهيم عليه السلام فمن العقائد التي جاءت في رسالته حسب ما جاء في قصته في القرآن: الوحي والألوهية والرسالة أما الوحي فيؤخذ من قوله تعالى لخاتم النبيين ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق**﴾ [النساء: ١٦٣]. إلى آخر الآية الكريمة، وأما الوحدانية فتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٣] والدليل على أن دعوة إسحاق تشمل الرسالة هو قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ... الآيات**﴾ [الأنبياء: ٧٢ - ٧٣] والمفروض بداهة أن يبين إسحاق لقومه العقائد الدينية الصحيحة» أ. هـ يقول العلامة ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء:

«وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم عليه السلام. ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها».



يعقوب عليه السلام

يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم، ويسمى كذلك إسرائيل وإليه ينسب بنو إسرائيل . وقد ذكرت كتب اليهود أن زوج إسحق وهي رفقة بنت بتوئيل الآرامي، كانت عاقراً فسأل إسحاق ربه أن يرزقه بالولد، فحملت توأما ووضعتهما . فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر، فدعوا اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب، وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما (تكوين ٢٥ :٢٥، ٢٦) وعاش يعقوب : مائة وسبعًا وأربعين سنة ومات في مصر بعد وصوله إليها بسبعة عشر سنة [١] وحمل يوسف جثته إلى فلسطين في أرض كنعان، وفي العهد القديم: حمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم من عفرون بن صخر الحيثي (تكوين ٥٠ : ١٣).

«بلغ عدد بني يعقوب اثني عشر أحدهم يوسف عليه السلام، ويعرف عددهم في كتاب الله من رؤيا يوسف **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾** [يوسف : ٤] ومن تأويلها وهو تأويل الكواكب الإحدى عشرة بأخوة يوسف الأحد عشر وأما الشمس والقمر فهما أبوا يوسف عليه السلام. ولقد كان يعقوب ينادى بالوحدانية كآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وجاء هذا في قوله تعالى: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [البقرة: ١٣٣] وبين الله تعالى أنه أوحى إلى يعقوب كما أوحى إلى الرسول الكريم خاتم النبيين وغيره من النبيين قال

---

(١) البحر الزاخر جـ١ ص ٢٩ .

تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [النساء : ١٦٣] إلى آخر الآية الكريمة... وطبيعى أن العقائد التى جاءت فى رسالة إبراهيم وإسماعيل وإسحق هى عين العقائد التى جاءت فى رسالة يعقوب إذ أنهم كانوا جميعًا فى عصر واحد وفى بقعة واحدة من الأرض تقريبًا وأهل بيت واحد وأن الله اصطفاهم جميعًا وكرمهم بالنبوة »(١).



(١) راجع (الارتباط الزمنى والعقائدى) للدكتور محمد وصفى ص ١١١.

يوسف عليه السلام

هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، هو نبى الله يوسف بن يعقوب ابن اسحاق بن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إن يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا، وتفسير طيب لطهارة إزاره وعفته فى شبابه وقوته فى دينه وإيثاره لآخرته على دنياه، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا فى العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ومراقبته له فى السر والعلن، وسورته منقبة عظمى له وآية بينة فى إثبات عصمته وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء والرجال، فيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء، فيها تغلب للفضيلة على الرذيلة، فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة وأكملهم بنية يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها، يحملها الافتتان بجماله على أن تذل نفسها له وتخون بعلها فتراوده عن نفسه فيسعها من حكمته ويريها من كماله وعفته ما هو أفضل درس فى الإيمان بالله والاعتصام بحبله المتين وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه فتشعر حينئذ بالذل والمهانة والتفريط فى الشرف والصيانة وتحقير مقام السيادة والكرامة إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه وأمانته وعدله وحكمته وعلمه وعفوه وإحسانه فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد وكادت له امرأة العزيز فزج به فى السجن فصبر على أذى الأخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة، إذْ علم ما فى الفاحشة من مفاسد وما فى العدل والإحسان من منافع ومصالح، فآثر الأعلى على الأدنى، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ومكن له فى الأرض، وكانت عاقبته النصر والملك والحكم والعاقبة للمتقين، وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته فقد ظهرت جليا حين تولى الحكم فى مصر أيام السبع سنين العجاف التى أكلت الحرث والنسل وكادت توقع البلاد فى المجاعات ثم الهلاك المحقق لولا توفيق الله له ومنحه

الحكمة والعدل بين الناس والسير بينهم بالسوية وعلى الصراط المستقيم ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : ٥٧].

والآن ننتقل إلى فلسطين حيث بيت صفى الله يعقوب وابنه الصديق نطوف بمحراب سيرتهما المباركة.

إن الصديق يوسف عندما قام من نومه.. وكان ليلتها ينام مع أبيه فى حجرة واحدة وليس معهما ثالث إلا الله تبارك وتعالى، وعندما أشرقت الشمس بنور ربها.. وعندما سل سيف الفجر من غمد الظلام وتعرى الليل من ثوب الغلس.. همس يوسف فى أذن يعقوب ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤]. وعلم يعقوب بأن هذه الرؤيا لها خطرها فسرها يعقوب تفسيراً مبدئياً وقال لابنه يوسف : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] ثم بين تأويلها وتفسيرها قائلاً : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : ٦]. هذه الرؤيا تدل على أن الله سيصطفيك ويختارك وتدل على أنك ستكون فى مقام رفيع.. ستكون فى مقام تتربع فيه على مناط الثريا ومسرى الفلك (ويتم نعمته عليك) بالنبوة لتكون نبيا (كما أتمها على أبويك من قبل) وهما جداك إبراهيم وإسحاق ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] و لكن متى تنفذ الرؤيا؟ الله أعلم متى يسجد له إخوته وأبواه؟ الله أعلم.

هذه هى الرؤيا وهذا تأويلها، ولكن لم يكن يعقوب يعلم متى تحقيقها؟ ولامتى تنفيذها لأن الذى استأثر بعلم هذا كله.. هو من يقول للشىء كن فيكون.. وهنا لابد لنا أن نسأل سؤالا إذا كانت الرؤيا تمت بين يعقوب ويوسف.. فمن الذى أذاع سر هذه الرؤيا وأوصلها إلى إخوته؟

إن المكان لم يكن يحوى إلا يعقوب ويوسف.. فمن الذى نقل الرؤيا إلى إخوته؟ كان مع يعقوب جارية وسمعت يوسف وهو يقص على أبيه الرؤيا ولما عرف يعقوب ذلك قال لها : يا جارية اكتمى ما سمعت. ولكن كيف؟ كيف تكتم ما سمعت وهناك حكمة تقول : « لا تأمنن شابا على امرأة.. ولا تأمنن امرأة على

سر» وذلك لأن الصدر إذا ضاق بسرك فصدر الذى تستودع السر أضيق، وإذا خرج الكلام من اللسان فليس هناك أمان. إن الرؤيا وصلت إلى إخوة يوسف كما قصها وكما رواها.

قال رسول الله ﷺ في حديثه الجليل: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فكل ذى نعمة محسود. فالحسد حق والعين حق**» قال الله تعالى ﴿**وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ [الفلق: ٥].

وقال النبى ﷺ: «**إن لنعم الله أعداء.. قالوا من هم يا رسول الله قال: الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله**».

والحسد هو تمنى زوال نعم الله على خلقه لذلك قال الحبيب المصطفى ﷺ «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» إنها أول عبرة نأخذها من بيت يعقوب عليه السلام (يا بنى) هكذا بلسان الأب الرحيم بلسان الناصح الأمين ﴿**لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ**﴾ [يوسف: ٥] يخاف عليه من إخوته، هذه هى الدنيا وهذه متاعبها أن يكون بين الإخوة ما بينهم من عداءات وخصومات وأحقاد ﴿**فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف: ٥].

قال سيد الأولين والآخرين: «**الشيطان ذئب ابن آدم كما أن الذئب ذئب الغنم**» الشيطان هو ذئبنا، هو عدونا هو الذى يقف بالمرصاد أمام أبواب الخير فيغلقها. ﴿**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ [يوسف: ٦] يعلمك تعبير المنام ويعلمك تفسير الكلام، يجتبيك ويصطفيك.. وهنا لابد من وقفة نقولها وهذه الوقفة هى أن مركز الدائرة فى هذه السورة هو قوله تعالى ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ**﴾ [يوسف: ٢١] أى منفذ ما أراده لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه. إن الرؤيا وصلت إلى إخوة يوسف كما قصها وكما رواها، وهنا بدأ التآمر على يوسف قالوا: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [يوسف: ٨] أى إن أبانا لفى خطأ من أمور الدنيا لأنه يحب يوسف ويحب أخاه بنيامين شقيقه لأمه أكثر منا وهنا سؤال يحتاج إلى إجابة: لماذا كان يعقوب يحب

يوسف هذا الحب؟ قيل لأحد الحكماء: من أحب أبنائك إليك؟ فقال: صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يعود من غربته.

إذن لم يكن يعقوب عليه السلام متجاوزا حدود العدالة إنه أحب يوسف لأن يوسف كان أصغرهم، ولأن يوسف عليه السلام كانت فيه إمارات النبوة وعلامات الرسالة، فكان يحبه لما وهب الله له من هذه الصفات العالية، كما أن بنيامين كان شقيق يوسف لأمه (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) أى عبرا ومواعظ للسائلين عن ذلكما المستخبرين عنه فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه لقد حلفوا فيما يظنون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم وهم جماعة فكيف؟!

وأخيرا قرروا قائلين ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] إلى أى حد يصل الحسد بقلب صاحبه، إلى حد القتل، إلى حد العدوان، إلى حد الاعتداء وإلى حد البغي﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ تخلصوا منه وإلا تقتلوه فاطرحوه أرضا ارموه في أرض خلاء فضاء بحيث يخلو لكم وجه أبيكم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الذى لا ذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل. اجتمعوا ليفرقوا بين الابن الصغير وأبيه على كبر سنه ورقة عظمه مع مكانه من الله تعالى، اجتمعوا ليفرقوا بين الأب وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه. يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، وقد احتملوا أمرا عظيما. رواه ابن أبى حاتم من طريق مسلمة بن الفضل عنه. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ولم يفكروا في العواقب ولم يبحثوا مجريات الأمور، وتكونوا بعد قتله أو رميه قوما صالحين إذا تبتم إلى الله ورجعتم إليه.

وذات مساء من الأمسيات دخلوا على يعقوب. ويعقوب لا يدرى ماذا يدور فى الخفاء؟ ولكن إن يكن يعقوب لا يدرى فإن يد الله تعمل فى الخفاء، سبحانك يا عالم السر والنجوى يا كاشف الضر والبلوى يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عن من ناداه.

دخلوا على يعقوب بعدما خفف الحكم من القتل إلى وقف التنفيذ لأن كبيرهم قال لهم: ﴿ **لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ لأن عاقبة القتل شديدة.

يقول مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية سيدنا محمد ﷺ «**من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**والآدمي بنيان الرب، ملعون من هدمه**».

﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ [يوسف: ١٠] القتل جناية. القتل اعتداء على بنيان الله، الإنسان لا يرضى أن يهدم أحد بنيانا بناه فكيف يرضى أن يهدم بنيان الله؟. ﴿ **لا تَقْتُلُوا** ﴾ إذن فماذا نفعل يا روبيل؟ قال: ﴿ **أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ** ﴾ ألقوه في قاع البئر المظلم. والغيابة كل ما ستر وغيب عن عيون الناس، والجب هو البئر. يلتقطه بعض المارة السائرين. خفف الحكم بالقتل إلى الحكم بالنفي والتشريد.

إن الحسد إذا تمكن من شغاف القلب لا يعرف أخوة ولا يعرف صداقة ولا يعرف محبة. ولما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل دخلوا على يعقوب أبيهم وقالوا في صيغة تعجب ﴿ **يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ [يوسف: ١١] أي شيء حدث لك لماذا تخاف عليه منا؟ ثم قالوا كلمة يستفاد منها أنه يكاد المريب يقول خذوني ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ [يوسف: ١١] هل هو في حاجة إلى نصيحة؟ إنه غلام لم يتجاوز العاشرة من عمره، غلام في عمر الزهور، غلام أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة في سمائها ﴿ **نَاصِحُونَ** ﴾ أي مخلصون، النصح هنا معناه الإخلاص.

قال ﷺ «الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله؟» إن النصيحة هنا معناها الإخلاص، إذن فالدين النصيحة أي الإخلاص لله ولكتاب الله ولرسول الله. ﷺ ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ وإنا له مخلصون أمناء أوفياء أوصياء أنقياء أتقياء.

﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا** ﴾ [يوسف: ١٢] يريدون أن يعجلوا بتنفيذ المؤامرة على جناح السرعة خشية أن تتغير الأمور، خشية أن يحدث في ملك الله ما لا يريدون ﴿ **يَرْتَعْ**

ويَلْعَبْ﴾. يرتع بمعنى يأكل ويشرب، يأكل الفواكه والثمار ويلعب في الأرض الواسعة، ثم أكدوا المسألة ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ توكيدات أثقل من الجبال الشم الراسيات الشوامخ - فماذا قال لهم يعقوب بلسان قلبه: ﴿**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ**﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني، لأنى لا أطيق له فراقًا، لقد مضت عليه عشر سنوات لم يفارق مجلسي ولم تغادر عيناى وجهه.. فهذا الأمر يحزنني كثيرا والأدهى من فراقه أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، وكأن يعقوب ألقى على ألسنتهم حجة يحتجون بها. فردوا قائلين: ﴿**لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾ [يوسف: ١٤].

والعصبة هي الرجال من العشرة إلى الأربعين.

﴿**لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ**﴾ اللام هنا لام القسم يعني والله إن أكله الذئب والحال إننا جماعة قوية عشرة من الرجال كيف لا نستطيع حراسة غلام صغير؟! ﴿**إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ**﴾ أى إنا إذا لهالكون عاجزون.

ودنت ساعة الفراق وجاء الوقت المعلوم وأحضر يعقوب ليوسف طعامه وودعهم على الأبواب، وقبل الوالد جبين ولده وفلذة كبده ولم يكن يعلم أن هذه القبلة سيمر عليها أربعون عامًا دون لقاء.

وأوشك يعقوب أن يذهب معهم إلى أرض الخلاء ليقضي اليوم مع يوسف حتى لا يفارقه. إن قلب يعقوب لا يطاوعه ولكن أبناء يعقوب قالوا له: يا أبانا اطمئن، ألا تأمنا عليه؟! وعندئذ قال لهم وصيته: يا أبنائي أوصيكم بتقوى الله والمحافظة على يوسف إن جاع فأطعموه وإن عطش فاسقوه وقوموا على حاجته وكونوا متراحمين متواصلين.

إن حكمة العلي الأعلى شاءت أن تخفى صفحة القدر عن عيون البشر لتسير المجريات في طريقها السليم.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي الجليل: «عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتبعتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد».

وفي بئر من الآبار الواقعة بين مدينة القدس وطبرية؛ في بئر يبعد أكثر من سبعة عشر كيلو متراً عن بيت يعقوب جئ بيوسف وخلعوا قميصه وقيدوا يديه بالحبال، إلى أين تذهبون بي يا إخوتاه؟ لا إخوتاه، قلوب حسدت، فلما حسدت نسيت، فلما نسيت بغت فلما بغت طغت ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

نعم ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ [يوسف: ٧] عبر ومواعظ لكل من سأل عن العبرة والموعظة.

إلى أين يُذهب بهذا الغلام الذى اختطف من بين أحضان أبيه كما تخطف الدجاجة بين مخالب الثعالب، إلى أين؟ إلى البئر .. إلى بئر مظلم وحاول يوسف أن يتشبث برأس البئر لكنهم ضربوا يديه فخر يوسف عرياناً في البئر كما خر جده إبراهيم في النار عرياناً، ولكن هناك من لا يغفل ولا ينام، هناك من لا تأخذه سنة ولا نوم. خر يوسف في البئر وكان في البئر بعض الماء، ولكن الله هيأ له صخرة وقف عليها حتى لا يهوى في قاع البئر فيموت غريقاً أو مختنقاً.

ولما رآهم يذهبون راجعين وتركوه وحده قال لهم: يا إخوتي اذكروا وحدتي اذكروا وحشتي اذكروا جوعتي اذكروا ظمئي. يا إخوتي إذا لقيتم أبي فاقرئوه مني السلام ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

لكن كيف يظن يوسف أنه في وحشة؟ إن الله أنزل عليه الإلهام والوحي وقال له ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] سيأتي عليك اليوم الذى تذكرهم فيه بأفعالهم، يا يوسف لا تخف ولا تحزن فمن كان الله أنيسه فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء. وجن الليل وأرخى عباءته السوداء، أرخى الليل سرواله وغارت نجومه ويوسف في ظلمات البئر ليس معه أنيس إلا الله وكفى بالله أنيساً.

إن نبي الله يوسف مر بأربع محن، وفرجها الله تعالى:

المحنة الأولى: محنة الفراق وكفى بالفراق محنة. قيل لإمام الحرمين رضي الله عنه إن النبي ﷺ يقول «السفر قطعة من العذاب» فلم كان السفر قطعة من العذاب؟

فقال إمام الحرمين رضى الله عنه: لأن فيه فراق الأحباب وكفى بالفراق محنة.

المحنة الثانية: محنة غيابت الجب.

المحنة الثالثة: محنة المراودة.

المحنة الرابعة: محنة السجن.

أما المحنة الأولى، فقد استمر الفراق أربعين عامًا، ما رآه يعقوب إلا بعد أربعين عامًا مضت ثقيلة كأنها سلسلة من الجبال الشامخة. أربعون عامًا مضت بين يعقوب ويوسف كلها حزن وألم وصبر، وكان يعقوب يقول فيها: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾. إلى الله لا إلى أحد سواه. أربعون عامًا مضت بين الوالد الحنون وبين فلذة كبده وكان يعقوب ساعتها لا يشكو من الله إنما كان يشكو إلى الله عز وجل. فالشكوى من الله بعد عن الله والشكوى إلى الله قرب إلى الله. ويقطع العشرة الأخوة الطريق من غيابت الجب إلى بيت يعقوب وأبوهم لا يدرى ماذا جرى فى علم الغيب؟ لا يعلم الغيب إلا الله. سلمهم يوسف أمانة غالية ليرتع ويلعب ولكنه لم يرتع ولم يلعب وما ذاق حلاوة اللعب إنما هو الآن فى ظلمات بئر عميق يقف على صخرة وليس معه أحد من إخوته ولكن من كان الله معه فلا يضل ولا يشقى وكفى بالله أنيسًا.

من أراد مؤنسًا فالله يكفيه ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ومن أراد واعظًا فالموت يكفيه. ومن لم يكفه شىء من هذا فإن النار تكفيه. نعم.. لم يكن يعقوب يدرى من الأمر شيئًا ولو أن يعقوب اطلع على صفحة الغيب ما فرط فى يوسف وما سلمه إلى إخوته مهما كان الثمن غاليًا ولكن لا يعلم ما وراء الغيوب إلا الواحد الديان. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] ما أرخص الدموع إذا كانت دموع التماسيح، عشاءً أى عندما أرخى الليل عباءته على الكون حتى لا يرى يعقوب وجوههم وانفعالاتهم.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] لم يقل المولى سبحانه ﴿بِدَمٍ كَاذِبٍ﴾ لو قال بدم كاذب لكان الدم موصوفًا بالكذب لكنه قال سبحانه ﴿بِدَمٍ

كَذِبٍ﴾ كأن الدم هو الكذب نفسه، ولكن مهما فعل الفاعلون فلا بد أن يتركوا وراءهم آثاراً، لابد أن يترك الجانى وراءه علامات وآثاراً تثبت أنه الجانى ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ الليل دامس ويعقوب فى بيته ينتظر فى لهفة عودة يوسف.. ولكن هون عليك يا جبل الصبر يا نبى الله فلن ترى حبيبك إلا بعد أربعين عامًا.

إنه البلاء «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

يا يعقوب هون عليك إن الخطب فادح وإن المصاب شديد وإن الخطر جسيم. ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ويتفقد يعقوب يوسف بينهم فلم يجده؟ أين حبة العين أين يوسف؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] أى نعدو ونجرى ونتسابق ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ [يوسف: ١٧] عند ثيابنا وطعامنا فماذا؟

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ لو قالوا فافترسه الذئب لبقى من عظامه شيء يستطيع يعقوب أن يقيم الدليل عليه، ولكن ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ أى لم يبق الذئب منه شيئا لا صغيرا ولا كبيرا، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أكله الذئب ونظر يعقوب فى القميص فلم يجد به أى تمزيق وتعجب كيف يأكل الذئب صاحب القميص ولا يحدث بالقميص أى تمزيق!! بيوت الأنبياء يخيم عليها البلاء «وعزتى وجلالى لا أخرج عبدا من الدنيا وأحب أن أرحمه حتى أوفيه بكل سيئة كان عملها سقما فى جسده أو إقتارا فى رزقه أو مصيبة فى ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثاقيل الذر فإذا بقيت له سيئة بعد ذلك شددت عليه سكرات الموت حتى يلقانى كيوم ولدته أمه» إنه البلاء!! ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ والله يعلم أن الذئب برئ كل البراءة من دم ابن يعقوب ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] فماذا قال يعقوب؟ إن قضاء الله لا يقابل بغير التسليم وليس له عدة سوى الصبر الجميل. قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] حالى صبر جميل، أمرى صبر جميل، صبرى صبر جميل. يقول رب العزة فى الحديث القدسى الجليل «إذا ابتليت عبدى ببلاء فى بدنه.. فاستقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا»، «إذا

ابتليت عبدى ببلاء فلم يشكنى إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإذا توفيته فإلى رحمتى». فصبر جميل. نعم: يا يعقوب فأنت عند الله فى ديوان الصابرين ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ [يوسف: ١٩]: قوم يسيرون وسموا سيارة لطول سيرهم على وزن قناصة وكشافة وجوالة ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ من يرد لهم الماء ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ الفاءات تفيد الترتيب مع السرعة لنعلم أن فرج الله قريب.. وجاءت، لم يقل: ومرت سيارة إنما ﴿ وَجَاءَتْ ﴾ لو قال ومرت سيارة لكان مرورا عابرا بغير قصد إنما ﴿ وَجَاءَتْ ﴾ كأن الله هو الذى أرسلها بقصد وعناية، أرسلها إلى البئر ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ فأنزل دلوه ولم يذكر القرآن الكريم ماذا كان بعد إدلاء الدلو؟ لو أنه قال: فأدلى دلوه فتعلق به يوسف وخرج من الدلو لضاع عنصر المفاجأة فى الآية الكريمة ولكنه قال ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ وجاءت المفاجأة: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ [يوسف: ١٩] غلام ولكنه ليس ككل الغلمان. غلام طاهر ابن نبى طاهر، يوسف بن يعقوب ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ [يوسف: ١٩] أسروه أى أرادوا أن يخفوه لأنها بضاعة محظورة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ ﴾ أى باعوه، ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ فى القرآن بمعنى باع واشترى بمعنى اشترى (باع) بمعنى دفع السلعة وأخذ الثمن (واشترى) بمعنى دفع الثمن وأخذ السلعة (وابتاع) بمعنى اشترى، (وشرى) بمعنى باع ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [يوسف: ٢٠] بثمن زهيد ليخلصوا منه خشية أن يحدث تفتيش للقافلة فيضيع منهم ذلك الغلام بيع بدراهم معدودة ولو كان ثمنا غاليا لبيع بدارهم موزونة، فالوزن غير العد. العد للقليل والوزن للكثير ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠] أى من الذين يريدون ألا يتعلقوا به.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢١-٢٢]

لم يذكر القرآن الكريم اسم المشترى ولا صفته ولا عنوان سكنه لأن القرآن لا

يهتم بمثل هذا، بل إن قصصه لمعنى أعلى وأسمى والظاهر أنه كان رئيس شرطة ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي أكرمي المكان الذي يجلس فيه، فإذا أمرها بإكرام المكان فإن إكرام الجالس في المكان من باب أولى أكرمي مقام هذا الغلام فلا يكن في منزلة العبيد والأرقاء بل عامليه كفرد منا فإني ألمح منه النبل والخلق وأرى أنه سيكون له شأن، أكرميه رجاء أن ينفعنا في أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقر به أعيننا ونرثه ويرثنا.

يا سبحان الله!! أهكذا يكون يوسف الذي ألقى في الجب: وقد وقع في قلب سيده هذا الموقع، لا غرابة فالله حارسه وهاديه وحافظه وراعيه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٢١] مكنا له في أرض مصر وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير. مكناه في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا، وهكذا إعداد الأنبياء ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١] منفذ ما أراده لا راد لقضائه فكل ما وقع ليوسف من إلقائه في الجب ومن استرقاقه وبيعه وتوصية سيده لامرأته بخصوصه وتعليمه الرؤيا وغير ذلك - خطوات لإعداد يوسف للمحل الذي ينتظره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] ولما كمل رشده واستوى عقله وبدنه ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] إلهاميا فيما يعرض له من المشكلات والنوازل وعلما بذلك. ومثل ذلك يجزى الله المحسنين العاملين خصوصا الأنبياء والمرسلين «وقائدهم وخاتمهم محمد ﷺ» وهكذا بينا للقارئ الكريم محنتي الفراق وغيابت الجب التي مر بهما نبي الله يوسف عليه السلام، والآن نوضح المحنة الثالثة وهي محنة المراودة يقول الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن

قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٢٣- ٢٩].

المراودة أن تنازع غيرك الإرادة فتريد غير ما يريد، وعليه قوله: ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ أى نحتال عليه ونخدعه عن إرادته والمراد فى الآية أنها تحايلت لمواقعته إياها ولم تجد منه قبولا ﴿ وَغَلَّقَت ﴾ : أحكمت إغلاق الأبواب كلها : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ هلم أقبل وبادر لما أقوله لك ﴿ بُرْهَانَ ﴾ : المراد تذكره ربه سبحانه وتعالى وما بينه من تحريم الزنا والخيانة ومراقبة الله سبحانه فى كل عمله وهى مرتبة الإحسان فى العمل – كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ : أى الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب.

﴿ مِن قُبُلٍ ﴾ : من قدام و ﴿ مِن دُبُرٍ ﴾ : من خلف.

يخبر الله تعالى فى الآيات عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه ودعته إليها ذلك أنها أحبته لجماله وحسنه فامتنع من ذلك أشد الامتناع وقال ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير أى أن زوجك أحسن مثواى أى منزلى وأحسن إلىَّ فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣].

قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

إن الله تعالى قبل أن يحدثنا عن مشهد المراودة قدم لذلك بقوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] وبهذا يكون يوسف قد أوتى الحكم والعلم ووصفه الله تعالى بالإحسان والإحسان معناه كما قال الحبيب المصطفى ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

فكيف بعد هذا كله يقول عاقل إن يوسف قد مال إليها كما مالت إليه إن الآية

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٣١ : ٢) وفى الإيمان (٣٧) ومسلم فى الإيمان (٥٧).

تقول ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فهذه ثلاثة مواقف من جهتها: المراودة وهى الطلب برفق، وإغلاق الأبواب بإحكام، وقولها له هيت لك أى أقبل أو هيئت لك أى تهيأت لك وقد قوبلت هذه المواقف الثلاثة بثلاثة مواقف من يوسف الكريم أولها : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أى ألجأ إلى الله فهو الحصن الحصين والركن الركين والجناب الأعلى.

وكيف لا يكون ذلك كذلك والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وكيف لا يكون يوسف من أهل التقوى وهو الذى قال لإخوته ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكان الموقف الثانى من يوسف الكريم قوله: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أى كيف أخون سيدى وهو زوجك الذى أكرمنى وأحسن مقامى وأوصاك بذلك وقال لك: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان! أأخونه فى أغلى شيء وهو العرض؟ أما الموقف الثالث: قوله ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ من باب إياك أعنى واسمعى يا جارة وفى التلميح ما يغنى عن التصريح وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة. فهذه ثلاثة بثلاثة فيها دلالة قاطعة على براءة يوسف ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] تلك ثلاث جمل قد جمعت كل ما يستوجب الاعتصام والبعد عن هذا المنكر فعلا وإرادة وميلاً بل كل واحدة منها كافية فى العصمة فما بالك بكلها.

سيدة فى بيتها وفى قومها غنية بثروتها، بديعة فى حسنها ذات قدرة وسلطان وأمر مطاع، قد غلقت على شاب الأبواب وتهيأت له كما تتهيأ المرأة لزوجها أو أكثر، ثم دعته إلى نفسها وألحت، وفى مخالفتها الانتقام والكيد العظيم، وفى طاعتها وفرة المال والتمتع بلذات الحياة كما يشاء، كل هذه المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذلك الطاهر النقى الذى اصطفاه الله لزلزلته ولكنها أحاطت بمن أتاه الله الحكم والعلم ومن ولد فى بيت النبوة وترعرع فيه ومن بلغ درجة الإحسان

فماذا: قابلها؟ قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة التى ينبغى أن تتخذ أصولا وقواعد يبنى عليها علماء الأديان والأخلاق فروعاً لا حصر لها وهى ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى ألتجىء إلى الله واعتصم به من أن آتى هذا المنكر وأخون زوجك الذى أكرمنى وأحسن إقامتى إننى إن فعلت ذلك أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة والنعمة بالكفران، وهذا ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه، وعاقبة الظلم الخُسران وعدم الفلاح.

ثم إن لهذه الجمل القيمة دلالات تبعية، ففى قوله ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ تنبيها لها إلى ذكر الله تعالى وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام على هذا المنكر لعلها تتذكر وتخشع فترجع عن غيها. وفى قوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ تنبيها لها إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الذى رباها بنعمه وخيراته وأحسن مقامها وغمرها بإحسانه. وفى قوله ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تنبيها لها إلى أنها إن أقدمت على هذا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولزوجها وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح لعلها تتعظ خصوصا إن واعظها هو فتاها ذلك الشاب. بعد هذه النصائح الغالية والتأنيب من طريق التعريض لم ترتدع عن غيها بل أعماها شيطان الحب وأصمها فهمت به ليأتيها رغما وكرها.

والهم معناه: الشروع فى تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر وما امتلأت به، ولابد أن يكون معه إمارة دالة على ذلك، وسواء قلنا إن الهم هو العزم والقصد أو الشروع فى التنفيذ فلابد أن يكون معه إمارة دالة عليه وإذا تتبعت تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هذا الشرط لازم مثال ذلك قوله تعالى ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣] أى شرعوا فى إخراجه وظهرت الأمارة الدالة على ذلك وهو التشاور والتكلم فيه.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] أى شرعوا وظهرت الأمارة الدالة على ذلك وهى رفع السيف (فعلاً) على رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا﴾ [آل عمران: ١٢٢] أى شرعت مع ظهور الأمارات وهى تكلم بعضهم وترددهم فى أول الأمر.

ويقال هم بالقيام إذا شرع فيه وبدرت فيه بوادر تدل عليه، ويقال فلان مهموم إذا ملأه الحزن فظهرت على وجهه أماراته، ويقال أهمه الأمر إذا أقلقه أى ظهر عليه القلق، واهتم فلان بالأمر إذا ظهرت منه أمارات تدل على اهتمامه.

وحينئذ يكون معنى (همت به وهم بها) أى شرع كل منهما فى تنفيذ ما توطنت عليه نفسهما أو ما عزما عليه مع ظهور أمارات من كل منهما تدل على ذلك، ثم إن عزم النفس تابع لما تنفعل به من خير أو شر أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الذى يلائم هذا الانفعال فشرعت فى تنفيذه وإيجاده، هذا أمر لا يحتاج إلى توضيح. فلننظر إذا فى نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها. أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب المخالطة، شغوفة به فهى منفعلة بذلك وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف والطهارة والنفرة من هذا الأمر فهى منفعلة بذلك فحملها انفعالها وهياجها على شروعها فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات دالة على ذلك، وحمله انفعاله على شروعه فى منعها بالقوة بما ظهر منه أمارات دالة على ذلك.

لقد أجمل الله تعالى لنا ما هم به كل منهما وتركه لفطنة القارئ إلا أنه أشار إليه فى نفس الآية بقوله سبحانه: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ لئلا تزل قدم مؤمن فى هذا المنزلق الخطير وحينئذ يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ أنها شرعت فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات، وشرع هو فى تنفيذ منعها بما يسؤوها بما بدرت منه من أمارات.

ومما يؤيد ذلك شهادة امرأة العزيز ذاتها حيث تقول: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فإنه ليس هناك كلمة أبلغ فى الدلالة على نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هذه الكلمة البالغة فدل كل ذلك على أن تفسير الهم بما يقوله بعض المفسرين - الميل إليها - تفسير غير مقبول. ثم قال تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) الرب هنا سيد البيت أى مربيه وهو المشار إليه سابقًا فى قوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وقد استعمل الرب فى هذا المعنى كثيراً فى هذه السورة ومن ذلك قوله ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ الآية. والبرهان: العلامة والبيان أى لولا أن رأى

علامة حضور سيده. وإنما قلنا: علامة حضوره لأن الله أشار إلى ذلك بقوله ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ فكان ذلك قرينة قاطعة على أن المراد: العلامة الدالة على حضوره، وإننا لا نعرف هذه العلامة على وجه التحقيق وإنما الذى نعرفه أن لقدوم الأمراء إلى بيوتهم علامات تدل عليه. وقد تكون تلك العلامة رفع راية مثلاً أو وجود شخص يعدو أمامه كالسايس مثلاً ويختلف ذلك باختلاف عادات الأمم، واختلاف العصور، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة على وجه التحقيق. وجواب (لولا) محذوف أى لولا أن رأى العلامة الدالة على حضور سيدها لنَفّذ (فعلاً) ما أراده أى لساءها (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) لأن كلمة السوء تدل على همه هو أما الفحشاء فتدل على همها هي - أى الأمر كان كذلك، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك، لنصرف عنه السوء والفحشاء- فقدرنا حضور صاحب البيت فى هذا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أراده (فعلاً) فإن إساءة المرأة خصوصًا امرأة العزيز ليست بالأمر الهين بل تقوم لها الأمة وتقعد ويذاق بسببها ألوان العذاب وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلا بنا ومنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] أى فعلنا ذلك به ونجيناه من السوء والفحشاء لأنه من عبادنا الذين أخلصناهم واصطفيناهم من الخلق أو أخلصوا لنا فى عبادتنا وأحسنوا.

ثم قال تعالى ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه عدل عن تنفيذ ما أراده من السوء وأسرع نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الدقيق والنزاع العنيد، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها فأسرعت وراءه لتمنعه، وجذبته من قميصه ليعود إليها فقدته من خلفه، وهنا ألفيا سيدها لدى الباب. قد يقول قائل: إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلم لم ترها امرأته؟

قلنا: ليس بلازم خصوصًا أنها فى حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها فلم تلتفت إلا إليه هو.

ولما وجدت سيدها لدى الباب وكانت بحالة هياج وارتياب أرادت أن تؤثر عليه

بما تنفعل له نفسه فقالت ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٥] .

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولاً وأملأ له أذنًا وقلبًا ولتصرف عنه فكرة الحالة المريبة التي رآها عليها، ولتنفعل نفسه بما تبديه من تأثير حتى لا يصدق ليوسف قولاً إذا قال، وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن أو العذاب الأليم لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حدث منه من إرادة السوء حتى لا يرتاب في حالتها التي رآها عليها. «وهذا من ضمن الكيد».

وجد سيدنا يوسف عليه السلام نفسه أمام صاحب البيت مشكوًا منه يراد به السجن أو العذاب الأليم بدون ذنب جناه سوى العفة والأمانة فلم يجد مناصًا من الدفاع عن نفسه لئلا يُسجن أو يُعذب العذاب الأليم... ولولا ذلك لستر أمرها - كما قال بعض المفسرين - وهو في دفاعه لم يتنصل من إرادة السوء بل ذكر السبب الذي كان من أجله أراد بها السوء ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف : ٢٦] وهذا إقرار ضمني في عرف التقاضي والتخاطب بأنه أراد بها السوء كما يقول القاضي للمتهم هل ضربته؟ فيقول إنه شتمني.. ومعناه أنني ضربتُه لأنه شتمني، فكذا هذا أي أنني أردت بها السوء لأنها راودتني عن نفسي وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوة فأردت إساءتها لأمنعها بالقوة فلما رأيتك انصرفت عنها. وقع هذا القول في نفس العزيز موقعًا قلل من تأثير زوجته عليه فأخذ يفكر ويبحث من الصادق منهما. حادثة حصلت في بيته ولا شاهد فيها لأن الأبواب قد غلقت، ولم يكن معهما أحد من الناس وهي تدعي أنه أراد بها سوءًا بدون سبب فأشكلت الحادثة عليه والتبست ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها قد جعل القرينة حكمًا وشاهدًا فقال ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن قَدَّ القميص من الخلف يدل على أنها هي الطالبة له للمخالطة، ، وقَدّ القميص من الأمام يدل على أنه هو الذي أقبل عليها يريد بها فأمسكت بتلابيبه - كما هي عادة المرأة أو الضعيف إذا هجم عليه من يريد ايذاءه ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٨] تبين أنه صادق وأنها كاذبة ولذلك وبخها بقوله ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي ما

حصل منك من ادعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ ثم قال ليوسف عليه السلام ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** ﴾ [يوسف : ٢٩] أى لا تذكره لأحد ولا تتأثر به ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها بقوله : ﴿ **وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ [يوسف : ٢٩] وشاع الخبر بين نسوة فى المدينة فقلن بلسان الإنكار إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا وما كان لها أن تفعل ذلك وهى السيدة التى تعيش فى بيت الحكم وهو الفتى المملوك . ومعنى (تراود فتاها) أى مازالت مستمرة فى المراودة ومعنى (قد شغفها حباً) أى اخترق حبه شغاف قلبها بحيث تمكن فيه كل تمكن ﴿ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ . فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن أى بقولهن الماكر — قال المفسرون : فمكرت بهن كما مكرن بها ودعتهم إلى الطعام فى دارها وهيأت لهن ما يتكئن عليه من كراسى وأرائك كما هو المعروف فى بيوت العظماء، وكان ذلك فى حجرة المائدة وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة ﴿ **وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ** ﴾ أمرته بالخروج عليهن وقد تعمدت — إتمامًا للحيلة والمكر بهن — أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] لما رأينه أعظمنه ودهشن لذلك الجمال البارع وذهلن وقطعن أيديهن بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عما يعملن وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى (حاشا لله) أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ولا فى عفته من النوع الإنسانى، إن هو إلا ملك تمثل فى الصورة الرائعة البديعة ﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف : ٣٢] .

حينئذ قالت لهن : ذلك هو الذى لمتننى فيه وأسرفتن فى لومى وتعنيفى وقلتن ما قلتن فماذا أنتن قائلات فى أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى وإننى أتصباه بكل ما أملك من كلام عذب فلا يصبو إلى ولا يظهر نحوى أى عطف ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه واستمسك بعروة العصمة، ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلاً ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ولا

يعصيني في أمر وسيعاقبه بما أريد ويلقيه في غيابات السجون ويجعله كغيره من العبيد. وهنا أنذرته بسجن مؤكد وذل وصغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣]. أي قال رب أنت العليم بالسر والنجوى والقدير على كشف تلك البلوى، إن السجن الذي هددت به والمكث في بيئة المجرمين على شظف العيش ورقة الحال أحب إلى نفسي مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن في ترف القصور والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك. وفي قوله ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها وزين له مطاوعتها ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] أي وإن لم تبعد عني شراك كيدهن وتثبتني على ما أنا عليه من العصمة أمل إلى موافقتهن على أهوائهن وأكن من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات، وفي هذا إيماء إلى أنه ما صبا إليهن ولا أحب أن يعيش معهن بل سأل ربه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤] فأجاب الله دعاءه وعصمه من الجهل والسفه باتباع أهوائهن إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم، و في هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته في جميع أطواره وشئونه ورباه أكمل تربية.

أما المحنة الرابعة التي مر بها نبي الله يوسف عليه السلام فهي محنة السجن يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥] أي ظهر للعزيز وامرأته ومن يهمه أمرهما كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها من الرأي ما لم يكن ظاهراً لهم من قبل بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم مما يدل على أن يوسف لم يكن إنساناً كالذين عرفوا في أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التي يتمتع بها سكان القصور وفي إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته ويحرسه بوافر رعايته. كل هذا أثبت أن بقاءه

في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها مثار فتنة لا تدرك غايتها وأن الحكمة هو تنفيذ رأى امرأة العزيز بسجنه لإخفاء ذكره وكف ألسنة الناس عنها من أمره وأقسموا ليسجننه حتى حين دون تقيد بزمن معين، وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت فهو يجرى وراء أهوائها وهواها ويستجلب رضاها حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيست من طاعته وطمعت في أن يذلله السجن لأمرها ويقف به عند مشيئتها. ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦]، قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه. وقال السدى: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه.

واشتهر يوسف في السجن بالجود والأمانة والصدق وحسن السمت وكثرة العبادة – عليه السلام – ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم.

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبًا شديداً وقالا له: والله لقد أحببناك حبًا زائداً. وقال الضحاك في قوله ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ يعنى عنبًا. وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾. أخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال: ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف: ٣٧] ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياى لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا في المعاد ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يوسف: ٣٨] يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدى قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يقتدى به

في الخير وداعيًا إلى سبيل الرشاد ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ [يوسف : ٣٨] هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أى أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨] أى لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ثم إن يوسف أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما دون سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما فقال : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] أى الذى ذل كل شىء لعزه جلاله وعظمة سلطانه. ثم بين أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال : ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى من حجة وبرهان. وأخبرهما أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه. ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقر الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] أى فلهذا كان أكثر الناس مشركين ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣].

ثم لما قام يوسف عليه السلام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٤١] وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ولكنه لم يعينه لئلا يحزنه ذاك ولهذا أبهمه فى قوله : ﴿ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾ ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه وهو واقع لا محالة لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج قال له يوسف – خفية الآخر – والله أعلم – لئلا يشعره أنه المصلوب. قال له ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أى

اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ عائد على الناجي كما قاله مجاهد وغير واحد.

وأما البضع في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] فقال مجاهد وقتادة هو ما بين الثلاث إلى التسع. وهكذا أراد الله تعالى أن يمتحن يوسف بالسجن بعدما نجاه الله من امرأة العزيز، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلي المرء على قدر دينه. ولابد للمؤمن أن يكون صابراً عند البلاء راضياً بالقضاء شاكراً للنعماء.

وتأتي رؤيا الملك كما بينها القرآن العظيم: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ - ٤٩].

قال العلامة ابن كثير: «هذا كان من جملة أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن على وجه الاحترام والإكرام وذلك أن ملك مصر وهو الريان بن الوليد ابن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرون بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رأى هذه الرؤيا فلما قصها على ملئه وقومه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها بل ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي أخلاط أحلام من الليل لعلها لا تعبير لها، ومع هذا فلا خبرة لنا بذلك ولهذا قالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي

منهما الذى وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا، وذلك عن تقدير الله عز وجل له لحكمة فى ذلك، فلما سمع رؤيا الملك ورأى عجز الناس عن تعبيرها تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار وبهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ ﴾ [يوسف: ٤٥] تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى بعد مدة من الزمان وهو بضع سنين. وقرأ بعضهم كما حكى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ ﴾ أى بعد نسيان وقرأها مجاهد: ﴿ بَعْدَ أَمْةٍ ﴾ بإسكان الميم وهو النسيان أيضًا، فقال لقومه وللملك: ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى فأرسلونى إلى يوسف فجاءه فقال ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ولا طلب الخروج سريعًا؛ بل أجابهم إلى ما سألوا ، وعبر لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يعنى الغيث والخصب والرفاهية ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعنى ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها. فعبر لهم وعلى الخير دلهم، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه فى حالتى خصبهم وجدبهم وما يفعلونه من ادخار حبوب سنى الخصب فى السبع الأول فى سنبله، إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر فى سنى الجدب فى السبع الثانية، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم»[1]. هـ

معنى (تزرعون) على معنى ازرعوا (سبع سنين) قمحًا وشعيراً دائبين مجدين بلا انقطاع، وإذا فعلتم ذلك (فما حصدتم) فاتركوه فى سنبله ليكون الحب لكم والتبن لدوابكم وهذه طريقة عملية دقيقة لحفظ المحصول.

اصنعوا هذا فى المحصول كله ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ فهذا هو تأويل البقرات السبع والسنابل السبع ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ ﴾ سنين فى جدبهن وانقطاع الخير فيهن يأكلن ما قدمت تلك السنون الأولى من المحصول المدخر ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٤٠ ط ١٤٠١ هـ.

تُحْصِنُونَ﴾ وتدخرون للبذر ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عام يكون الرخاء على أتم ما يكون ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ بكل أنواع الإغاثة من مطر وحسن محصول ومنع للآفات وفى هذا العام (يعصرون) عصير القصب والفاكهة والعنب والسمسم والزيتون . . إلخ. وهذا الإخبار الأخير الخاص بهذا العام من قبيل الوحى والإلهام وليس جزءاً من تأويل الرؤيا. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] قال الملك ﴿ائْتُونِي بِهِ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه فلما جاءه الرسول بذلك امتنع يوسف من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً. فقال يوسف: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعنى الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة العزيز وزيره - ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أى ما شأنكن ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعنى يوم الضيافة ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١] أى قالت النسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فعند ذلك قالت امرأة العزيز ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥١، ٥٢].

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: الآن تبين الحق وظهر وبرز. تقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ولا وقع المحظور الأكبر وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلهذا اعترفتُ ليعلم أنى بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى لأن النفس أمارة بالسوء إلا من عصمه الله تعالى والله غفور رحيم.

قال عبد الرزاق فى الحديث المرسل عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر**» وفى لفظ أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «**لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر**» أخرجه الإمام أحمد فى (م: ٣٤٦: ٣٨٩) وحين تحقق للملك براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿**ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾ [يوسف: ٥٤] أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿**فَلَمَّا كَلَّمَهُ**﴾ أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق ودين وكمال قال له الملك: ﴿**إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال له يوسف عليه السلام: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥] سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهى الأهراء - مخازن الطعام - التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف هو على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له. ولهذا يقول تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧] والمقصود أرض مصر يتصرف فيها كيف يشاء. قال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٥٦] أى ما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والسلام والتأييد، وأن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا. ويقال إن أطفير زوج زليخا كان قد مات فولاه الملك مكانه وزوجه امرأته زليخا فكان وزير صدق وأحبه الناس. وقيل إنه لما مات العزيز تزوج يوسف زليخا - امرأة العزيز - فولدت ليوسف رجلين. والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر - الريان ابن الوليد - الوزارة فى بلاد مصر مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام. قاله مجاهد. وقد قال بعضهم:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسَنَّ فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

كان يوسف على خزائن مصر وهو الحفيظ للقوت، العليم بأساليب الصرف والإكثار من الزرع، وكان الزمن زمن جدب وقحط عم مصر وما جاورها من البلاد كبلاد كنعان (فلسطين) لكن يوسف قد أرسل لمصر لإنقاذها من الجدب بل وفر من أقواتها ما كان يباع لجيرانها. ولما علم يعقوب وبنوه بخيرات مصر وكانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام أرسل أبناءه العشرة ليبتاعوا من عزيز مصر القوت ويعطوه الثمن بضاعة كانت معهم، وكان يوسف لا يعطى الفرد إلا حمل بعير فقط توفيراً للمؤن.

وجاء إخوة يوسف العشرة فدخلوا عليه وهو فى أبهة السلطان فعرفهم لما وصل خبر مقدمهم إليه ورآهم بعينه وهم لا يعرفونه، ولما جهزهم بجهازهم أوفر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الطعام وأعطاهم ما يحتاج إليه المسافر فى سفره وطلبوا أكثر من حقهم؛ طلبوا لأبويْهم ولأخيهم الحادى عشر فإنه بقى فى خدمة أبويه الكبيرين فأعطاهم حمل بعيرين بشرط أن يحضروا له أخاهم لأبيهم ليراه ثم أخذ يحبب إليهم المجئ ثانية مع أخيهم بقوله ألا ترون أنى أتم لكم الكيل الذى تكتالون وأريحكم فى سعره وصنفه وأنا خير المضيفين فقد أحسنت ضيافتكم وجهزتكم بزاد يكفيكم فى سفركم زيادة على تجارتكم، فإذا لم تحضروا إلى أخاكم كما اتفقنا وعدتم تمتارون لأهلكم منعتكم من الكيل فى بلادى فضلاً عن إيفائه وكماله ولا تقربوا بلادى فضلاً عن الإحسان فى المعاملة والضيافة.

قالوا: أيها العزيز ﴿ **سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ** ﴾ [يوسف: ٦١] ونحتال بكل حيلة حتى يسلم لنا بنيامين الذى يعتز به أبوه فهو خلف لأخيه يوسف المفقود ﴿ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** ﴾ ذلك إن شاء الله.

وقال يوسف لفتيانه الذين يتولون الكيل للتجار ﴿ **اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ** ﴾ [يوسف: ٦٢] التى جاءوا بها ثمنًا للطعام – روى أنها كانت جلودًا وأدامًا – اجعلوها ﴿ **فِي رِحَالِهِمْ** ﴾ لكى ﴿ **يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ** ﴾ فيكون ذلك أدعى لرجوعهم ثانية

حيث يقفون على مدى إكرام عزيز مصر لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ حسبما أمرتهم بذلك ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ﴾ بعد هذه الرحلة ﴿قَالُوا﴾ بمجرد وصولهم ﴿يَا أَبَانَا﴾ إن عزيز مصر قد منع منا الكيل بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين كما طلب، فأرسله معنا ﴿نَكْتَلْ﴾ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا وهو العزيز الذى أكرم وفادتنا وإنا يا أبانا لنحفظ أخانا فى ذهابنا وإيابنا. قال يعقوب الشيخ الحزين على يوسف الذى لا يزال يذكره حتى ابيضت عيناه من الحزن: هل آمنكم عليه إلا ائتمانا كائتمانى لكم على أخيه يوسف من قبل؟ على معنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وأنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف وضمنتم لى حفظه وقلتم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلم يحصل الأمن والحفظ سابقًا فكيف يحصل الآن؟

قال ابن كثير: فلهذا قال لهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أى إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أكد المواثيق وقرر العهود واحتاط لنفسه فى ولده ولن يغنى حذر من قدر! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة لما بعث ولده العزيز ولكن الأقدار لها أحكام والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم. ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة، قيل: أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة. قاله ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة والسدى والضحاك، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٧، ٦٨].

ثم يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوهم بنيامين (شقيق يوسف) وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان واختلى بأخيه بنيامين فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه

أنه أخوه وقال له ﴿لا تَبْتَئِسْ﴾ أى لا تأسف على ما صنعوا بى وأمره بكتمان ذلك عنهم وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٠ - ٧٢]. أى لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعامًا أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية - وهى إناء كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزة - قلة - الطعام إذ ذاك فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحدهم ثم نادى مناد بينهم ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى صاعه الذى يكيل به ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة ومعنى زعيم أى كفيل.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣] أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال فتيان يوسف لهم: فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة وادعائكم البراءة والنزاهة، قالوا جزاؤه أخذ من وجد فى رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدًا لصاحبه. وقوله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم السابق وتأكيد له بإعادته، ومثل هذا الجزاء الأوفى نجزى به الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا فنحن أشد الناس عقابًا للسرقة. فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم إبعادًا للشبهة وحبك التهمة بطريقة الحيلة ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف وألهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله. وفى هذا

إيحاء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعًا ثابتًا. ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى وما كان له ولا مما تبيحه أمانته لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم فيه وهو لا يبيح استرقاق السارق، مما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التى تبيح ذلك، ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاشاها إلا بوحى من الله، بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى فعل ذلك بإذن الله ووحيه لا إنه هو الذى اخترع هذه المكيدة. ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [يوسف: ٨٦] أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء، وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ أى فوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علمًا وهو فوق كل ذى علم. وخلاصة ذلك أن إخوة يوسف كانوا علماء، إلا أن يوسف كان أعلم منهم. فماذا قالوا ؟!

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ

حرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف ٧٧ - ٨٧].

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف وهذا القول يدل على أن حسدهم ليوسف مازال قائما حتى تلك اللحظة التي قالوا فيها ما قالوا. أما القول الذى أسره يوسف فى نفسه ولم يبده لهم فقوله ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قال ابن عباس: سرق يوسف عليه السلام صنما لجده - أبى أمه - من ذهب فكسره وألقاه فى الطريق، فعيره بذلك إخوته، وقد رواه عنه ابن مردويه مرفوعًا وما ورد عن سرقته لا يدل على أنه سارق بل إنه برىء الساحة نظيف اليدين. ولقد لجأوا بعد ذلك إلى إثارة العاطفة فى نفس يوسف ليرد إليهم بنيامين ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال يوسف بمنطق الحق المبين ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ ولم يقل: من سرق لأن بنيامين لم يسرق فى الحقيقة ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ لو أخذنا البرىء وتركنا من وجدنا متاعنا عنده وعندئذ فقدوا كل أمل فى استرجاع بنيامين ولما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل وقيل يهوذا وهو الذى أشار إليهم بإلقاء يوسف فى البئر عندما هموا بقتله. قال لهم ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ لتردونه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف منه. فلن أفارق هذه البلدة حتى يأذن لى أبى فى الرجوع إليه راضيا عنى ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قبل أن يمكننى من أخذ أخى وهو خير الحاكمين، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بحقيقة ما وقع حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم.

وقوله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق. وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا فى الغيب أنه سرق له شيئا إنما سألنا ما جزاء السارق؟

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ المراد مصر ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أى التى

رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته. قال لهم يعقوب كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: ٨٣].

ثم ترجى الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذى أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إن الله عليم بحاله حكيم فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤] أى أعرض عن بنيه ولقد ذكره حزنه الجديد بحزنه القديم على يوسف وحرك ما كان كامنا ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أى من كثرة البكاء ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف. قال الضحاك: فهو كظيم كئيب حزين أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق.

وعندما رأى أبناء يعقوب ما نزل بأبيهم رقت له أفئدتهم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥] أى ما تزال تذكر يوسف وتحزن بفراقه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك فعلا قال لهم يعقوب عليه السلام بلسان اليقين ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] أى أشكو ما أنا فيه من الهم والحزن إلى الله وحده فهو الملجأ والمصير وهو قوة كل ضعيف وعز كل ذليل وغنى كل فقير وملجأ كل ملهوف، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له، الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر.

أما قوله تعالى ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] ذلك لأنه كان يعلم أن رؤيا يوسف التى رأى فيها أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فى حالة سجود له، لابد من تحقيقها. لكن الأنبياء لا يفقدون الأمل ولا ييأسون من رحمة الله مهما ادلهمت الخطوب واحتدمت الإحن فقد قال يعقوب لأبنائه ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]. قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن

يبحثوا عن أمرهما ولا ييأسوا من الفرج بعد الشدة فإنه لا ييأس من روح الله وفرج الله وما يقدره من المخرج في المضايق، إلا القوم الكافرون.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨-٩٣].

قال المفسرون: إن يوسف عليه السلام لما ذكر له أخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن بفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته الرقة والرحمة والشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم فيقال: رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة فعند ذلك قالوا ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ الاستفهام يدل على الاستعظام أى أنهم تعجبوا من ذلك: إنهم يترددون لأكثر من سنتين وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم ذلك فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ وقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بجمعه بيننا بعد الفرقة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾[يوسف: ٩٠-٩١] يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخَلْق والخُلُق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضا – على قول من لم يجعلهم أنبياء – وأقروا له بأنهم أساءوا واخطأوا فى حقه فقال لهم ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] أى لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقى بعد اليوم، ثم دعا لهم فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢] أى يستر الله عليكم فيما فعلتم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بهذا القميص ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى بجميع بنى يعقوب.

رأى يعقوب فى المنام ملك الموت . . وهو لا يعلم أين يوجد يوسف؟ لا يعلم: أحى هو أم ميت؟ فلما رأى ملك الموت في المنام سأله: هل قبضت روح يوسف؟ فقال له ملك الموت: لا يا نبى الله وإن الله يقول لك إنه لن يقبضه إليه حتى يجمع بينه وبينك. ولكن متى الجمع ومتى اللقاء؟ إنها بشرى تضع معالم خضراء على طريق اللقاء ولكن متى اللقاء وأين اللقاء؟ الله أعلم.

عندما جاء يوسف وقال لهم: ﴿ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ بر الولد بوالده، لم يرض أن يأتى أبوه إليه ضرير العينين، إن نفسه لا تقوى على رؤية أبيه ضريراً. قال أحد إخوته: أنا الذى أذهب بالقميص إلى أبى لأننى أنا الذى ذهبت إليه بقميص الجفاء لما قلت له: فأكله الذئب وإذا كنت أنا الذى ذهبت بقميص الجفاء فلكى أكفر عن ذنْبى أذهب إليه بقميص الشفاء.

وقبل أن يصل الركب إلى فلسطين حيث يعقوب هناك، وبينما الركب فى مدينة العريش قبل أن يخترق الحدود إلى فلسطين إذا بالرياح تحمل ريح يوسف إلى يعقوب قبل أن يصل الركب، فقال يعقوب لأحفاده ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ ولم يقل إلى لأشم ريح يوسف مع أن الريح يشم ولكنه قال: ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ** ﴾ ليقول إن ريح يوسف لم يقتصر على شم وإنما أجده فى جميع جسمى، فى قلبى وفى عينى وفى أذنى وفى فمى وفى أنفى وفى دمى . . . فى كل شىء فىّ. فماذا كانت النتيجة؟ ﴿ **فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا** ﴾ [يوسف: ٩٦]. والمقصود بالبشير هنا هو أحد أبناء يعقوب وقد ألقى القميص على وجه يعقوب فرد الله بصره عليه وهذا قميص الشفاء.

﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أى ألم أقل لكم إن الله سيجمعنى به ويرده إلى، ألم أقل لكم إنى لأجد ريح يوسف؟ ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يوسف: ٩٧، ٩٨].

إنما قال يعقوب: ﴿ **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** ﴾ قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السّحر يقول تعالى: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٧].

كما قال ابن جرير عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ يقول: «حتى تأتي ليلة الجمعة وهو قول أخي يعقوب لبنيه».

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠١].

قال العلامة ابن جرير إن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ثم وصلوا باب البلد قال: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى أجلسهما معه على سرير الملك وسجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً: ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ وقد كان هذا سائغًا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا فى هذه الملة وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى وهذا مضمون قول قتاده وغيره. ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى صحيحة صدقًا يذكر نعم الله ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ أى البادية قال ابن جريج وغيره كانوا أهل بادية وماشية ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أى إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره إنه العليم بمصالح عباده الحكيم فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده.

قوله تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما من الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة وأن يتوفاه مسلماً حتى يتوفاه وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لما التقى يوسف بأبيه يعقوب قال له يا أبت لما أكثرت البكاء عليّ ألم تكن تعلم أننا إن لم نجتمع فى دار الدنيا فسيجمعنا الله يوم القيامة؟

فقال يعقوب: يا بنى أعلم ذلك ولكنى كنت أبكى خوفًا عليك أن تغير دين الإسلام فيفرق الله بينى وبينك يوم القيامة.

إن التقوى والصبر فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ تساوى السعادة، التقوى والصبر تساوى الرفعة والفوز بالجنة. التقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل، والصبر هو الرضا بما قضى الله.

﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٢]. يقول الله تعالى للنبى محمد ﷺ - لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العافية والنصر والمُلك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام وكيف نجاه الله تعالى وحفظه فى المحن التى تعرض لها فى حياته: محنة الفراق، ومحنة غيابت الجب ومحنة المراودة ومحنة السجن وكيف صبر على كل ذلك، وكيف أن يعقوب صبر على فراق يوسف، ثم على فراق يوسف وبنيامين وروبيل وابيضت عيناه من الحزن ثم قابل ذلك كله بالصبر الجميل، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار العهود السابقة نوحيه إليك ونعلمك يا محمد لما فيه من العبرة والاتعاظ لمن خالفك، وما كنت حاضراً عندهم ولا شاهداً لهم ﴿**إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ**﴾ أى على إلقاء يوسف فى الجب وهم يمكرون به ولكنا أعلمناك به وحيا إليك وإنزالاً عليك.

عليك سلام الله يا يوسف، يا جبل الصبر، وعليك سلام الله يا يعقوب يا جبل الصبر، وصدق رب العرش الكريم ﴿**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٠].



أيوب عليه السلام

هو أيوب بن أموص بن أردم بن عيص بن إسحاق عليه السلام فهو من بني إسرائيل وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام، وهو من ذرية إبراهيم قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فالضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام. وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] يقول العلامة ابن كثير: «فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وامرأته قيل اسمها ليا بنت يعقوب، وقيل رحمة بنت أفرائيم وقيل ليا بنت منسا بن يوسف بن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد قصته إن شاء الله قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حدران.

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من

ذلك جميعه، وابتلى في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله تعالى عز وجل بها وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.. ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأموره - رضى الله عنها وأرضاها - وهى صابرة على ما حل بها من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»(١) ولم يزد هذا كله أيوب - عليه السلام - إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره - عليه السلام - ويضرب المثل بما حصل له من أنواع البلايا.

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له؛ كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه فلم يصبر الرجل حتى ذكر له، قال أيوب لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق. قال وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم ابطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً.

---

(١) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ١٠ ص ١١١، باب أشد الناس بلاء.

قال فإنى أنا هو قال وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض»(١)(٢) هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به. وهذا غريب رفعه جداً، والأشبه أن يكون موقوفًا.

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه. أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرّب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك – رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع. قال يا رب ومن يشبع من رحمتك.

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال قال رسول الله ﷺ «بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل «يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى. قال بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك». رواه البخارى من حديث عبد الرازق به(٣).

وقوله تعالى ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينًا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان بجسده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهراً وباطنًا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تامًا ومالاً كثيراً حتى صب له المال صبًا مطراً عظيمًا جراداً من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فقيل أحياهم الله بأعيانهم وقيل أجره فيمن سلف وعوضه عنهم

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢٣ ص ٩٦، تفسير سورة (ص).

(٢) الأندر: كالجرن، والورَق: الفضة.

(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى: «وأيوب إذْ نادى ربه».

في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة. وقوله تعالى ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى رفعنا عنه شدته ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانًا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبى الله أيوب عليه السلام - حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

وقوله ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب - عليه السلام - فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط. فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعنكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث. وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة - رضى الله عنها - ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور.

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة وقيل إنه عاش أكثر من ذلك.

يقول شهيد الإسلام سيد قطب في كتابه « في ظلال القرآن » ما نصه: وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة ومشهورة وهى تضرب مثلاً للابتلاء والصبر ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها، والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب - عليه السلام - كان كما جاء في القرآن عبداً صالحًا أوّابًا، وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعًا ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له، وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد ما يؤذيه الضر والبلاء. فلما حدثته امرأته ببعض هذه

الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينه، قيل مائة، وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ومداخله إلى نفوس خلصّائه ووقع هذا الإيذاء في نفسه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ونفوره من محاولات الشيطان وتأذيه بها أدركه برحمته وأنهى ابتلاءه، ورد عليه عافيته، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ . ويقول القرآن الكريم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

وتقول بعض الروايات: أن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية مما يصلح ذكرى لتروى العقول والإدراك. والمهم في معرض القصة هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه. فأما قسمه - عليه السلام - ليضربن زوجه فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذى حدده فيضربها به ضربة واحدة تجزئ عن يمينه فلا يحنث فيها ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ هذا التيسير وذلك الإنعام كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ . . اهـ.

إننا أمام رجل يكاد رأسه - من رضا الله - أن تطاول السماء، أمام رجل إذا مد يده لرفعها تكاد تقبض على هامات الكواكب. ثمانية عشر عاماً وأيوب - عليه السلام - مريض. قالت له زوجته الوفية - زوجتُه بنت ابن يوسف الصديق عليه السلام - قالت له يا نبيّ الله أما آن لك أن تدعو الله أن يشفيك؟ قالت الزوجة ذلك بلسان الرحمة والشفقة. قال لها أيوب: يا زوجتاه كم سنة قضيتها صحيحاً؟ قالت: سبعين سنة قال: فكم سنة قضيتها مريضاً؟ قالت: ثماني عشرة سنة. قال لها أستحي من الله أن أسأله الشفاء قبل أن يمر على سبعون عاماً. وعندما دعا الله كان الدعاء كله أدباً.. لم يقل لماذا أمرضتني؟ أو لماذا أذهبت عني ما لي وأولادي؟

لم يعترض على ملك الملوك ومالك الملك إنما قال بلسان اليقين، بلسان الأدب: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وجاء الأمر بالشفاء من خالق الأطباء من الله رب العالمين عبر بالمس ليكون في الدعوة أدب ورضا وكان الأمر بصرف الدواء من الله. قال الله له ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ حرك رجلك على الأرض فسينبع تحتها عين ماء اغتسل منها واشرب فإذا فعلت ضاع المرض كله لقد عادت له صحته بفضل الله كأنه في عنفوان الشباب وزهرة العمر عادت الحياة الطبيعية إلى أيوب عليه السلام التي كان يعيشها وشعر بأهله وأولاده ونعم بأسرته التي كانت بالنسبة له كالمفقودة ومتعه الله بصحته وقواه حتى كثر نسله وتضاعف عدد أولاده ورزقه الله من الأموال فضلاً منه ونعمة وإكرامًا لعبده الصالح الطائع وتذكيراً لعباد الله بفضل الله وكرمه لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها، واللجوء إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ أيوب عليه السلام ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العافية وعظيم الإكرام. وشهد الله تعالى لأيوب عليه السلام شهادة تبقى على مر الزمان مظهرة أنه كان في بلائه صابراً ولا تحمله الشدة على الخروج عن طاعة ربه والدخول في معصيته فكان من خيرة خلق الله وعباده مقبلاً على طاعته رجاعًا إلى رضاه، فلم يكن دعاؤه عن تذمر وشكوى وإنما كان لجوءاً إلى الله تعالى الذي بيده مقاليد السماوات والأرض.

وقد كان ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام امتحانًا لإيمانه ورفعًا لمقامه فالإنسان يبتلى في هذه الحياة على قدر إيمانه، ولهذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء. وقد أرشدت الآيات المحكمات على أن التضرع إلى الله والشكوى إليه سبحانه لا ينافي مقام الصبر الممدوح وكما يبتلي الله سبحانه وتعالى بالفقر فيبتلي بالغنى، والمؤمن من يشكر الله في السراء والضراء وأن الإنسان إذا اتقى ربه جعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا كما صنع أيوب عليه السلام وكفى بالله شاهداً وصدق سبحانه حيث قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.



ذو الكفل عليه السلام

قال ابن كثير: قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾.

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضًا في سورة (ص): ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ** ﴾.

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي – عليه من ربه الصلاة والسلام – وهذا هو المشهور.

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد: إنه لم يكن نبيًا وإنما كان رجلاً صالحًا وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم، ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل.

وقال الحسن والأكثرون: إنه من الأنبياء، وهذا أقرب لأنه معطوف عليهم معدود فيما بينهم(١).

وذكر بعضهم أن ذا الكفل هو ابن أيوب(٢).

وقال الدكتور محمد وصفي:

ولا شك أن ذا الكفل كان كغيره من النبيين داعيًا إلى الله وإلى الوحدانية مذكرًا الناس بالموت والحياة البرزخية والبعث والقيامة والحساب والعقاب والثواب وغيرها من العقائد التي أوحى بها إلى النبيين لإرشاد أقوامهم وتعليم الناس ما غاب عنهم من حقائق الدين، ودعوتهم إلى الإيمان بالغيب(٣).

---

(١) تفسير غرائب القرآن جـ١٧ ص ٤٨.

(٢) البداية والنهاية جـ٢ ص ٢٢٥.

(٣) الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل ص ١٣٨ للدكتور محمد وصفي.

يونس بن متى عليه السلام

قال الله تعالى في سورة (يونس): ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٨].

وقال تعالى في سورة القلم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

قال البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**(١).

قال أهل التفسير(٢): بعث الله يونس - عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه وتمردوا واستمروا على عنادهم وكفرهم

---

(١) صحيح البخاري جـ٤ ص ١٩٤.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير جـ١ ص ٣٩٠.

فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا إليه، تمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشى، فرغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم سببه ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم. ولهذا قال تعالى ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أى هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] وقوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى آمنوا بكمالهم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة واختلفوا فى الزيادة: فعن مكحول عشرة آلاف. وروى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية: حدثنى أبى بن كعب، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفًا»(١).

وعن ابن عباس: كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا، وعنه: وبضعة وثلاثين ألفًا، وعنه وبضعة وأربعين ألفًا.

وقال سعيد بن جبير: كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا.

واختلفوا: هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده؟ أو هما أمتان؟ على ثلاثة أقوال: وهى مبسوطة فى تفسير ابن كثير.

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، وقال حديث غريب.

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه ركب سفينة في البحر فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون. قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه. فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا لما يريده الله به من الأمر العظيم. قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقى في البحر وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس له برزق فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل إنه ابتلع ذلك الحوتَ حوتٌ آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حى فخر لله ساجداً وقال: يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله. وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه فقال مجاهد عن الشعبى: التقمه ضحى ولفظه عشية، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق: سبعة أيام. وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك مكث في جوفه أربعين يومًا. والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى فسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى. فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ** ﴾ أى إلى أهله ﴿ **مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] ﴿ **فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أى

نضيق عليه وقيل معناه: نقدر من التقدير وهى لغة مشهورة ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وقال سالم بن أبى الجعد: ابتلع الحوتَ حوتٌ آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] قيل معناه فلولا أنه سبح الله هنالك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت. هذا معنى ما روى عن سعيد بن جبير فى إحدى الروايتين عنه. وقيل معناه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدى وعطاء بن السائب والحسن البصرى وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا غلام إنى معلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»**(١).

روى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما. فلما انتهى به أسفل البحر سمع يونس حساً فقال فى نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال فسبَّح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدى يونس. عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح؛ الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾(٢). ومعنى ﴿أَبَقَ﴾ فى الآية الكريمة ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد فى مسنده (مسند أبى عباس) ج١ ص٣٠٧.

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، وانظر الطبرى ج٧ ص٦٥ بلفظه.

هاجر بغير إذن ربه. ومعنى ﴿فَسَاهَمَ﴾ أى فقارع من في الفلك أى عمل قرعة. ومعنى ﴿الْمُدْحَضِينَ﴾ أى المغلوبين بالقرعة. ومعنى ﴿مُلِيمٌ﴾ أى فاعل ما يستحق عليه اللوم، ومعنى ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس أرض ليس بها نبت ولا بناء ومعنى ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى ضعيف البدن. ومعنى ﴿يَقْطِينٍ﴾ قال غير واحد من السلف: هو القرع وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيأ ومطبوخًا وبقشره وببذره أيضًا وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

وقد قال ابن أبى حاتم عن أنس: إن يونس عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: ﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، فقال أما تعرفون ذاك؛ قالوا يارب ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل نرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة؟ قالوا ياربنا أولا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه في البلاء قال: بلى فأمر الحوت فطرحه في العراء[1].

وروى ابن جرير عن أبى هريرة أنه قال: طرح بالعراء (أى الخلاء) وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة: وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: هيأ الله له أروية[2] وحشية تأكل من حشاش الأرض أو قال من هشاش الأرض قال فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت[3].

وقال أمية بن أبى الصلت في ذلك بيتًا:

فأنبت يقطينا عليه برحمة ... من الله لولا الله أصبح ضاويًا

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا. قال

---

(١) انظر الطبرى ج٢٣ ص ٦٤.

(٢) الأروية: إناث الوعول.

(٣) انظر الطبرى ج٢٣ ص٦٦.

ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى: دعوة يونس بن متى»** قال: فقلت يا رسول الله: هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: **«هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به»**(١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد، عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب -يعنى ابن سعد- عن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دعا بدعاء يونس استجيب له»** قال أبو سعيد الأشج: يريد به: **﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

وهذان طريقان عن سعد وثالث أحسن منهما، قال الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص: «مررت بعثمان بن عفان فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىّ السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين: هل حدث فى الإسلام شىء؟ قال: لا. وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىّ السلام قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت بلى، حتى حلف وحلفت. قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى آنفا، وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا، والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: **«من هذا؟ أبو إسحاق؟»** قال: قلت نعم يا رسول الله قال: **«فمه؟»** قلت لا، والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: **«نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت**(٢) **﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ**

---

(١) انظر الطبرى ج٧ ص ٦٥ بلفظه.

(٢) الحديث فى سنن أحمد ج١ ص ١٧٠ بلفظه.

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له». رواه الترمذى والنسائى من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد.

يقول الدكتور محمد وصفى فى كتاب «الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل»: ذكر الله فى القرآن أن يونس رسوله، وأنه أوحى إليه وأنه نادى بالتوحيد وتدل قصته فى كتاب الله على أنه تاب عن ذنبه وأنه استغفر ربه وأن الله سمع له وتاب عليه.... واستقرار يونس عليه السلام فى بطن الحوت ثم خروجه سالما يدل على وجود المعجزة فى رسالته وفى قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾** فيه تصريح بوجوب الإيمان برسالة الرسل، وطبيعى أن يونس حكى لقومه ما أخبرنا به الله تعالى من أنه سبَّح ربه وهو فى جوف الحوت وأنه لولا ذلك للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون وهو ما يدل على أنه حمل فى رسالته عقيدة البعث والحساب واليوم الآخر، وإلقاء يونس فى الماء والتقام الحوت له يشير إلى عقيدة الابتلاء والامتحان والفتنة، وإنبات شجرة اليقطين يشير إلى قدرة الله فى خلقه، وذكر الله أن قوم يونس آمنوا أى آمنوا بوحدانية الله ... وهو قول الله تعالى: **﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** .. أ.هـ.

قال الإمام أحمد عن أبى وائل عن عبد الله قال رسول الله ﷺ: **«لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**(١)

صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.



(١) انظر مسند أحمد (مسند عبد الله بن مسعود).

شعيب عليه السلام

جاء شعيب عليه السلام بعد زمن لوط عليه السلام فقد كان شعيب يقول لقومه ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وأما عن نسب شعيب فقد قال عطاء وابن إسحاق وغيرهما أن شعيبًا هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم، وقيل إنه ابن عيفاء ابن يوبب بن مدين بن إبراهيم، وقيل إنه ابن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم(١).

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة مسلمة بن سعد العنزى: أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب إلى عنزة، فقال: «**نعم الحى عنزة؛ مبغى عليهم منصورون قوم شعيب وأختان موسى**» أىْ أصهار موسى. فلو صح هذا لدل على أن شعيبا صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال له عنزة. والله أعلم.

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**» وروى ابن إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبا قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**». يقول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) الجامع لاحكام القرآن جـ٧، ص٢٤٧ وجامع البيان جـ٨، ص١٦٦.

﴿الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٧].

بعث الله نبيه شعيبا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلى أهل مدين الذين طغى عليهم المال فطففوا المكيال والميزان وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة -وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان فيأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله الواحد ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم فأحل الله بهم العذاب الشديد.

لقد عرض نبي الله شعيب على قومه المنهج الرباني العظيم، قال يا قوم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ومن مبدأ التوحيد والعقيدة يكون المنطلق إلى التشريع والتوجيه، فمن عبد الله وحده فقد عرفه، ومن عرف الله فقد اتقاه ومن اتقى الله فقد خاف من الجليل، وعمل بالتنزيل، ورضي بالقليل وأعد الزاد ليوم الرحيل. يقول شعيب بعد ذلك لقومه ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لقد قامت الحجج والبراهين على صدقي وعصمتي من الكذب، فأوفوا الكيل والميزان فإن المعاملة هي الركن العظيم في الدين. ثم نهاهم عن البخس فقال ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم حقهم، فإن البخس ضرب من ضروب الظلم، والظلم مرتعه وخيم، والظلم ظلمات يوم القيامة فالحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع، والظلم لا يدوم وإذا دام دمر. ثم ينهاهم عن الإفساد في الأرض ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وهذا محور الارتكاز لكل مجتمع فالإفساد له صور كثيرة، فالظلم إفساد، والرشوة إفساد، والربا وسفك الدماء وهتك الأعراض والاعتداء على الناس كل ذلك إفساد. ثم يقدم النصح لقومه في صورة كريمة فيقول ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

قيل لأعرابي: لم آمنت بمحمد؟ فقال: لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر، ولم ينه عن شيء وقال العقل: ليته ما نهى.

إنه نداء الفطرة ومنطق الحق المبين. فإذا كان الإفساد شرا كله فإن الإصلاح خير

كله وقد جاء ذلك مفصلا فى سورة هود قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤- ٨٦].

وفى سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٨٤].

وفى سورة الأعراف ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق على الناس فإن للطريق حقًا، بينه السيد الجليل محمد ﷺ فى قوله: «**فإن أبيتم إلا الجلوس فى الطرقات فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: كف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وغض البصر**»(١)

يقول لهم شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾. أى تخوفون الناس وتهددونهم، ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى تريدون الدعوة إلى الله معوجة بعد استقامتها، لصد الناس عنها وتهديدهم وتخويفهم منها. ثم يذكرهم بنعم الله فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ والكثرة فيها القوة وهى نعمة، ثم يحذرهم من عاقبة المفسدين من الأمم السابقة التى أهلكها الله فيقول: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وفى سورة هود يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ

---

(١) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٢)، ومسلم فى اللباس (١١٤)، وفى السلام (٢، ٣)، والإمام أحمد فى (٣:٣٦، ٤٧).

نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٩، ٩٠].

وفي سورة الأعراف يقول لهم بعدما عانى من عنادهم وصبره على إيذائهم ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. حتى الأمر بالصبر لم يمتثلوا له ولم يرضوا به إن الرسل قالوا لهم ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، قال لهم أهل الضلال والبهتان والظلم والطغيان ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

[إبراهيم: ١٣- ١٥].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٨٨-٩٣].

لم يصبر قومه حتى يحكم الله بل قالوا له متهكمين ساخرين ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٧، ٨٨]، وقالوا له كما جاء في سورة الشعراء ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ

عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٧]. وفى سورة الأعراف **﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾** [الاعراف: ٨٨].

خيروه بين أمرين: الإخراج من القرية، أو الدخول فى ملة الكفر **﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾** أى أترغموننا على ذلك ولو كنا كارهين، إن الدخول فى الكفر أمر محال دونه ضرب الرقاب **﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾** أبعد النجاة وإنعام الله علينا بالتوحيد والتزام الصراط المستقيم، والسير فى طريق الهدى والنور ندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا **﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾** [الأنعام: ٧١]. **﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾** هذا تفويض مطلق للمشيئة العليا فالوجود ملك الله والقضاء حكمته، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه واحد بلا عدد وقائم بلا عمد وباقٍ بلا أمد، علا فقهر، وبطن فخبر، وملك فقدر، يقص الحق وهو خير الفاصلين أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا. **﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾** أى احكم بيننا وبين هؤلاء فأنت أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين، لا راد لقضائك ولا معقب لحكمك. **﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾** ترصد وسبق إصرار على الجناية، وسفه وعناد وبطر للحق وتصميم على الباطل وتحريض على دعوة الله، إذًا لقد بلغ السيل الزبى ولم يبق فى قوس الصبر منزع فلابد من كلمة الفصل ولا يملك كلمة الفصل إلا الحكم العدل: **﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾** رجت الأرض رجا، لأنهم أرجفوا المؤمنين وهددوهم وأوعدوهم، فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل، لقد أصبحوا فى دارهم أجسادا هامدة **﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾** كأنهم لم يكونوا مقيمين فى تلك الديار، أما الذين اتبعوا شعيبا فهم المفلحون الفائزون الناجون المؤمنون المتقون وأما **﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾** وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه، بعذاب فى الدنيا والآخرة وكانت نهاية المأساة أن يقول شعيب -وقد أصبحت ديارهم خاوية على عروشها **﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ**

أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾ كلمة تسيل لها النفس مرارة وتتفتت لها الكبد حسرة ولقد قالها الرسول ﷺ لصناديد قريش وجبابرة المشركين بعد أن وضعت أجسادهم في القليب بعد بدر قال لهم: «**لقد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ بئس عشيرة النبي أنتم كنتم لنبيكم**» قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا. قال: والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إنهم يسمعون، ولكنهم لا يتكلمون».

وفي سورة هود يقول الله تعالى في شأن أهل مدين ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾ [هود: ٩٤-٩٥] كانت الرجفة من الأرض، فأتبعتها الصيحة من السماء.

وفي سورة الشعراء يقول الله عز وجل في حق مدين: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [الشعراء: ١٨٩- ١٩١]. وذلك لأنهم كذبوا شعيبا عليه السلام وطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفًا من السماء، فأرسل الله إليهم سحابة دكناء استظلوا بها من وهج الشمس وهي تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية، وقد سال فيها لعاب كالمهل يشوي الوجوه، فإذا السحابة لا ظل فيها، لقد أمطرتهم ناراً ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ فاعجب معي أيها القارئ الكريم لرجفة وصيحة وعذاب يوم عظيم. اللهم قنا واصرف عنا شر ما قضيت.

يقول العلامة ابن كثير:

«كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز قريبة من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين مدينة عرفت بالقبلية وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل....

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات وصنوفًا من المثلات وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة

أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها؛ في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون في ملتهم راجعين. فقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب هذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق. وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم. وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريبا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى وهو السميع العليم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿ إلى مدين أخاهم شعيب ﴾ .

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة

فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن.

فأما الحديث الذى أورده الحافظ بن عساكر فى ترجمة النبى شعيب عليه السلام من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن شفيق بن أبى هلال، عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعا **«أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبى عليه السلام»** فإنه حديث غريب وفى رجاله من تكلم فيه مالا شبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، مما أصابه يوم اليرموك من أخبار بنى إسرائيل. والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف فى الميكال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر فى كل موضع ما يناسب من الخطاب.

ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس: أن شعيبا عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام. وعن وهب بن منبه أن شعيبا عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوة ودار بنى سهم». (١)



(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط ص٢٨٨- ص٣٠٠.

موسى عليه السلام

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن الكريم وذكرت قصته فى مواضع متعددة مبسوطة فى كتاب الله فى سورة البقرة، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والسجدة، والصافات، وغافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والذاريات، والصف، والنازعات.

ولا تكرار فى القصص القرآنى إذ إن المتتبع للقصص القرآنى يجد أن أحداثه كلها تقريبًا تدور فى محيط الدعوة إلى الله وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحد الخالق، رب العالمين ولذلك كانت دعوات الأنبياء هى الشخصية الغالبة فى القصص القرآنى بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال: قصة يوسف، وقصة موسى، وقصة يونس وهكذا.. فلو كانت الشخصية - لا الحادثة - هى مناط القصة ودافعها الأصلى لجاءت قصة كل نبى أو كل شخصية غير نبى فى موضع واحد من القرآن، فى سورة أو بعض سورة.. ولما كان هناك داع لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن، ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة - لا الشخصية - هى محور القصة لم نجد هذا التمزق فى الشخصيات وإنما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة كاملة وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من حدث وفى أكثر من موقف مع تباعد الزمان والمكان. كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها إلى بعض فى مساق واحد، وفى عرض متصل فى سورة أو بعض سورة! وهذا ما نجده فعلاً فى القصص القرآنى ففى أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء حيث تتماثل الأحداث وتتشاكل الوقائع، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة وفى هذا

الجمع ما يعطي دلالة واضحة مؤكدة لما في الإنسان من عناد وكنود، وأن الإنسان هو الإنسان حيث اختلف زمانه ومكانه.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة القصص:

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٣ - ٦].

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا فذكر سبحانه أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له **﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾** أي تكبر وتجبر وطغى وجعل أهلها أصنافًا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته **﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾** يعني بني إسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في إشغاله وإشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقاراً وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكان القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لايؤخر. فالله تعالى يقول: **﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾** [يس: ٨٢] ويقول سبحانه: **﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾** [الرعد: ٣٨] في هذه الآية يعرض علينا

الكتاب العظيم الصحيفة الجنائية لطاغية من طغاة الأرض فقد أتى أفعالاً جساماً. علا فى الأرض واستكبر حتى قال: أنا ربكم الأعلى. وقال: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ثم التفرقة بين الرعية. يستضعف طائفة منهم. ثم سفك الدماء بغير حساب وإزهاق الأرواح البريئة بغير ما جرم ولا ذنب يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. ثم: يمركز تلك الجنايات وغيرها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكلمة المفسدين تتسع لوجوه الفساد والشر وهكذا أطلقها القرآن الكريم لتذهب النفس فيها كل مذهب.

وأراد ربك ولا راد لما أراد وقضى وإذا قضى فلا نقض لقضائه ولا استئناف، وإذا حكم فلا معقب لحكمه. بماذا حكم سبحانه وماذا أراد. قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال جل شأنه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ – ٥٩].

أراد فرعون بجبروته وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة المالك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يدى الغلام الذى احترز من وجوده وقتل بسببه ألوفاً من الولدان، والذى رباه فى داره وعلى فراشه فكان حتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه. إن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ

لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٧ - ٩].

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يُفْنِى بنى إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت المرأة جارية تركتها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا - قبحهم الله تعالى. فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعًا وخافت عليه خوفًا شديداً وأحبته حبا زائدا. وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩]. فلما ضاقت به ذرعًا ألهمت فى سرها وألقى فى خلدها ونفث فى روعها كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وخشين أن يعاقبن فى فتحه دونها، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدواً لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ وفرعون لما رأى موسى هَمَّ بقتله خوفًا من أن يكون من بنى إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فرعون أمَّا لَكِ فَنَعم وأمَّا لى فَلاَ. فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه. وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ من كل شأن من شئون الدنيا بل أصبح شغلها الشاغل وليدها الرضيع الذى ألقته بين معترك الأمواج وحسبك أن تعلم أن للأم قلبًا أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم سداه الرحمة ولحمته الرأفة.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها. ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها فقالت لها ﴿قُصِّيهِ﴾ أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قال ابن عباس: عن جانب، وقال مجاهد: بصرت به عن جنب عن بعيد، وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليها المراضع التى فى

دارهم فلم يقبل منها ثديًا وأبى أن يقبل شيئًا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أى تحريمًا قدريًا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببًا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ قالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها. ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لى بعلاً وأولادًا ولا أقدر على المقام عندك ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت فأجابتها آسية - امرأة فرعون - إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنًا فى عز وجاه ورزق دار. ولهذا جاء فى الحديث:

«مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»(١) ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجًا وبعد كل ضيق مخرجًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أى به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أى عليه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى فيما وعدها

(١) الحديث بمعناه فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٨١٤٣ بلفظ: «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» من رواية أبى داود فى مراسيله والبيهقى فى السنن الكبرى عن جبير بن نفير مرسلاً ورمز له بالصحة.

من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعًا وشرعًا .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هي المحمود عليها في الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريهًا إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

ولما بلغ موسى أشده أي قوي عوده واستوى على سوقه آتاه الله النبوة والحكمة والعلم الغزير والعمل الموفق ومثل ذلك الجزاء الحسن يجزي الله المحسنين وأهل فضل : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران : ٧٤]. فسبحانك من إله منعم متفضل .

يقول العلامة ابن كثير : « لما ذكر تعالى أنه أنعم على أم موسى برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخَلْق والخُلُق وَهُوَ سن الأربعين في قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا وهو النبوة والرسالة التي كان بُشر بها أمه حين قال سبحانه : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتي . . » .

قال تعالى ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ دخل مصر آتيا من عين شمس في وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة وروى أنه دخلها مستخفيًا من فرعون وقومه، لأنه كان قد خالفهم في دينهم وعاب ما كانوا عليه :
﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ وجد موسى عليه السلام رجلين في مصر أحدهما من بني إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ

فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطبًا للمطبخ فأبى فطلب الإسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه ومع هذا قال موسى إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته: ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ فهو عدو وينبغى الحذر منه، بندم موسى على قتله نفسًا لم يؤمر بقتلها بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ ظلمت نفسى بقتل نفسٍ لا يحل قتلها فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت. قال قتادة: «عرف والله المخرج فاستغفر». ثم ذكر سبحانه أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه بعدئذ ذكر ما هو العلة لما قبله فقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه المتفضل عليه بالعفو عنها الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ورجع عن حوبته. ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ قال رب اعصمنى وبحق ما أنعمت على بعفوك على قتل هذه النفس لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ولن أكون معينًا للمشركين فأصبحهم وأكثر سوادهم وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون وقد يكون المراد: لأمتنعن عن مظاهرة من تؤول مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به ونحو الآية قوله: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود: ١١٣].

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفًا – أى من فرعون وملئه – من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره، وأمر القبطى، وما هم بالغوه به وداخَلَتْهُ الهواجس خيفة أن يقتلوه به وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى: إنك لذو غواية وضلال لا شك فيه، وقد

تبينت ذلك بقتالك أمس رجلاً واليوم آخر ثم دنا منهما: ﴿ **فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ** ﴾ ثم زاد الإنكار توكيدًا فقال: ﴿ **إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ أي: ما تريد إلا أن تكون قاهراً عاليًا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى وقد بلغ فرعون أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل فى طلبه وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ** ﴾ ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم يسرع للحاق بموسى خوفًا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال: يا موسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد وينصبون لك الحبائل يريدون أن يقتلوك فالبدار البدار والهرب الهرب قبل أن يقبضوا عليك وينفذوا ما دبروه ويقتلوك فاخرج من المدينة مسرعًا وإنى لك لناصح أمين؛ فانتصح بنصحه وتقبل قوله: ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾ خرج من مدينة فرعون خائفًا يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينًا ويسارًا وينظر أيتبعه أحد؟

ثم لجأ إلى الله تعالى - علمًا منه أن لا ملجأ إلا إليه - ﴿ **قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل ومن لا يجرم إلى أحد فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾.

لما اتجه نحو مدين ماضيًا إليها شاخصًا عن مدينة فرعون قال: رب اهدنى إلى سواء السبيل وأرشدنى إلى الطريق القويم ونجنى من هؤلاء الظلمة، قال هذا توكلاً على الله وثقة بحسن توفيقه وقد كان لا يعرف الطريق فعن له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرين وقالوا: المريب لا يسلك أعظم الطريق بل يأخذ بنياتها - أضيقها غير المشهور منها - وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو

حاف لا يطعم إلا ورق الشجر إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها ثم ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٣]. لما وصل موسى عليه السلام إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرده رعاء الشاء فوجد جماعة منهم يسقون نعمهم ومواشيهم ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها فلما رآهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما قال: ما خبركما ولم لا تردان الماء مع هؤلاء القوم؟ فأجابتاه: قالتا لا نسقي غنماً إلا إذا فرغ هؤلاء من السقي وأبونا شيخ كبير لا يستطيع السقي بنفسه فنحن نلجأ إلى ما ترى نشرب مواشينا فضل الماء. ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٤]. سقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلاً: : إني لمحتاج إلى شيء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك. روى عن ابن عباس أنه قال: «لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع». فجاء الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه: ﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [القصص: ٢٥].

جاءته إحدى ا لمرأتين تمشي مشي الحرائر وقد سترت وجهها بثوبها قائلة إن أبي يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف بسقي غنمنا صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ولما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه عن فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم - بعد الذي علمه - قال له: لا تخف من حولهم وطولهم، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة إذ لا سلطان لهم علينا، ولسنا في دائرة ملكهم، ولما آمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ قالت إحدى ابنتي هذا الرجل - قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ** ﴾ أي: لرعيه هذه الغنم.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وقتادة وغير واحد لما قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ قال لها أبوها وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى: كونى من ورائى فإذا اختلف على الطريق فاحْذفى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] طلب الشيخ الكبير إلى موسى أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين – وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل إن وجده صالحًا – على أن يرعى غنمه ثمانى سنين فإن تبرع بزيادة سنتين فهو إليه وإلا ففى الثمانى كفاية: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك. وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية قال له موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] قال موسى لصهره: الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان على – أى فلا حرج على – والله على مقالتنا سامع وشهيد ووكيل على وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة. وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما**» الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٤٦٠٩ بلفظه.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

لما قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ وكان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة

باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك وبينما هو كذلك ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ رأى نارًا تضيء على بعد: ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ امكثوا حتى أذهب إليها ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد ضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أى قطعة منها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى تستدفئون بها من البرد. ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] نودى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ﴾ فهذا يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربى عن يمينه والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتًا فى أمرها فناداه ربه: ﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ التى فى يدك كما قرره على ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٨]. أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أى بلى هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وهذا برهان قاطع على أن الذى يكلمه هو الذى يقول للشيء كن فيكون وأنه الفعال لما يُريد.

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أى تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ فى حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها عند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله تعالى له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ رجع فوقف فى مقامه الأول، ثم قال الله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ

﴿غَيْرِ سُوءٍ﴾ إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ولهذا قال تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى من غير برص.

وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: أى من الفزع. وقال ابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وَهُوَ يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد قال: كان موسى عليه السلام قد ملئ قلبه رعبًا من فرعون فكان إذا رآه قال: اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره فنزع الله ما كان فى قلب موسى عليه السلام وجعله فى قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

[القصص: ٣٢].

إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخال يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع إنهم كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه. ولما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذى إنما خرج من ديار مصر فرارًا منه وخوفًا من سطوته: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعنى ذلك القبطى ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] إذا رأونى ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان فى لسانه لثغة ولهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٧ - ٣٥] أى يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى

هذا الملك العنيد ولهذا قال: ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]. أى أرسله معى عونًا يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد ولهذا قال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ سنقوى أمرك ونعز جانبك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبيًا معك كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]. ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام فإنه شفع فيه حتى جعله نبيًا ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال الله تعالى فى حق موسى عليه السلام: ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

[الأحزاب: ٦٩].

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى حجة قاهرة ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أى لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾.

ثم يخبر تعالى عن مجىء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [القصص: ٣٦، ٣٧] بعد ما جاءهم موسى بهذه المعجزات قالوا ما هذا إلا سحر مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صمد معهم ذلك وقالوا ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ولم نر

الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام مجيبًا لهم ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ ﴾ يعني مني ومنكم وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال: ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ المشركون بالله عز وجل.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٨ – ٤٢].

يخبر الله تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة – لعنه الله – كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤] وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وقال تعالى إخبارًا عنه: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣ – ٢٦] لقد جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحًا بذلك فأجابوه سامعين مطيعين فانتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ويتظاهر فرعون بالجد في معرفة الحقيقة والبحث عن إله موسى وهو يلهو ويسخر: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لقد أمر فرعون ووزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ليبني له الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال الله في

الآية الأخرى ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] أى فى قوله إن هناك ربًا غيرى لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه القائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾. لقد طغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ** ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** ﴾ أى أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ** ﴾ لقد اجتمع عليهم خزى الدنيا موصولاً بذل الآخرة ﴿ **وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً** ﴾ أى وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ** ﴾ قال قتادة وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ[1] الْمَرْفُودُ** ﴾ [هود: ٩٩].

ويذكر الله تعالى فى سورة الشعراء ما كان بين فرعون وموسى عليه السلام من المقاولة والمحاجة والمناظرة فيقول سبحانه:

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٣٣].

وقال الله تعالى فى سورة طه مخبراً عن فرعون: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ**

(١) الرفد: العطاء.

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٤٩ – ٥٥].

لقد أظهر فرعون – قَبَّحه الله – أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى وزعم أنه الإله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] وهو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] ولهذا قال فرعون لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم رب أرسله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ والكلام لموسى وهارون فأجابه موسى: إنه سبحانه وتعالى رب العالمين خالق هذه السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات المتعددة من السحاب والرياح و المطر والنبات وكل الكائنات التى لا بد لها من خالق قادر هو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين. وقال فرعون: ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من أمرائه ووزرائه على سبيل التهكم: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعنى كلامه ﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطبًا له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ لكن فرعون استمر على طغيانه وكفرانه ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ اتهمه بالجنون لكن موسى عليه السلام يواصل حجته: ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى هو المسخر لهذه الكواكب المسير للأفلاك خالق الضياء والظلام رب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين رب الشمس والقمر الكل تحت قهره وتسخيره فهو سبحانه المتصرف فى خلقه بما يشاء.

بعد ذلك لم يبق لفرعون سوى العناد فعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . والعصا واليد كانا البرهانين اللذين أيده الله بهما.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٦ - ٧٩].

ولقد أطلعناه على الآيات فرآها رأى العين فماذا كان موقفه؟ كذب بالآيات وأبى الإذعان للحق وهنا مكمن الداء وعلة العلل فالتكذيب بآيات الله هو الطامة الكبرى، وبطر الحق هو المصيبة العظمى وهل أهلك الله الأمم إلا بعد تكذيبها وإبائها قبول الحق.

لقد كان فرعون يعلم أن هذه الآيات ليست من صنع البشر إنما هي من صنع

خالق القوى والقدر لكنه لج فى عتوه ونفوره كما هى عادة أهل الباطل قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فسمى المعجزات سحرًا، مع أنها حقائق، أما السحر فتخيلات وأوهام، تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وما كان موسى يسعى أبدًا إلى إخراج فرعون من أرضه، إنما أراد أن يخرجه من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد. لقد قال له ذات يوم: يا فرعون آمن بالله ولك ملك مصر فى الدنيا ولك الجنة فى الآخرة، وأوشك فرعون أن يقتنع لكنه أمهل موسى حتى يستشير هامان وبئس المستشار هو، فقال له هامان: أضحك عليك موسى؟ أبعد ما كنت إلهًا معبودًا تصير عبدًا عابدًا: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

فماذا قال لموسى؟ قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾. اختار تحديد الزمان والمكان بل على أرض مبسوطة لا يمنع الرؤية فيها مانع حتى يرى الناس جميعًا قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيد لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أى والشمس فى شبابها بحيث يكثر اجتماع الناس حتى يكون هذا اليوم يومًا مشهودًا. وشرع فرعون فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر فى ذلك الزمان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] واجتمع الناس لميقات يوم معلوم، وهو يوم الزينة وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئًا على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقفت السحرة بين يدى فرعون صفوفًا وهو يحرضهم ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم.

يقولون: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]. فقال لهم موسى محذرًا: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها فتكونون قد كذبتم على الله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى يهلككم بعقوبة، فيستأصلكم ويبديكم: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول:

ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي وقائل يقول: بل هو ساحر. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ وبالغوا في حديث يدور بينهم سرًا فماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ خبيران بأمور السحر: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ وذلك إذا انتصرا وكانت لهما الغلبة واتبعهما الناس فإنهما عندئذ سيذهبان بطريقتكم المثلى ومذهبكم الأفضل كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] بعد أن قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا موسى وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ منا ومنه أما نحن فقد وعدنا فرعون العطاء الجزيل وأما موسى فينال الرياسة العظيمة ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لقد قال السحرة لموسى: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أي أنت أولا: ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية أمرهم. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد. بحيث يخيل للناظر أنها تتحرك باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمعًا كثيرًا فألقى كل منهم عصا وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ لقد خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه فأوحى الله تعالى إليه أن ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ يعني عصاك فإذا هي تلقف ما صنعوا وذلك أنها صارت ثعبانًا عظيمًا هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جهرة نهارًا ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع

الحق، وبطل السحر ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فماذا قال السحرة بعد ذلك؟ إنهم لما عاينوا ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشيء كن فيكون فعند ذلك وقعوا سجداً لله وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وسبحانه مقلب القلوب، لقد أقسموا فى الصباح بعزة فرعون وقالوا إنا لنحن الغالبون وفى المساء قالوا لفرعون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ وأقسموا بالله قائلين: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ كانوا وقت الضحى سحرة كفرة فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

فماذا قال فرعون؟ لقد جُن جنونه وثارت ثورته واشتاط غضباً وهدد وأوعد وأرغى، وأزبد، وأبرق، وأرعد، لقد عبس وبسر واستعمل كل آلات التنكيل منكراً عليهم إيمانهم بالله الواحد الحق: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ كأن الإيمان حكر عليه ومن لم يستأذنه فهو خارج عن حدود الطاعة، فله الويل والثبور وعظائم الأمور ونسى أن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلاً. لقد هددهم بقطع الأيدى والأرجل من خلاف. فليفعل ما يشاء.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ولن نختارك على ما ظهر أمامنا من آيات الحق، وأقسموا بالله الذى فطرهم وخلقهم وقالوا له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ وفى التعبير بالاسم الموصول أى فاقض بالذى أنت قاضيه ما يفيد العموم، إن شئت فاقطع الأيدى والأرجل وإن شئت فاقطع الرقاب وإن شئت فافعل ما تشاء ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وفى التعبير باسم الإشارة (هذه) ما يفيد أن الدنيا عرض زائل: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ فنحن براء من سحرك وباطلك وزيفك لقد قال لهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ فقالوا له: ﴿والله خير وأبقى﴾.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾، هكذا مصير كل من أنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، إن كان مجرما فإن له جهنم لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة طيبة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء: ٥٧] قال تعالى ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ فالجنة درجات والنار دركات والمنافقون في الدرك الأسفل من النار والمؤمنون لهم الدرجات العلى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حيث لا موت فقد انتهت الدنيا وبدأت الآخرة فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة، ودخل أهل النار النار، نادى مناد بين الجنة والنار يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت.

إن أهل الجنة استحقوا هذا النعيم لأنهم تطهروا من الرجس والدنس فخلصت نفوسهم بالأعمال الصالحة وزكت بذكر الله وتلاوة القرآن ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسرى بهم في الليل ويذهب بهم من قبضة فرعون. ولما جمع فرعون جنده ساق في طلبهم فاتبعوهم عند طلوع الشمس ووقف موسى عليه السلام ببني إسرائيل البحر أمامهم وفرعون وراءهم فأوحى الله إليه أن اضرب لهم طريقا يبسا فضرب البحر بعصاه وقال: انفلق علي بإذن الله، فانفلق فكان كل فرق كالجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أي من فرعون ﴿ وَلا تَخْشَىٰ ﴾ من البحر أن يغرق قومك

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى من البحر ما غشيهم، ففى التعبير بالاسم الموصول فى قوله ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ما يفيد التضخيم والتهويل أى أن الذى غشيهم حدث عنه ولا حرج، فقد كان الخطب جسيما والعذاب أليما، جزاء ما قدمت أيديهم فالظلم لا يدوم، وإذا دام دمر، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع وتلك عاقبة الظالمين.

حال فرعون بعد أن آمن السحرة:

قال محمد بن إسحاق: رجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه بالآيات فأخذه بالسنين فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع، ثم الدم آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] فدعا موسى ربه فكشفه عنهم. فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل عليهم القمل، فذكر لى أن موسى عليه السلام، أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل العظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار. فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه فلما جهدهم ذلك قالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دما، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما. وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرعاف رواه ابن أبى حاتم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

معجزات كليم الله موسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقد اختلفوا في المراد من هذه التسع:

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس أنها: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات.

وقيل: المراد بالآيات الأحكام فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجة أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى النبي فنسأله، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فقال النبي ﷺ: **«لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرئ إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت، فقبلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا: إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود»**(١).

وقد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام

١- أنه أزال العقدة من لسانه، أي أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً

٢- انقلاب العصا حية.

٣- تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان: ٣٣ والإمام أحمد في ٤: ٢٣٩، ٢٤٠.

٤- اليد البيضاء.

٥- الطوفان.

٦- الجراد.

٧- القمل.

٨- الضفادع.

٩- الدم.

١٠- شق البحر.

١١- انفلاق الحجر فى قوله تعالى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

١٢- إظلال الجبل فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

١٣- إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه.

١٤، ١٥- الجدب ونقص الثمرات فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]

١٦- الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] قال ابن عباس ومجاهد: أى أهلكها وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم صارت حجارة.

نصيحة مؤمن آل فرعون:

يقول العلامة ابن كثير:

لما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك إلا كفرا وعنادا وبعدا

عن الحق ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

لقد حرض الملأ من قوم فرعون -وهم الأمراء والكبراء- حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به، بالكفر والرد والأذى. قالوا: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ يعنون -قبحهم الله- أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط.. ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلهم ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أي غالبون. ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقولهم ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩].

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه قال ابن جريج قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون. رواه ابن أبي حاتم. والمقصود أن هذا الرجل كان

يكتم إيمانه فلما هم فرعون -لعنه الله- بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب قال ﷺ **«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»**. قال فرعون أى فى جوابه هذا كله ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ**﴾ أى ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ وكذب فى كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغيا وعدوانا وعتوا وكفرانا وأما قوله ﴿**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخبال؛ فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال فى دعواه أنه رب، تعالى الله ذو الجلال!

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه

قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [غافر: ٣٨- ٤٠] يدعوهم رضى الله عنه إلى طريق الرشاد الحق وهى متابعة نبى الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذى ملكوت كل شيء بيديه الذى يعطى على القليل كثيراً ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها -مؤمنا قد عمل الصالحات- فله الدرجات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التى لا تبيد والخير الذى كل ما لهم فيه فى مزيد.

ثم شرع فى إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ**

عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٦] كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض الذى يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ولقد بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار ولا تملك تصرفا ولا حكما فى هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق المتصرف الرازق للأبرار والفجار وهو الذى أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ قال الله ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ومكرهم فى صدهم عن سبيل الله مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التى لبسوا بها عن عوامهم ولهذا قال ﴿ وَحَاقَ ﴾ أى أحاط ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أى تعرض أرواحهم فى برزخهم صباحا ومساء على النار ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أ.هـ(١).

هلاك فرعون وجنوده

إن الله لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم وإرسال الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم بالترغيب تارة والترهيب أخرى لكنهم استمروا فى عنادهم وكفرهم ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يتبوءا بقومهما بمصر بيوتا يعبدون الله تعالى

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير.

فيها ويقيمون الصلاة وفى المحافظة على عبادة الله بشرى للمؤمنين بالسعادة والفلاح فى العاجل والآجل.

قال جل شأنه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧]

ورأى نبى الله موسى ما رأى من جبروت فرعون وظلمه وعسفه وحنقه وطيشه فدعا عليه ربه حتى تستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]

والمراد بالزينة: الحلل والحلى والأثاث والرياش والماعون. والأموال هى وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك أما الطمس فهو الإزالة يقال: طمس الأثر وطمسته الريح إذا زال. والشدة على القلب معناها الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان. وإنما قال الله تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ بضمير التثنية مع أن موسى هو الذى دعا، لأن هارون كان يُؤَمن على دعاء موسى فكأنه دعا معه. وأمره تعالى لهما بالاستقامة كأمره لرسول الله ﷺ فى قوله ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود: ١١٢] والمراد بالاستقامة الثبات على الإيمان كما قال الصادق المعصوم ﷺ لسفيان بن عبد الله: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»(١).

وتأخذ الآيات البينات الكريمات العظيمات فى بيان المشهد الختامى لفرعون وقومه، فيقول جل شأنه ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ إنه مشهد ينطق بالجلال والعظمة يقشعر لهوله الأبدان يقول الله تعالى فى وصفه: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٢] لقد ادلهمت الخطوب، واحتدمت المحن، فهؤلاء بنو إسرائيل وعلى رأسهم موسى وهارون يقفون

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٢) والإمام أحمد فى (٣: ٤١٣).

موقفا صعبا، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم، وأى عدو! إنه الجبار العنيد صاحب الصولة والصولجان ورجل البغي والطغيان، لقد أتبعهم بجنده وخيله وسلاحه وجبروته هنا بلغت القلوب الحناجر، قال قوم موسى وقد ارتجفوا من هول ما رأوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال موسى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين من منطق الإيمان الذى إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يحرك العوالم ويسير الجبال ويجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا قال ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وهنا تأتى النجدة من رافع السماء بلا عمد قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٨] لقد قطع الله تعالى البحر ببنى إسرائيل وخلفه وراءهم بعدما جعله طرقا يابسة بعدد أسباطهم الإثنى عشر، ورأى موسى بعد عبور البحر أن يضربه بعصاه حتى يعيده كما كان، فلا يتمكن فرعون من عبوره فقال له الله تعالى ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان ٢٤] وظن فرعون أن البحر قد سخر له كما سخر لموسى وأن الأمور بيده وأنه الفعال لما يريد، ونسى أو تناسى أن للكون إلها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء. قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ لا ليعبر البحر فحسب وإنما لينزل بهم العقاب والعذاب، فكان الجزاء من جنس العمل: هاج الموج فكان كالجبال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧، ٧٨] لقد أطبقت عليهم الأمواج، فإذا فرعون ينادى عندما أدركه الغرق ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] لكن إيمانه كان مغشوشا وإسلامه كان زائفا لم يكن إيمانه تصديقا ولم يكن إسلامه إذعانا إنما لأنه أدركه الغرق لذا جاء الرد قاطعا والجواب حاسما وساطعا ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. أى أتقول ذلك الآن لما أدركك الغرق ترجو النجاة ولم تتخذ لها الأسباب كيف يكون ذلك كذلك والسفينة لا تجرى على يبس. ليس

الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل. يقول الله تعالى فى فرعون وأمثاله ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢] هذا الجانب من جوانب العبرة فقد شاءت إرادة الله واقتضت حكمته أن ينجو فرعون بجسده فقط ولتلقه الرياح على شاطئ البحر جسدا جامدا لا حراك فيه ولا حياة، ذلك الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى، ويقول ما علمت لكم من إله غيرى! فأى إله هذا الذى مات ومن الذى أماته؟ فسبحان صاحب العزة القائمة، والمملكة الدائمة. وهكذا بعد ذكر الجبابرة وطغاة البشر يأتى الله بجانب العبرة كما قال تعالى بعد ذكر قوم لوط ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وكما قال: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٥] وكما قال فى شأن فرعون ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٦] وكما قال بعد ذكر الجبابرة فى سورة العنكبوت ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠]

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه ولهذا قال تعالى ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى مصاحبا درعك المعروفة بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾ أى أنت آية ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أى من بنى إسرائيل ودليلا على قدرة الله الذى أهلكك. والله أعلم وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء.

كما قال الإمام البخارى فى صحيحه: حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر

حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه **«أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»** وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم.

حال بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

لقد سلب الله تعالى فرعون وقومه عزّهم ومالَهم وأنْفسهم وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم كما قال تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص: ٥].

وقال جل شأنه: ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أورث الله القوم من بني إسرائيل -الذى كانوا يستضعفون بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وسومهم سوء العذاب- أورث الله هؤلاء المستضعفين الأرض التي باركنا فيها بالخصيب والنماء، وكثرة الخيرات والأمطار، وأورثناهم مشارقها من حدود الشام، ومغاربها من حدود مصر، وتمت كلمة ربك الحسنى، وتحقق وعده الأسمى. ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص: ٥، ٦] وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، وهكذا نتيجة الصبر، وحسن تلقي الأمر، أما من يخلعه جزعه، ويهلكه هلعه، فتكون عاقبة أمره خسرا. ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور والعمارات والدور، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف في الجنات والبساتين.

﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا**

كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٣٨- ١٤١].

لقد أنعم الله على بنى إسرائيل نعما لا تحصى، حيث نجاهم من فرعون وملئه، وأهلك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وجاوز بهم البحر آمنين وأغرق فرعون وقومه ومع هذا لم يقابلوا النعم بما يجب من الشكر والطاعة، بل قابلوها بالكفر والعصيان وهكذا كان اليهود قديما وحديثا. لقد جاوزوا البحر بعناية الله ورعايته، حتى كان الله معهم بذاته، فلما انتقلوا عنه ورأوا قوما -قيل من العرب وقيل من غيرهم- عاكفين على أصنام لهم ومقبلين عليها ومعظمين لها ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وهذا الطلب منهم دليل على أن تقديس الأصنام وعبادة غير الله كانت متأصلة فى نفوسهم، وفيهم حنين لها، وهذا شأن من دخل فى دين الله حديثا ولقد رد موسى على من طلب منه هذا الطلب بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ما يجب لله سبحانه من صفات التقديس والكمال، وتجهلون حقيقة التوحيد الخالص له سبحانه، وأنه ليس فى حاجة إلى شفيع أو واسطة بل هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، وتجهلون حقيقة الرسالة بدليل طلبكم منى هذا!! إن هؤلاء القوم العاكفين على أصنامهم مقضى على ما هم فيه بالهلاك والتبار إذ أنها لا تنفع أبدا ولا تضر، وباطل عملهم فى الدنيا والآخرة، وفى تعبير القرآن إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك وأن عملهم هذا إلى زوال وفى هذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض. قل لهم يا موسى: أغير الله خالق السماوات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم إلها غيره؟ إن هذا لشىء عجيب. وكيف تطلبون هذا وهو فضلكم على عالمى زمانكم. واذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون وأنقذناكم من ذل العبودية، ونار الاستعمار وأنهم كانوا يسومونكم العذاب السيئ: يقتلون أبناءكم الذكور ويتركون نساءكم أحياء وفى ذلكم المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء واختبار من ربكم عظيم.

ولما انفصل موسى عليه السلام من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوما من الجبارين فأمر الله بنى إسرائيل أن يستعدوا للجهاد ويفتحوا الأرض المقدسة -والمقصود بها على الأرجح أرض فلسطين- وقد أخبرهم بأن الله كتب لهم هذه الأرض إن هم دخلوها، ونهاهم موسى عن الارتداد والنكوص، حتى لا يقعوا فى الخسران المبين ولكن حقيقة اليهود لا تختلف ولا تتغير فالجبن والخور والاستكانة، والحرص على الحياة من أصول طباعهم ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ** ﴾ [المائدة: ٢٢] إذاً فأى فضل لهم إن دخلوها بغير جهاد وهنا يعمل الإيمان عمله فى رجلين منهم فيقولان بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٣] .

ولكن صوت الباطل يصرخ ويصيح فى عرصات الدنيا وبكل وقاحة قالوا لموسى ﴿ **إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ فتأمل معى كيف جعلوا من الله رباً لموسى وحده ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ** ﴾ أو ليس الله رب العالمين، أو ليسوا من العالمين؟ ثم انظر كيف وصل التبجح بهم حدا بعيد المدى فقالوا لنبى الله ﴿ **إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾ .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ عندما قالوا له يوم بدر وكانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ فى قوله: « **اللهم فإنهم جياع فأطعمهم اللهم فإنهم حفاة فاحملهم، اللهم فإنهم عراة فاكسهم** » .

هؤلاء الجياع العراة الحفاة وقفوا أمام قوم غلاظ الأكباد وجفاة الطباع قساة القلوب فماذا قال هؤلاء الجياع العراة الحفاة لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية قالوا: «يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وعلمنا أن ما جئت به هو الحق، والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، لا يتخلف منا رجل واحد، فامض على بركة الله لعل الله يريك منا ما تقر به عينك وإنا لصدق فى الوعد صبر عند اللقاء والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول لك. اذهب أنت وربك فقاتلا إنا

معكما مقاتلون، يا رسول الله سالم من شئت وعاد من شئت، وصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، ودع لنا ما شئت والذى بعثك بالحق إن الذى تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تدعه لنا » (١).

فتأمل معى منطق أصحاب رسول الله الذى باشرت بشاشة الإيمان شغاف قلوبهم فجعلت من المستحيل ممكنا، ثم تأمل موقف بنى إسرائيل الذين تربعت الدنيا على قلوبهم فجعلتها فى غطاء عن ذكر الله، فكانوا لا يستطيعون سمعا وفى نهاية المطاف، قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فجاء الحكم جازما من أسرع الحاسبين وأعدل العادلين، قال: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم حكم عليهم بالتيه أربعين عاما جزاء وفاقا، فقد حيروا الأنبياء وقتلوهم واعتدوا على حرمات الله، وإن قبائحهم لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المارقين المتمردين.

يقول صاحب الظلال: «وهكذا أسلمهم الله -وهم على أبواب الأرض المقدسة- للتيه؛ وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل. جيل يعتبر بالدرس، وينشأ فى خشونة الصحراء وحريتها صلب العود... جيل غير هذا الجيل الذى أفسده الذل والاستعباد والطغيان فى مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل! والذل والاستعباد والطغيان يفسد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشعوب.. ويتركهم السياق هنا -فى التيه- لا يزيد على ذلك.. وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية إلى الجمال الفنى على طريقة القرآن فى التعبير» (٢).

ويقول العلامة ابن كثير(٣)

«عوقبوا على نكوصهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهارا وصباحًا ومساء ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة

---

(١) يراجع فى هذا النص: ابن اسحاق وسيرة ابن هشام والطبقات الكبرى وتاريخ الطبرى وابن خلدون وابن الأثير وغيرها من كتب السير والتاريخ والمغازى عند الحديث عن غزوة بدر.

(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج٢ ص٨٧١.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ط ١٩٨١، ص٩٧- ١٠٣.

أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم، سوى يوشع وكالب عليهما السلام... ولم أر فى كتاب أهل الكتاب قصة نكوصهم عن قتال الجبارين ولكن فيها: أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه وكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وخور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام. وعندهم أن يثرون كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون فقدم على موسى مسلما فتلقاه موسى وأكرمه واجتمع به شيوخ بنى إسرائيل وعظموه وأجلوه... قالوا ودخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء فى الشهر الثالث من خروجهم من مصر وكان خروجهم فى أول السنة التى شرعت لهم وهى أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه فى أول فصل الصيف والله أعلم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بنى إسرائيل ما أنعم به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه وكيف حملهم على مثل جناحى نسر من يده وقبضته وأمره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم ويستعدوا إلى اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ولا يقتربن أحد منهم فمن دنا منه قتل حتى ولا شىء من البهائم ما داموا يسمعون صوت القرن «البوق أو شبهه» فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق وصوت الصور شديد ففزع بنو إسرائيل من ذلك وخرجوا فقاموا فى سفح الجبل وغشى الجبل دخان عظيم فى وسط عمود من نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة واستمر صوت الصور وهو البوق واشتد وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه. وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل فيأمر بنى إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله وأمر الأحبار وهم علماؤهم أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا بالقرب. فقال موسى يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوا، وقد نهيتهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتى معه بأخيه هارون.. وكلمه ربه عز وجل فأمره حينئذ بالعشر

كلمات.. وهي الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهى عن الحلف بالله كاذبا والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة -وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت- أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض الذى يعطيك الله ربك. لا تمد عينيك إلى بيت صاحبك ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبك. ومعناه النهى عن الحسد.

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم: مضمون هذه العشر الكلمات فى آيتين من القرآن وهما قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾

[الأنعام: ١٥١- ١٥٣]

وذكروا بعد العشر كلمات وصايا كثيرة وأحكاما متفرقة كانت فزالت وعُمل بها حينا من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرفوها ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مبدلة بعدما كانت مشروعة مكملة فلله الأمر من قبل ومن بعد وهو الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وقد قال الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾ [طه: ٨٠- ٨٢] يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وأنه وعدهم صحبة

نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع - منًّا من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد، ومن أخذ منه قليلا كفاه، أو كثيراً لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو فى غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم، وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر، كما قال الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١]، إلى أن قال: **﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾**[البقرة: ٤٩- ٥٧]، إلى أن قال سبحانه: **﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا**

وبصلها قال ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[البقرة: ٦٠، ٦١].

فذكر تعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه، بل ينزل الله المن باكرا، ويرسل عليهم طير السلوى عشيا، وأنبع الماء لهم؛ يضرب موسى عليه السلام حجرا -كانوا يحملونه معهم- بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينا، لكل سبط عين منه تنبجس ثم تتفجر ماء زلالا فيستقون فيشربون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر. وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها «الفوم هو الحنطة أو الثوم» فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا لهم: ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها -تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ها هنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى.

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى: ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ [طه: ٨١] أي فقد هلك وقد حل عليه غضب الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال: ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ [طه: ٨٢] أ.هـ.

سؤال الرؤية ونزول التوراة

قال الله تعالى: ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤٢)

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٤٢ – ١٤٧].

من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل أنه أنزل عليهم التوراة فيها هدى ونور وعند إنزال التوراة على نبى الله موسى واعده الله تعالى ثلاثين ليلة صامها موسى ثم شعر بخلوف فمه فكره أن يكلمه الله برائحة فم الصائم فاستاك ليزيل تلك الرائحة، فأمره الله أن يصوم عشراً أخرى إذْ إن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وهذا ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] وقبل أن يذهب موسى إلى ميقات ربه أوصى أخاه هارون أن يخلفه فى قومه بالخير، وأن يكون مصلحًا بينهم ولا يتبع سبيل المفسدين، وتلك وصية جاءت من باب التثبيت والتنبيه من باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وذلك لأن هارون كان نبيا يدرك كل هذه المعانى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ أى لما جاء موسى فى الوقت الذى حدده الله له وكلمه الله من وراء حجاب وسمع موسى كلام

الله اشتاق لرؤيته الكريمة، فسأل الله الرؤية فقال له الله تعالى: لن ترانى فليس هناك من يقوى على رؤيتى لعظم جلالى.

روى مسلم عن النبى ﷺ **«حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه «أنواره» ما انتهى إليه بصره من خلقه»**

ثم أراد ربك أن يخفف من وقع الأمر على نفس موسى، فقال له: **﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** فقد اختار لموسى من مخلوقاته الشيء القوى الثابت الراسخ الباذخ الشامخ اختار له الجبل، أيثبت الجبل عندما يتجلى الله عليه بنوره؟! إن الجبل عندما تجلى له الله ساخ في الأرض من جلال الأنوار الإلهية ولما رأى موسى ذلك خر مغشيا عليه فلما أفاق قال لرب العزة: سبحانك تقدست وتنزهت إن أحداً من الكائنات لا يقوى على أن يصمد أمام نور جلالك وبهائك وسلطانك، تبت إليك وأنا أول المؤمنين بذلك.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم: والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين. فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى إلى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك فقال رسول الله ﷺ: **«لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثنى الله عز وجل»**(١)

عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: **«إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين»** رواه أحمد وجل جلال الله إذ يقول: **﴿ وُجُوهٌ**

---

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الأنبياء (٣١)، وفى الرقاق (٤٣) وفى التوحيد (٣١) وأخرجه مسلم فى الفضائل (١٦٠) وأبو داود فى السنة (١٣) والامام احمد فى (٢: ٦٤).

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وهذا يدل على ثبوت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة.

وجل ثناء الله إذْ يقول في حق الكافرين ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه اصطفى موسى واختاره للنبوة والكلام والرسالة السماوية. لقد قال له: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [طه: ١٣] وقال تعالى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١].

والمراد بالناس في قوله تعالى: ﴿ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ المراد بهم ناس زمانه إذ أن محمداً ﷺ هو المصطفى على الناس أجمعين. ولما كان موسى نبيا ورسولا وأنزل الله عليه كتابا فقد أمره الله أن يأخذ ما آتاه من الفضل والمنة ويكون من الشاكرين لله على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وهذه نعمة من نعم الله تعالى على موسى وعلى بني إسرائيل فقد أنزل الله تعالى عليه الألواح وكتب فيها من المواعظ وتفصيل الأحكام ما يهدى ويرشد إلى صراط الله الذى له ما في السماوات وما في الأرض وكان في ذلك تطييب لنفس موسى لما لم يُجب إلى طلب الرؤيا لأنه لا طاقة له بها ثم يأمره تعالى بعد ذلك أن يأخذ ما في الألواح بقوة وعزيمة فإن أوامر الله ونواهيه ومواعظه إنما شرعت لتنفذ وتطبق ويعمل بها ولم تنزل ليضرب بها عرض الحائط وتوضع في المتاحف ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم أمره تعالى أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن ما في الألواح من مواعظ

وأحكام وهذا أمر بالأخذ بالمثل العليا حتى يكون المكلف متابعا للمترقى ثم أخبر سبحانه بعد ذلك بأنه سيريهم دار الفاسقين أى عاقبة الذين يخالفون عن أمر الله والذين لا يتلقون أحكامه بالقبول والعمل، فالخروج عن أحكام الله فسق وهذا إخبار فيه وعيد وتهديد وبيان لمن خالف وعصى وأبى واستكبر. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ١٠] فإن لله تعالى سننا فى كونه ومن هذه السنن ما ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

[طه: ١٢٣ - ١٢٧]

ومن سننه فى خلقه ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

[يونس: ٨١]

ولقد أوعد الإسلام المتكبرين بسوء المصير قال تعالى: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢] وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل يا رسول الله، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، فهل هذا من الكبر؟ قال ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال: الكبر غمط الناس وبطر الحق»(١).

لقد حكم الله تعالى وحكمه العدل على المتكبرين بأنه سيصرفهم عن آياته جزاء وفاقا فلا يفهمونها ولا يفقهون ما فيها، لا يدركون الحجج القطعية ولا يفهمون البراهين الساطعة ولكن يمنعون من الرؤية الصحيحة لأنهم زاغوا ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] ومن أفعالهم أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها سواء

---

(١) أخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) والترمذى فى البر (٦٠) والإمام أحمد فى (١: ٣٨٥: ٢٣٧).

أكانت آية فى الآفاق أو فى النفس، أو متعلقة بالأحكام، أو من دلائل التوحيد والعظمة الإلهية. لقد أراهم الله آياته فصدفوا عنها وكذبوا بها فلما تنكبوا الجادة وحادوا عن طريق الله المستقيم صارت قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين الحق حجاب، إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا لقد شاقوا الله ورسوله واتبعوا غير سبيل المؤمنين فاستحقوا أن يصرفوا عن آيات الله وفهمها وتدبرها ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد٢٣، ٢٤].

لقد استحقوا هذا الجزاء لأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين، والتكذيب والغفلة معولان يدمران المجتمعات ويقوضان بنيان الأمم. وقد حكم الله تعالى على المكذبين بآياته ولقائه بأن أعمالهم قد حبطت فصارت هباء منثورا قال جل شأنه: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف:١٤٧] إنه منطق الحق فالتكذيب بالآيات واليوم الآخر وبال وخسران مبين. إن الله تعالى كثيرا ما يذكر العباد بلقائه وإنه لابد من يوم يرجعون فيه إلى الله وأنهم غدا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالهم محاسبون وعلى رب العزة سيعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟!

﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [النحل:١١١]. ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء:٤٧]. ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٠].

بنو إسرائيل والعجل

قال تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ**

مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

[الأعراف: ١٤٨ - ١٥٤].

وقال تعالى: وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

تأثر بنو إسرائيل بالوثنية التي كان عليها أهل مصر من عبادة عجل (أبيس) لذلك لما جاوز الله بهم البحر ومروا بقوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (١٣٨) **إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ قال موسى: ﴿ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾. إن بنى إسرائيل أخذهم الحنين إلى عبادة العجل وأقدامهم مازالت مبتلة بماء البحر، ونعمة الله عليهم بالنجاة ماثلة أمام أبصارهم إنهم عبدوا الذهب والفضة من دون الله، وقبل رحيلهم من مصر قامت نساؤهم بجمع الحلى من نساء مصر، فجمعوا كثيراً من الذهب والفضة على سبيل العارية، والعارية مردودة ، لكنهن جمعنها والنية معقودة على أخذها وعدم ردها، وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر رجالاً ونساءً، أخذوا حلى المصريين معهم. ولما ذهب موسى لميقات ربه لينزل الله عليه التوراة وقال لأخيه هارون: ﴿ **اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار، والذى أضلهم وصنع لهم هذا العجل من الحلى، رجل منافق يسمى السامرى، قال تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ** ﴾ أى فنسى موسى إلهه هنا فذهب يلتمسه هناك. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾. وقال جل شأنه: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ [طه : ٨٩].

فماذا كانت صورة العجل؟ قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين والله أعلم أ. هـ.

ويرى الرأى الأول : قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز بنى إسرائيل البحر راكبًا فرسًا ما وطئ بها أرضًا إلا حلت فيها الحياة وأخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة، وصار يخور كما يخور العجل.

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون: إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى

جوفه وخروجها من فيه، ذلك أن صنع تمثال عجل مجوفًا ووضع فى جوفه أنابيب على طريقة فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح فمتى دخله الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل. وقال آخرون بل كان ذلك الخوار تمويهًا وعملاً فيه يشبه عمل الحواة ذلك أنه جعل التمثال أجوف، وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها الماء، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى فى روع الناس أن هذا العجل إلاههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٩٠، ٩١]، قال تعالى ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لما اشتد ندمهم بعد علمهم بضلالهم لجأوا إلى الله متضرعين يسألونه الرحمة والمغفرة وهكذا تعددت جرائم بنى إسرائيل فى جنب الله. وعاد موسى إلى قومه بعدما تلقى الألواح من ربه وفيها التوراة وفيها الهدى والنور والموعظة الحسنة وتفصيل كل شىء وكان الله قد أخبره بفتنة السامرى لهم، واتخاذهم العجل للعبادة فرجع إلى قومه غضبان أسفًا، شديد الغضب لله، فما كان الأنبياء يغضبون لأنفسهم، إنما يغضبون إذا انتهكت حرمات الله. إن موسى لما غضب كانت غضبة لله وفى الله وبين موسى سبب غضبه قال: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ بئس الذى خلفتمونى به بعدما ذهبت لميقات ربى ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وتركتموه ناقصًا غير تام، أم استعجلتم ففعلتم ما فعلتم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ واشتد الغضب بموسى ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾.

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ

قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢- ٩٤]، وفى سورة الأعراف ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وإنما خاطبه بابن أم ليثير فى نفسه عوامل الرحمة وكوامن العاطفة، ولقد كان هارون حليمًا رحيمًا وفى كلماته ما يدعو إلى الشفقة عليه والرحمة به، وشماتة الأعداء داء عضال له تأثيره فى نفوس الأحرار عندئذ وعى موسى هذا الدرس من أخيه لما فيه من صدق وأمانة فتوجه إلى الله فى علاه ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فشعاع من رضى الله يطفئ غضب ملوك أهل الأرض ولمحة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

أما الغضب فذلك لأن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم ليكون فى ذلك القتل توبة لهم، كما جاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فهوانهم على الناس وهوانهم على الله بهذا العمل وكذلك نجزى المفترين المبتدعين فى دين الله، فشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١] وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا

بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩].

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤].

وسكوت الغضب سكونه وهدوء النفس، أخذ الألواح بعد أن سكن غضبه، وفيها قد كتب من الأحكام والمواعظ ما فيه هدى ورحمة، هدى من الضلالة إلى طريق الله ورحمة بالعباد إن هم سلكوا طريق ربهم، وعملوا بما أنزل عليهم، وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا الذين يخافون الله، ويخضعون له ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ﴾ قال: رب إني أجد في الألواح خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون - أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة - رب اجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئًا لم يعطه أحداً من الأمم. قال: رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر. ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي. قال تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم. قال: رب فاجعلهم أمتي قال: تلك أم أحمد. قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسن فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة. رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في

الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبى الله موسى قال: اللهم اجلعنى من أمة أحمد.

قال ابن كثير فى تفسير ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ قال السامرى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى من أثر فرسه. هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع بين له ما سينزل به من الجزاء فى الدنيا والآخرة. أما جزاؤه فى الدنيا ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ أى اذهب فأنت طريد من بين الناس فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحداً حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لا مساس أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحداً.

قال مقاتل: إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل فخرج طريداً فى البرارى. وأما جزاؤه فى الآخرة فقد ذكره بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ وإن لك موعداً فى الآخرة لن يخلفه الله وهو آت لا محيص منه.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ وعمد موسى عليه السلام إلى هذا العجل فحرقه قيل بالنار - كما قاله قتادة وغيره. وقيل بالمبارد كما قاله على وابن عباس. وغيرهما وهو نص أهل الكتاب ثم ذراه فى البحر ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

لكن الله لم يقبل توبة عابدى العجل إلا بالقتل فيقال إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤– ١٥٧].

ذكر المفسرون أن الله قد أوحى إلى موسى أن يختار سبعين رجلاً من بني إسرائيل ويصطفيهم ويأتي بهم إليه، وقد اختلفوا هل كان هذا عقب عبادتهم العجل ليتوبوا؟ أو كان هذا عند طلب موسى للرؤية. فاختار موسى سبعين رجلاً لميقاتنا وأمرهم أن يصوموا وأن يتطهروا ثم خرج بهم إلى طور سيناء فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله وقال للقوم: ادنوا فدنوا حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا ساجدين وسمعوا المولى جل شأنه وهو يكلم موسى بأمره ونهيه. افعل ولا تفعل ثم انكشف الغمام فأقبلوا على موسى وطلبوا منه الرؤية، قيل لم يصدقوا أن الذى أمرهم بقتل أنفسهم هو الله حتى يروه فوعظهم موسى وزجرهم فقالوا: يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة، فقال ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾.

يقول بعض العلماء: طلب موسى الرؤية مع علمه بعدم إمكانه ليسمعوا الرد عليه، فيكون هذا أبلغ من الرد عليهم، ولذا أجيب بلن تراني.

ورجف بهم الجبل، وصعقوا حينما ألحوا فى طلب الرؤية، لما أخذتهم الرجفة قال موسى: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾ هذا حينما عبدوا العجل، وقبل حين طلب الرؤية وأهلكتني معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت.

قال موسى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ حيث طلبوا الرؤية لك جهاراً قياساً منهم على سماع كلامك، وهو قياس فاسد، وقيل ما فعله السفهاء هو عبادة العجل

﴿إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ وابتلاؤك حين كلمتنى فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية، تضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين من معرفتك، ولست ظالمًا لهم أبداً، بل هذا موافق لطبعهم ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ﴾ من عبادك التائبين المؤمنين. وهذا موافق لطبعهم، والله أعلم بعباده، فلو تركوا وشأنهم لاختار كل منهم ما هو فيه وما قدر له ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يا رب ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، واستر عيوبنا برحمتك يا أرحم الراحمين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ تغفر الذنوب وتعفو عن السيئات بلا سبب ولا علة لأن رحمتك وسعت كل شيء ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هى نعمة الصحة والعافية والرزق الحسن والتوفيق فى العمل، واكتب لنا فى الآخرة حسنة هى نعمة الثواب الجزيل والعطاء الكثير. إنا هدنا إليك وتبنا ورجعنا إلى حظيرة الإيمان بالعمل لا بالقول فقط.

قال الله: إن رحمتى سبقت غضبى وإن عذابى أصيب به من أشاء من عبادى المسيئين لأنفسهم بالعمل الفاسد، وفى قراءة: إن عذابى ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَسَاءَ﴾. وأما رحمتى ونعمتى وفضلى فقد وسعت كل شيء فى الكون وسعت الكافر والعاصى والمسلم واليهودى وعابد العجل.. إلخ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] فسمائى تظلهم وأرضى تقلهم وبرزقى يعيشون وبخيرى يتمتعون وأنا أدعوهم دائمًا إلى الصراط المستقيم ومع هذا كله فبعضهم خارجون عن دينى.

فإذا كان الأمر كذلك من إصابة عذابى من أشاء، ورحمتى وسعت كل شيء ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ كما دعوت يا موسى أى أثبتها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله فى كل شيء ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وخصت بالذكر لأنه يخاطب قومًا ماديين نفعيين مانعى للزكاة وسأكتبها كتابة خاصة للذين هم بآياتنا كلها يؤمنون سأكتب رحمتى الواسعة للذين يتقون ويؤتون الزكاة وسأكتبها كتابة خاصة للذين هم بآياتنا كلها يؤمنون وهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وهذه الأوصاف تنطبق على النبى محمد ﷺ فهو رسول ونبى أمى وقد كان أهل الكتاب يصفون العرب بأنهم أميون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وقد وصفه القرآن الكريم ووصف رسالته بأوصاف:

- النبى الأمى وفى هذا الوصف إشارة إلى كمال صدقه حيث أتى بالقرآن المعجز فى أخباره وقصصه وحكمه وأصوله العامة فى السياسة والاجتماع والدين مع أن من نزل عليه أمى بين أميين. يا سبحان الله.

- وهو محمد الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل فبشارته وصفته وزمانه فى التوراة والإنجيل، وقد عرفوا ذلك كله كما يعرفون أبناءهم أو أكثر وآمن به بعض علمائهم الأحرار من اليهود كعبد الله بن سلام، ومن النصارى كتميم الدارى رضى الله عنهم أجمعين، وفى كتاب (إظهار الحق) لعالم هندى تحقيق هذا الموضوع لمن أراد الزيادة .

- أنه يأمرهم بالمعروف شرعًا وهو ما تعرفه العقول الرشيدة ولا تنكره الطباع السليمة وهو ينهاهم عن المنكر شرعًا وهو ما تنكره النفوس الأبية الكاملة فى العقل والسمو الروحى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

- يحل لهم الطيبات التى تستطيبها الأذواق السليمة من الأطعمة الحلال ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٧].

- ويحرم عليهم الخبائث مما تأباه النفوس السليمة كالميتة والدم المسفوح، ويأباه العقل الراجح كالخنزير، خصوصًا عندما عرفنا الطب أنه يولد الدودة الوحيدة فى جسم من يأكله.

- وقد وضع عنهم التكاليف الشاقة التى وتثقل عليهم، والأغلال التى كانت فى أعناقهم كقتل النفس عند التوبة، وقطع مكان النجاسة، إلخ . فدينه اليسر وشريعته السمحة السهلة والحنيفية البيضاء.

فالذين آمنوا به وبرسالته، وحموه ونصروه مع الإجلال والإكبار، واتبعوا النور الذى أنزل معه فأولئك البعيدون فى درجات الكمال، المتميزون على غيرهم هم المفلحون حقًا، ويدخل فى ذلك دخولاً أوليًا قوم موسى عليه السلام الذين ينطبق عليهم الوصف العام.

القرية التي كانت حاضرة البحر

قال تعالى: ﴿ واسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقل تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦] هذه القرية قيل إنها طبرية وقيل أيلة والمقصود ما حدث فيها من اليهود وهذا سؤال موجه إليهم والمقصود بهم اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ أى أسأل هذه الذرية عما فعل أجدادهم فى السبت فقد حرم الله تعالى عليهم الصيد فيه ابتلاءً واختباراً منه، واصطادوا وجاوزوا الحدود بعدما نهاهم الله تعالى بقوله: ﴿ لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا ﴾ وحذر ذريتهم من الكفر به، حتى لا ينالهم من العذاب ما نال أجدادهم المعتدين.

وقد كان من ابتلاء الله لهم أن حيتانهم - أى السمك - كانت تأتيهم ظاهرة على وجه الماء يوم السبت وفى غير يوم السبت لا تأتيهم وهذا بلاء منه تعالى واختبار لهم، فاحتال القوم على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام.

يقول صاحب الظلال رحمه الله (١) فى تفسير قول الله تعالى ﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم فى تاريخ أسلافهم وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ويذكرهم

---

(١) للمزيد راجع (فى ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب ط دار الشروق جـ٣. ص ١٣٨٢- ١٣٨٦.

بعصيانهم القديم وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا وما جره عليهم جميعًا من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً... اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى فيرفع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم... فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بنى اسرائيل يسكنون مدينة ساحلية.. وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ولا يشتغلون فيه بشئون المعاش، فجعل لهم يوم السبت.. ثم كان الإبتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع... وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء.... ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل - فى هذه المرة - للابتلاء الذى كتبه الله عليهم بسبب فسوقهم وانحرافهم.. لقد جعلت الحيتان فى يوم السبت تتراءى لهم على الساحل قريبة المأخذ سهلة الصيد فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التى قطعوها على أنفسهم فإذا مضى السبت وجاءتهم أيام الحل لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة كما كانوا يجدونها يوم الحرم. فأما كيف وقع لهم هذا وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة وتداورهم هذه المداورة فهى الخارقة التى تقع بإذن الله عندما يشاء الله. على أية حال لقد وقع ذلك لأهل القرية التى كانت حاضرة البحر من بنى اسرائيل فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء فتتهاوى عزائمهم وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم فيحتالون الحيل على طريقة اليهود للصيد يوم السبت! وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويحوطون عليه فى يوم السبت حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه وقالوا: إنهم لم يصطادوا فى السبت فقد كان فى الماء وراء الحواجز غير مصيد! وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله فيحذر الفريق العاصى مغبة احتياله وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب؟ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم بعدما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً

﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فهو واجب لله نؤديه.... وقد انقسم سكان القرية إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة.. وأمة تدع المنكر وأهله وتقف موقف الأنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي... ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

لقد كان العذاب البئيس – أي الشديد الذي حل بالعصاة المحتالين جزاء إمعانهم في المعصية التي يعتبرها النص هي الكفر الذي يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب في التعبير القرآني عن الكفر والشرك بالظلم والفسق.... كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية لقد تنازلوا هم عن آدميتهم حين تنازلوا عن أخص خصائصها – وهو الإرادة التي تسيطر على الرغبة وانتكسوا إلى عالم الحيوان حين تخلوا عن خصائص الإنسان فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان!. لقد جرت كلمة الله التي يجري بها الخلق والتكوين ابتداء كما يجري بها التحوير والتغيير.. كلمة (كن) ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فكانوا قردة مهينين كما جرى القول الذي لا راد له ولا يعجز قائله عن شيء سبحانه!

لقد بعث الله على اليهود في فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب والذي سيظل نافذاً في عمومه فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا في الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة الناكثة العاصية التي لا تخرج من معصية إلا لتقع في معصية ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف. ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت وأن يهود قد عزت واستطالت!! وإن هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ.. ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية وما بعدها إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب كما أخذ القرية التي كانت حاضرة البحر – وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يثوب من بني إسرائيل

ممن يتبعون الرسول النبى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل.. فليس عذابه سبحانه عن نقمة ولا إحنة إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه ووراءه المغفرة والرحمة .. أ. هـ.

بقرة بنى إسرائيل

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٦٧ – ٧٣].

إن أردنا أن نسمى بنى إسرائيل باسم يدل على نفوسهم المعقدة، استطعنا أن نقول إنهم مصابون بعقدة البقرة. وللبقرة فى هذه السورة قصة تنخلع لهولها القلوب وتنفطر لها النفوس وتحار فيها العقول. ولعل ذوى الألباب الباصرة وأولى الأفئدة المستنيرة لو نخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد رأيهم لعلموا ما تحتويه تلك القصة من موقف متصلب لقوم شددوا فشدد الله عليهم ولما أخبرهم نَبِيُّهم موسى عليه السلام أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة قالوا له بلسان جرئ وحماقة شنيعة: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ ما كان يليق أن يوجه مثل هذا الخطاب إلى نبى رسول كليم من أولى العزم قال ربه فى شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال له مولاه ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال له ربه : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [طه: ١٣] وقال له سبحانه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه: ٣٩] وقال له جل وعلا ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

[طه: ٤١] يخلع عليه ربه هذه الأوسمة وتلك النياشين ويقول له قومه بحماقة ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ فيقول لهم بلسان الحليم الناصح الأمين الشفوق الكريم ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يا له من أدب، وما أجمله من خلق، وما أعظمه من حلم. قوم يسخرون ونبي يربي ويعلم ويصبر ويحتسب.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾. روى في سبب الذبح أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر قتله بنو عمه طمعاً في ميراثه، وحملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها، ثم جاءوا يطالبون بديته وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل، فأوحي الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر عن قاتله. ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾قالوا: أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا؟ نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة، وهذا غاية في الغرابة وبعيد كل البعد عما نريد؛ وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام، ثم ينتظروا ما يحدث بعد، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى.

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي ألتجئ إلى الله من الهزء والسخرية بالناس، إذْ هو في مقام تبليغ أحكام الله.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي سل ربك لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها، وقد سألوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهدوه فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم. ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، بل هي وسط بينهما. ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ لكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فأعادوا الطلب.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية في بيان مميزاتها، لكنهم ما قنعوا بهذا بل زادوا في الإلحاف وإعادة السؤال مرة أخرى ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا

هِيَ﴾ هذا سؤال لطلب إيضاح وإظهار زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة لأنه لم يحصل لهم تمام البيان ثم ذكروا السبب في إعادة السؤال: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى لأن وجوه البقر تتشابه ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المأمور بذبحها، أو لما خفى من أمر القاتل، أو إلى الحكمة التى من أجلها أمرنا.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾. أى أنها بقرة لم تذلل بالعمل في الحراثة والسقى وهى سالمة من العيوب ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة، ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى أنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به ذكر هذه المميزات التى ذكرتها لنا ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة حتى وجدوها فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم والخلاصة: فذبحوها بعد توقف وبطء.

روى ابن جرير عن ابن عباس: «لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا مؤخر لفظًا مقدم معنى، لأنه أول القصة أى وإذ قتلتم نفسًا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى فقال موسى إن الله يأمركم .... إلى آخر الآيات، ولم يقدم لفظًا لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة الكشف عن القاتل، وأسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبى ﷺ لأنهم سلائل أولئك وهم راضون بفعلهم، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد لأن الأمة فى مجموعها كالشخص الواحد فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أن تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل، فمن كان يعرف أمرًا يكتمه لهوى فى نفسه وأغراض تبعد عن الضغن والعداوة ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أى اضربوا المقتول ببعض البقرة قيل بلحم فخذها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف، وقيل بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبى الله موسى من قتلك؟ قال: قتلنى فلان وفلان وهما ابنا عمه ثم سقط ميتًا، فأُخذا وقُتلا.

وإنما أمرهم بالضرب ولم يضرب بنفسه نفيًا للتهمة كيلاً ينسب إلى السحر والشعوذة ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ويريكم آياته فى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت وإخبار الميت بقاتله مما ترتب عليه الفصل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها وتطيعون الله فيما يأمركم به.

وقد ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن عبيدة السلمانى قال: «كان رجل من بنى إسرائيل عقيمًا لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنه أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا فأخذوها بملء جلدها ذهبًا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك؟ فقال هذا، لابن أخيه، ثم مال ميتًا فلم يعط من ماله شيئًا فلم يورث قاتل بعد» رواه ابن جرير.

وقيل إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم فأرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدى بوزنها ذهبًا فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشرات مرات فباعها منهم.

موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا

آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠) فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا (٧٤) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨) أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ [الكهف: ٦٠ - ٨٢].

إن موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران نبى بنى إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة والشريعة الباهرة، وإن فتى موسى هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام وقد كان يخدمه ويتعلم منه، والعرب تسمي الخادم فتى، وفي الحديث الصحيح: «ليقل أحدكم فتاى وفتاتي، ولا يقل عبدى وأمتى»[١]. وهذا من محاسن الآداب الشرعية.

أما الخضر «بفتح الخاء وكسر الضاد وسكونها» لقب بصاحب موسى واسمه بليا «بفتح الباء وسكون اللام» ابن ملكان والأكثرون على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة:

(١) أخرجه البخاري في العتق: ١٧، ومسلم في الألفاظ: ١٣، ١٥، وأبوداود في الآداب: ٧٥، والامام أحمد في ٢: ٣١٦، ٤٢٣، ٤٦٣، ٤٨٤، ٤٩١، ٥٠٨..

- قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: والرحمة: النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضى أنه علمه بلا واسطة معلم، ولا إرشاد مرشد وكل من كان كذلك كان نبيًا.

- أنه قال له موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ والنبى لا يتعلم من غير النبى.

- أنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى بل قد فعلته بوحى من الله، وهذا دليل النبوة.

روى البخارى ما خلاصته «أن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيبًا فسئل: أى الناس أعلم؟ فقال أنا، فعتب عليه ربه إذْ لم يرد العلم إليه تعالى، فأوحى إليه: إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، وأمره أن يأخذ حوتًا فى مكتل، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة، ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر - فاتخذ سبيله فى البحر سربًا - وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما فلما كان الغد طلب موسى الغذاء ووجد النَّصَب ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به، فقال فتاه: إنى نسيت الحوت، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة فارتدا على آثارهما قصصا، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلاً مسجى بثوب أبيض وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار(١)».

وبعد أن ذكر الأمور الثلاثة التى رآها موسى حين صاحب الخضر، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى وقد كان أعلمه من قبل أن لا يستطيع معه صبراً، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته - أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره مما ينكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة.. فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبى ﷺ «نحن

(١) أخرجه البخاري في العلم: ٤٤، وفي الأنبياء: ٢٧، وفي تفسير سورة ١٨: ٢. ٣. ومسلم في الفضائل: ١٧٠ والترمذي في تفسير سورة ١٨: ٢ والإمام أحمد في ٥: ١١٨، ١١٩.

نحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر»[1] وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وهذا ما أتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع على حقائق الأشياء فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة.

وخلاصة المسائل الثلاث : أنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتاً، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهما ودنياهما . ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه - إذ بالسقوط كان يضيع مال أولئك الأيتام.

ومجمل الأمر فى ذلك أن الله أطلع الخضر على بواطن الأمور وحقائقها فى أنفسها وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الحسية ومن ثم قال فى صفة علمه ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾ .

وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ليعلمه أن كمال المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليها فى الواقع قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾ .

يذكر الله تعالى نبيه ومصطفاه بما حدث لموسى عليه السلام عندما قال لفتاه

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى : ٧٩، ومسلم فى التوبة : ٥٣، والنسائى فى المساجد : ٣٨، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٧، فى ٦ : ٣٨٨..

﴿لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وسبب ذلك قول موسى لفتاه يوشع بن نون إنه ذكر له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه وقال لفتاه ﴿لا أَبْرَحُ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى مكان اجتماعهما. ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى ولو أنى أسير حقباً من الزمان قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب ثمانون سنة كما روى عن عبد الله بن عمرو. وقال مجاهد: سبعون خريفاً وعن ابن عباس قال: دهراً ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه قد أمر بحمل حوت وقيل له متى فقدت الحوت فإن العبد الصالح هناك فسارا حتى بلغا مجمع البحرين فناما هنالك، وكان الحوت فى مكتل مع يوشع عليه السلام وقفز الحوت من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع بن نون، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فى الماء ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى مثل السرب فى الأرض ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى المكان الذى نسيا الحوت فيه قال موسى ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تعبا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام للعبد الصالح الخضر الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾: سؤال تلطف لا على وجه الالتزام والإجبار وهكذا ينبغى أن

يكون سؤال المتعلم من العالم ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أى أصحبك وأرافقك ﴿ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ مما علمك الله شيئًا أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. قال الخضر لموسى ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ إنك لا تقدر على صحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك لأنى على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لاتقدر على صحبتى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ إنك ستنكر على ما أنت معذور فيه فقال له موسى ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ على ماأرى من أمورك ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ولا أخالفك فى شئ وعن ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ ابتداء ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ حتى أبدأك أنا به.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾. لما ركبا فى السفينة ولجت أى دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحًا من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرًا عليه ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ أمرًا عجبًا فقال له الخضرمذكرًا بما تقدم من الشرط: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فقال له موسى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ لا تضيق علىّ ولا تشدد علىّ.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾.

روى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذ ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم: «**رحمة الله علينا وعلى موسى**

لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب»[1] ولكنه قال: «**إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا**» وهكذا كان أدب المتعلم مع المعلم فللمعلم حقه في أن يوجه المتعلم وعلى المتعلم أن يقيم للمعلم وزنه.

قال تعالى: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾.

كان أهل هذه القرية لئاماً فأبوا أن يضيفوا هذين النبيين الجليلين فأعجب معي لقرية أبت أن تحسن ضيافة اثنين. إن البخل داء وبيل ومرض اجتماعي خطير. لكن العبد الصالح نظر إلى جدار يريد أن ينقض على الأرض، فأسرع إليه فأقامه وعدله مما جعل كليم الله موسى يقول له: ﴿ **لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴾ لقد بخلوا بما أتاهم الله من فضله وليسوا أهلاً لمعروف ورفضوا الضيافة فلا أقل من أن تأخذ الأجر على العمل. فقال الخضر لموسى ﴿ **هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ وهذا وفاء بالشرط الذى اشترطه موسى، ثم قال له الخضر ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾.

أخذ الخضر يفصل ما أجمل فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ **يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ** ﴾ صالحة جيدة ﴿ **غَصْبًا** ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شئ ينتفعون به غيرها وقد قيل إنهم أيتام.

﴿ **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** ﴾: خيراً منه طهارة من الذنوب وأبر بوالديه قال قتادة في شأن هذا الغلام: قد فرح به أبواه حين ولد وحزناً عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا**

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل: ١٧٢ وأبوداود في الحروف: ١.

صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

والمعنى أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنزٌ لهما. قال عكرمة وقتادة: كان تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية. وعن أبى ذر رفعه قال «إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة وإن صح لا ينافى قول عكرمة إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم. وعن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ .

ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينةووالدى الغلام وولدى الرجل الصالح، وما فعلته عن أمرى لكنى أمرت به ووقفت عليه. وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

ثبت فى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: **«إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذاهى تهتز من خلفه خضراء»**.

والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات. تفرد به البخارى وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر.

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى فى سورة القصص ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ

مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٧٦ – ٨٣].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «كان قارون ابن عم موسى».

وقال ابن جريج: هو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث ولقد نافق قارون كما نافق السامرى فأهلكه البغى ولقد آتاه الله من الأموال وكثرة الكنوز حتى أن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام – أى الجماعات – من الرجال الشداد وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً فالله أعلم وقد وعظه النصحاء من قومه فقالوا على سبيل النصح والإرشاد لا تفرح بما أنت فيه – أى لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعنى المرحين. وقال مجاهد: يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله ما أعطاهم، واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فإن لربك عليك حقًا ولنفسك عليك حقًا ولأهلك عليك حقًا ولزورك عليك حقًا فأعط كل ذى حق حقه وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليك ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسيئ إلى

خلق الله لأنه تعالى لايحب المفسدين. هذه خمس نصائح وجهها قومه إليه، والدين النصيحةوالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

بم أجاب قارون قومه؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ كان هذا جواب الذى أجاب به قومه بعد أن نصحوه، فهو يقول لهم: لست بحاجة إلى نصائحكم أو توجيهاتكم أو إرشاداتكم، لأننى أوتيت هذا المال على علم عندى، أى هذا أستحقه ولهذا قال تعالى رداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لكثرتها وظهورها عيانًا بيانًا.

لقد ظن ذلك الطاغية أن ما أعطاه الله من المال دليل على رضاه عنه. كلا

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]. كلا فليس المال دليلاً على الرضا وليس الفقر دليلاً على السخط.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

خرج قارون فى زينته على قومه مختالاً فخوراً، والدنيا إذا أقبلت على إنسان خلعت عليه محاسن غيره فإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه فكل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة، وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة فالغنى إذا كان أبكم قال الناس: إنه رزين، وإذاكان جبانًا قال الناس حكيم وإذا كان ممسكًا قال الناس: إنه محافظ على النعمة. والفقير إذا كان كريمًا قال الناس: إنه متلاف، وإذا كان شجاعًا قال الناس: إنه متهور وإذا كان فصيحًا قال الناس: إنه ثرثار.

لقد خرج قارون فى زينة عظيمة وتجمل باهر: من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى وقالوا: إنه لذو حظ وافر من الدنيا فلما سمع مقالتهم

أهل العلم النافع لهم: إن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون ﴿ **وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** ﴾ أى ولا يتبع هذه النصيحة، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات واجتنب المحرمات ورضى بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار وأنفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه ولمجتمعه وكان قدوة صالحة في حفظ مجد أمته، ورفع صيتها بين الأمم، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها، وإعلاء شأنها، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ويلقى المثوبة من ربه.

قال تعالى: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾.

يقول الإمام ابن كثير رضى الله عنه: لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة**»(١)، وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله – عليه السلام واختلف فى سببه فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول: يا موسى إنك فعلت بى كذا وكذا فلما قالت ذلك فى الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما قلت بالذى حملك على ما قلت؟ فقالت: أما إذ نشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل – ساجداً وسأل الله فى قارون فأوحى الله إليه: أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك.

قال تعالى: ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ج٤ ص٢١٥..

ونكاله ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس – الذين لما رأوه فى زينته قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم، فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ **وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى ليس المال بدالٍ عن رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطى ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع وله الحكمة التامة والحجة البالغة ﴿ **لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** ﴾ لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله ﴿ **وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا ﴿ **وَيْكَأَنَّ** ﴾ فقال بعضهم معناه: ويلك اعلم أن ولكن خفف فقيل: ويك، ودل فتح ﴿ **أَن** ﴾ على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير والظاهر أنه قوى ولا يشكل عن ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة ويكأن ولكتابه أمر وضعى اصطلاحى، والمرجع إلى اللفظ العربى والله أعلم. وقيل معناها ﴿ **وَيْكَأَنَّ** ﴾ أى: ألم تر أن، قاله قتاده. وقيل معناها ﴿ **وَىْ كَأَنَّ** ﴾ ففصلها وجعل حرف وى للتعجب أوللتنبيه، وكأن بمعنى أظن واحتسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة: إنها بمعنى ألم تر أن.

﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ والدار الآخرة ونعيمها الباقى الذى لايفنى ولايزول أبداً أعد الله هذا النعيم المقيم للمتواضعين الطائفين.

لقد أخبر تعالى أن الدار الآخرة – وهى دار القرار، وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويُعزى من حرمها إنما هى معدة للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً – فالعلو هو التكبر والفخر والأشر والبطر. والفساد هو عمل المعاصى بأنواعها من أخذ أموال الناس بالباطل وإفساد معيشتهم والاعتداء عليهم والإساءة إليهم والإضرار بهم ثم قال سبحانه ﴿ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ الذين يخافون الله ويعملون بما أمرهم به ويجتنبون نواهيه ويستعدون للقائه فى كل وقت وحين.

وفاة نبى الله موسى عليه السلام

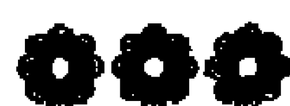
قال البخارى فى صحيحه: «وفاة موسى عليه السلام» حدثنا يحيى بن موسى حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه عن أبى هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال: أرسلتنى إلى عبد لايريد الموت، قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال: أى رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن.

قال: فسأل الله عزوجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبوهريرة: فقال رسول الله ﷺ «فلو كنت ثم – هناك – لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر».

قال وأنبأنا معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر»**.

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به. وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات – عليه السلام– وعمره مائة وعشرون سنة.



يوشع عليه السلام

«هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم غير مصرح باسمه فى قصة الخضر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف: ٦٢]، وقد قام بأعباء بنى إسرائيل بعد موسى وهارون عليهما السلام وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب(١).

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس» انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخارى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعنى رجل قد ملك بُضْع امرأة، وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها قال: فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علىّ شيئاً فحبست عليه حتى فتح الله عليه. وقال: فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه، فقال فيكم غُلول فليبايعنى من كل قبيلة رجل فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال فيكم الغلول فليبايعنى قبيلتك، فبايعته قبيلته، قال فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا».

انفرد به مسلم من هذا الوجه. وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة، عن

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط ١٩٨١ جـ ٢ ص ١٨٦ - ١٩٩.

عبيد الله عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه قال: ورواه محمد ابن عجلان عن سعيد المقبرى قال: ورواه قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ.

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أى ركعًا متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما من به عليهم من الفتح العظيم، الذى كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم «حطة» أى حط عنا خطايانا التى سلفت؛ من نكوصنا الذى تقدم منا. ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر حتى إن عثنونه - طرف لحيته - ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضوعًا لله عز وجل ومعه الجنود والجيوش ممن لا يُرى منه إلا الحدق، ولا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول الله ﷺ ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثمانى ركعات وهى صلاة الشكر على النصر، على المشهور من قول العلماء وقيل إنها صلاة الضحى وما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى. وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة فى شعرة، وفى رواية: حنطة فى شعرة وحاصله أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزأوا به كما قال تعالى حاكيًا عنهم فى سورة الأعراف وهى مكية ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١، ١٦٢].

وقال فى سورة البقرة وهى مدنية مخاطبًا لهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: ركعا من باب صغير، رواه الحاكم وابن جرير

وابن أبى حاتم وكذا روى العوفى عن ابن عباس وكذا روى الثورى عن ابن إسحاق عن البراء. قال مجاهد والسدى والضحاك: والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس.

قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعى رؤوسهم ضد ما أمروا به وهذا لا ينافى قول ابن عباس أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ الواو هنا حالية لا عاطفة أى ادخلوا سجداً فى حال قولكم حطة. قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع: أمروا أن يستغفروا. وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم وهو الطاعون كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عامر بن سعد ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عُذب به بعض الأمم قبلكم».

وقال الضحاك عن ابن عباس: الرجز العذاب، ،كذا قال مجاهد وأبو مالك والسدى والحسن وقتادة. وقال أبو العالية: هو الغضب وقال الشعبى: الرجز إما الطاعون وإما البرد وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

والعبرة أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل أن يعذبها فى الآخرة، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا لكثرة الأنبياء منهم وتفضيلهم على عالمى زمانهم.

ولما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه وبين أظهرهم نبى الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة فكانت مدة حياته بعد موسى عليه السلام سبعاً وعشرين سنة.



إلياس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣ - ١٣٢] .

قال قتادة ومحمد بن إسحاق : يقال إلياس هو إدريس .

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال : إلياس هو إدريس .

وقال وهب بن منبه : هو إلياس بن يس بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران بعثه الله تعالى فى بنى إسرائيل - بعد حزقيل - عليهما السلام - وكانوا قد عبدوا صنمًا يقال له : بعْل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر فدعا الله لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من المكر فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه إليسع بن أخطوب - عليهما الصلاة والسلام - فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما جاءه فليركبه فجاءته فرس من نار فركب فألبسه الله تعالى النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكًا إنسيًا سماويًا أرضيًا وأوصى إلى إليسع بن أخطوب .

هذا ما ذكره وهب بن منبه وغيره وفى هذا نظر وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب . قال ابن كثير : والله أعلم بصحته .

وقال علماء النسب: هو إلياس النشبى ويقال: ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار ابن هارون وقيل: إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران. قالوا وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا. وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح. ولهذا قال لهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم.

وقال ابن أبى الدنيا عن سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال: أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة أو قال: أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ محضرون للعذاب إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون. ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ إلا من آمن منهم ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له فى العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال تعالى ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ سلام على إلياس - والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها، كما قالوا: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل إسرائين، وإلياس وإلياسين، وقد قرئ: سلام على آل ياسين أى على آل محمد ﷺ وقرأ ابن مسعود وغيره: سلام على إدراسين، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال: إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم.



حزقيل عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

روى ابن عباس أن ملكًا من ملوك بنى إسرائيل استنفر عسكره للقتال، فقالوا إن الأرض التى سنذهب إليها موبوءة؛ فدعنا حتى يزول الوباء فأماتهم الله ثمانية أيام حتى عجز بنو إسرائيل عن دفنهم لكثرتهم فأحياهم الله.

ويقول العلامة ابن كثير(١):

قال أسباط عن السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة قالوا: كانت قرية يقال لها داوردان وقع بها الطاعون فهرب عامة أهلها، فنزلوا ناحية منها فهلك من بقى فى القرية، وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم فوقع فى قابل، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفًا، حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفْيح، فناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسامهم مر بهم نبى يقال له حزقيل، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم، ويلوى شدقيه وأصابعه، فأوحى الله إليه: تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقيل له: ناد فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى كانت أجساداً من عظام، ثم أوحى الله إليه أن ناد: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحمًا فاكتست لحمًا ودمًا وثيابها التى ماتت فيها، ثم قيل له ناد. فنادى أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا.

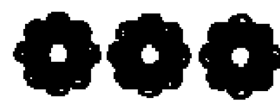
---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ط ١٩٨١ ص ٢٣٢ - ٢٣٤.

قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى سحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبًا إلا عاد رسمًا حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه ثمانية آلاف وعن أبى صالح تسعة آلاف .

قال محمد بن إسحاق ولم يذكر لنا مدة لبث حزقيل فى بنى إسرائيل ثم إن الله قبضه إليه، فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان فى جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعْل، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين ابن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .



اليسع عليه السلام

قال العلامة ابن كثير فى كتابه «قصص الأنبياء» عن النبى إليسع: وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء فى سورة الأنعام فى قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال تعالى فى سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

قال ابن إسحاق بسنده عن الحسن، قال كان بعد إلياس - عليهما السلام - فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث، والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء وكان فيهم ملك طاغ ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إذ هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل.

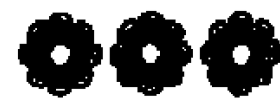
قال محمد بن إسحاق هو إليسع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى حرف الياء من تاريخه:

إليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوتلم بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ويقال هو ابن عم إلياس النبى - عليهما السلام - ويقال كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع إلياس خلفه إليسع فى قومه ونبأه الله بعده. ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال وقال غيره وكان الأسباط ببانياش ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ إليسع بالتخفيف والتشديد ومن قرأ وإلِّيسع وهو اسم واحد لنبى من الأنبياء.

وقد قدمنا قصة «ذا الكفل» بعد قصة أيوب عليه السلام لأنه قد قيل إنه ابن أيوب فالله تعالى أعلم.

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بنى إسرائيل وعظمت منهم الخطوب والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم ملوكًا جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم وسلط عليهم الأعداء... وبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبيًا من الأنبياء يقال له شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا ليقاتلوا معه الأعداء... فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالى أربعمائة سنة وستون سنة والله أعلم.



شمويل عليه السلام

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧]. النبى هو شمويل معرب صمويل أو صموئيل.

إن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل لما انهكّتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبى الله شمويل (صموئيل) أن ينصب لهم ملكًا يكونون تحت طاعته يقودهم للقتال فى سبيل الله فقال لهم نبيهم وكأنه يستشف الحجب وينظر بنور الله: هل أتوقع منكم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ وهل سيحدث منكم النكوص والعصيان قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وأى شيء يمنعنا من القتال وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ومع ذلك ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالفرار والتولى وظلموا أممهم بضرب الذلة عليهم والهوان، فقد قاتلهم أهل فلسطين وقتلوا منهم عددًا كثيرًا.

ولما استجاب لهم نبيهم قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وطالوت هذا من عظماء القوم علمًا وجسمًا.

قال الثعالبى هو طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح ابن أنيس ابن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال عكرمة والسدى: كان سقاء! وقال وهب بن منبه: كان دبَّاغًا والله أعلم ولهذا ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ

﴿الْمَالِ﴾ وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون ملكًا عليهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ الله هو الذى اختاره وجمع له أصول القيادة من عظمة العلم والجسم فهو واسع العلم صحيح الجسم ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى فهو الواسع الرحمة، المحيط بعلمه كل شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لم يقتنع القوم بقول نبيهم فأراد أن يقيم لهم آية أخرى تدل على صدق ملكه وأن الله هو الذى اصطفاه فقال لهم إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم وفيه ما تطمئن قلوبكم – وقد كان له عندهم شأن دينى خاص وفيه بقية من

ورضاضة الألواح «فتاتها» وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون وقد أضيف إلى آل موسى وآل هارون لأنه قد تناولته القرون بعدهما إلى وقت طالوت. وفي صدور هذا القول من النبى دليل على أن بنى إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم من استحقاق طالوت للملك للأسباب المتقدمة ومن ثم جعل لهم علامة أخرى تدل على عناية ربه به، وقد وصف التابوت فى كتب بنى إسرائيل بأوصاف هى غاية فى الغرابة فى كيفية صنعه وجمال منظره وما تحلى به من الذهب ودخل فى تركيبه من الخشب الثمينة. والسبب فى صنعه أن المصريين الوثنيين حينذاك استعبدوا الإسرائيليين طويلاً فملكت قلوب بنى إسرائيل عظمة الهياكل الوثنية وما فيها من الزينة وجمال الصنعة، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه وتذكر به وقد سمى التابوت أولاً تابوت الشهادة: أى شهادة الله سبحانه، ثم تابوت الرب، وتابوت الله، وقد جاء الإسلام ومنع الزخارف والزينة فى المساجد وبيوت العبادة حتى لا يشغل المصلى شيء منها عند مناجاة ربه.

﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة «العربة» من بعض بلاد فلسطين إلى بنى إسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بإلهام الملائكة وحراستهم ولم يكن لهما قائد ولا سائق وقد جرت العادة بأن ما يحدث بإلهام ولا كسب فيه للبشر وهو من الخير، يسند إلى إلهام الملائكة وقالوا فى سبب إتيان التابوت: إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران فى زرعهم والبواسير فى أنفسهم فتشاءموا منه وظنوا أن إله بنى إسرائيل انتقم منهم، فأعادوه على عجلة تجرها بقرتان ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب وجعلوا ذلك كفارة لذنبهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن فى مجئ التابوت علامة على عناية الله بكم واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تتفرقوا عنه بل عاونوه، يرقى بكم إلى مراقى السعادة والفلاح ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلما خرج طالوت من البلد يصحبه هؤلاء الجند قال لهم هذه المقالة. وقد روى أنهم لما رأوا التابوت لم

يشكوا فى النصر، فسارعوا إلى الجهاد فقال لهم طالوت: لا يخرج معى شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء ولم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها، ولا ابتغى إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفًا، وكان الوقت قيظًا «شديد الحر» وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء وسألوا الله أن يجرى لهم نهرًا، فقال لهم إن الله سيختبر حالكم ويعلم المطيع منكم من العاصى والراضى من الساخط وستقابلون نهرًا فمن شرب منه فليس من أشياعى المؤمنين إلا أن يكون ما يتناوله قليلاً وهو غرفة تؤخذ باليد، ومن لم يذقه فهو الذى يوثق به ويركن إليه عند الشدائد. وحكمة هذا الابتلاء أن يختار المطيع الذى يرجى بلاؤه فى القتال وثباته حين النزال ويبعد من يظهر عصيانه ويخشى فى الوغى خذلانه، فطاعة الجيش لقائده من أهم أسباب الظفر، وأحوج القواد إلى ذلك من ولى على قوم وهم له كارهون. ﴿ **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾ لأنهم كانوا قد اعتادوا العصيان وفسد بأسهم وتزلزل إيمانهم ولم يبق منهم من أهل الإيمان والغيرة على الدين إلا النفر القليل. والقليل من ذوى العزائم الصادقة، والنفوس التى أشربت حب الإيمان وامتلأت غيرة عليه بفعل ما لا يفعله الكثير من ذوى الأهواء المختلفة والنزعات المتقاربة ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ [الحشر: ١٤] فلما تخطى طالوت النهر هو ومن آمن معه، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما ندبهم إليه قال بعض ممن آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم وهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله ﴿ **لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾ لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده فرد عليهم الفريق الثانى لوثوقه بنصر الله وقوة أهل الحق على قلتهم وخذلان أهل الباطل على كثرتهم كما حكى الله عنهم: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ قال الذين يستيقنون بلقاء الله بالبعث ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب: كثيرًا ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده، وهذا دليل منهم على ثقتهم بنصر الله وتوفيقه والله ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه وفى هذا حض على الصبر المؤدى إلى

الغلبة والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له من عباده.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ لما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين عبدة الأوثان: جالوت وجنوده، وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والعُدد لجأوا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم بالصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملأ نفوسهم ثقة واطمئنانا وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين أشربوا حب الدنيا وامتلأت قلوبهم بالترهات والأباطيل ولقد راعوا الترتيب الطبيعى فى الدعاء بحسب الأسباب الغالبة، إذ الصبر سبب الثبات، والثبات سبب النصر وأولى الناس بنصر الله المؤمنون ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى فاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزموهم وانتهى أمرهم بالهرب فى المعركة وفاقًا لسنته تعالى فى نصر أهل الحق المؤمنين الصابرين على أهل الباطل الضالين. ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ كان جالوت جبار الفلسطينيين طلب المُبارزة فلم يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته حتى جعل طالوت مكافأة لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه، فبرز له داود وكان صغير السن ولم يلبس درعًا ولم يحمل سلاحًا، بل حمل حجارته ومقلاعه الذى كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد، فسخر منه جالوت وقال ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة لأبددن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع. فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه وجاء به فألقاه بين يدى طالوت وانهزم من كان معه واشتهر داود بين الناس، وكان له من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع ومعرفة منطق الطير وعلوم الدين وفصل الخصومات كما قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠].

﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله. إذ كان من أحوالهم أن يبعث الله إليهم نبيًا ويملك عليهم ملكًا يأتمر بأمر

ذلك النبي وكان نبي هذا العصر شمويل والملك طالوت؛ فلما توفيا صار له الملك والنبوة معاً.

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى ولولا دفع الله أهل البغى والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان فى الأرض. فكان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن للمصلحين بقتال البغاة المفسدين وهو سبحانه جعل أهل الحق حرباً لأهل الباطل وهو ناصرهم ما نصروه وأصلحوا فى الأرض. وقد نسب - عز اسمه - الدفع إلى نفسه، لأنه سنة من سننه فى المجتمع البشرى وعليه بنى نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى هذه القصص السالفة من حديث الألوف الذين خرجوا من ديارهم وتمليك طالوت وإتيان التابوت، وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت - آيات الله نقصها عليك على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب إذ هم يجدونه مطابقاً لما جاء فى كتبهم الدينية والتاريخية، فأنت من المرسلين لما دلت عليه هذه الآيات، ولو كنت قد تعلمتها لجئت بها على النهج الذى عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاص ولم تشاهد أزمنة وقوعها حتى تراها رأى العين، وقد أشار الله سبحانه إلى مثل هذه الحجة للدلالة على نبوته ﷺ فقال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥].



داود عليه السلام

يقول العلامة ابن كثير في كتابه (قصص الأنبياء) عن النبي داود عليه السلام: هو داود بن إيشا بن عويد بن عامر بن سلمون بن نحشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس.

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه.

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام، وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خيري الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في داود وهذا كما قال تعالى: ﴿ **وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم. ولهذا جاء في بعض الآثار «السلطان ظل الله في أرضه» وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان «إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن».

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له: أخرج إلى وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت.

قال ابن جرير: والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم.

وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [سبأ: ١١].

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد لتحفظكم وتقيكم حرب عدوكم واصابتكم بسلاحه وأرشده الله تعالى إلى صنعتها وكيفيتها فقال ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أى فى النسج والمراد اجعله على قدر الحاجة، لا تجعل حلق الدرع صغيرة فتنفصم الحلقة، ولا واسعة فلا تقى صاحبها السهم والرمح، قال قتادة: كانت الدروع قبل داود صفائح فكانت ثقالا فأمر بأن يجمع بين الخفة والحصانة ويقال لصانع الدروع سراد وزراد بإبدال السين بالزاى، والسرد: اتباع الشىء بالشىء من جنسه - قال القرطبى وأصل ذلك فى سرد الدرع، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاءً غير مختلف.

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.

وقد ثبت فى الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده.

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

يخبر المولى عز وجل بما أنعم على عبده ورسوله داود عليه السلام من الفضل المبين والجاه العظيم حيث جمع له بين النبوة والملك والجنود ذوى العَدد والعُدد وما منحه إياه من الصوت الرخيم الذى كان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات وإذا قرأ الزبور تقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات تكف عن طيرانها، ثم تردد معه الزبور مع التسبيح والتمجيد معجزة له غليه السلام وقد ألان الله تعالى له الحديد حتى كان بين يديه كالعجين يصنع منه الدروع السابغة التى تقى الإنسان شر الحروب وكان عليه السلام ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح قال قتادة: أعطى قوة فى العبادة وفقها فى الإسلام قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر. وقال ابن عباس ومجاهد: الأيد القوة فى الطاعة يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى وأنه كان أوابا» وهو الرجاع إلى الله في جميع أموره وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] والزبور كتاب الله الذى أنزل على داود عليه السلام أى أن تفضيل داود لم يكن بالملك بل كان بما أتاه الله من الكتاب وأفرده بالذكر لأنه كتب في الزبور إن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ وهم محمد ﷺ وأمته.

وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى جعلنا له ملكا عظيما كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك قال السدى كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف ومعنى شددنا ملكه أى قوينا ملكه بكثرة الجند وبسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء.

وقوله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد يعنى الفهم والعقل والفطنة وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه. وقال السدى: الحكمة والنبوة وقوله تعالى: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال مجاهد والسدى هو إصابة القضاء وفهم ذلك وقال مجاهد أيضا: هو العقل في الكلام وفي الحكم.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١-٢٦].

الخصم: يطلق على الواحد والاثنين والجمع والتعبير بواو الجمع يدل على أنهم كانوا أكثر من اثنين والخصمان من الرجال بلا شك أما كونهم أكثر من اثنين فلأنه من المحتمل أن يكون معهما شهودهما ليكون القضاء أمامهم فلا يحصل نزاع فى المستقبل. قال بعض المفسرين إن المراد بالخصمين ملكان ويرد عليهم بأنهما لو كانا ملكين فما الداعى إلى تسورهما المحراب ولو كانا ملكين لكانا كاذبين فى أخبارهما بقولهما ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والملائكة لا يكذبون وإن داود كان قد ملكه حب التفرغ لعبادة ربه حتى أغلق عليه محرابه وترك الناس بلا قضاء مدة طويلة حتى اضطروا إلى التسور ليقضى بينهم فى خصوماتهم وقد فزع داود كما يفزع الشخص المقيم فى بيته ممن يقتحمون منزله بغير علمه فلما رأوا فزعه طمأنوه وقالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ نحن لا نريد شيئًا يخيفك ولكنا نريد أن تحكم بيننا وتفصل فى خصومتنا بما من الله عليك من فصل الخطاب - فصل المخاصمات وعلم القضاء - ثم شرعوا يقصون عليه خصومتهم وطلبوا أن يحكم بينهم بما أوحاه الله إليه لأنه هو الحق الذى لا شك فيه فإن لم يوجد نص من وحى فليحكم بينهم بما لا يبعد عما فى كتاب الله وهو ما يؤدى إليه اجتهاده واقتباسه من وحى الله وقالوا إن لم يوجد نص فى الحكم أو ما تستنبط منه الحكم فاهدنا إلى الصواب إما بالصلح أو بالإرشاد إلى ما تراه صوابا وهذا هو الواجب على الحاكم الذى نصب للفصل بين الناس عليه أولاً أن ينظر إلى نص الشارع ويحكم به فإن لم يوجد نص نظر إلى أقرب المقاصد للشارع فلا يتجاوزه فى حكمه فإن لم يوجد ولم يتوصل إلى أقرب المقاصد لا يقطع بالحكم بل يرشد الخصمين إلى ما يراه صوابا ويصلح بينهما إصلاحا.

ثم أخذوا يشرحون قضيتهم فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ النعجة واحدة النعاج والكفالة: الضم مع بقاء الملكية أما لوزالت الملكية عن الشىء فلا يكون الضم كفالة بل يكون تملكا والخطاب هو المخاطبة والحجة، المدعى يعترف بأن حجة المدعى عليه غلبت حجته ولكنه غير مسلم له بأن يضم نعجته إلى نعاجه لأنه مالكها وهو حر فى التصرف فيها فعرضا أمرهما على داود عليه السلام - ليفصل بينهما - ولم يبين الله تعالى لنا تلك الحجة نصا وترك بيانا لإفهام القارئين يفهمونها حسب ما تصل

إليه عقولهم وعلومهم فيصح أن نفهم أن من ضمن الحجة أن وجودها مع النعاج الكثيرة خير له ولنعجته فإنها إذا كانت مع نعاج كثيرة فإنها تأتنس بها ويكثر درها وتأتى بنتاج كثير أما إذا كانت وحدها فإنها تسأم ويقل خيرها وتعدم نتاجها. فلما شرحا له دعواهما قضى لمن له النعجة الواحدة بقوله ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ وقد بنى هذا الحكم على ما هو معروف من إحدى النظريات التشريعية من أن مالك الشيء له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء ولا يجبر على إعطائه لغيره ولو كان فى ذلك الإعطاء إنماء لملكه أو رفع ضرر عنه وإنما اختار هذه النظرية دون النظرية الأخرى القاضية بأن المصلحة العامة تقضي بتقييد حرية المالك في التصرف في ملكه – لكثرة الباغين من الشركاء بعضهم على بعض إلا القليل إذ لا يصح بناء قواعد الأحكام على ذلك بالقليل بل ينظر فيها إلى الكثير وأن التعبير بلفظ (الخلطاء) يدل على أن موضوع النزاع بينهما هو طلب الشركة فى النعاج – ثم قال تعالى ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ والفتنة معناها التمحيص أو الابتلاء.

لم يبين الله لنا ما هى الفتنة التى ظن داود – عليه السلام – أن الله فتنه بها ولكن المتأمل فى القصة يتبين له أن هذه الفتنة هى حبه الخلوة للعبادة والعزلة عن الخلق حتى انصرف عنهم فدخل محرابه وأغلقه عليه طويلا حتى اضطروا إلى تسوره ليفض نزاعهم ويحل مشاكلهم أو أنه استلذ بالعبادة حتى انشغل بها عن العباد وهم فى حاجة إليه لما أوتى من فصل الخطاب – إن الأنبياء عليهم السلام ليعتبرون بالحوادث أكثر من غيرهم. وهذه القضية وإن كانت حقيقية – لا ضرب مثل – إلا أن ذهنه الثابت استنبط منها ما لا يستنبطه غيره فاستنتج منها أن اختلاط الشخص بالناس مستوجب للمنفعة العامة والخير الكثير بخلاف العزلة واستنتج منها أن المنفعة العامة راجحة على المنفعة الخاصة وأكثر منها ثوابا وأن شغفه بالعباده مع ما أتاه الله من فصل الخطاب كان ابتلاء ومفوتا لهذه الفوائد التى يجنيها المجتمع منه، واستنتج أيضا من تسور الخصوم للمحراب اضطرار الناس إلى التقاضى وفق الخصومات الكثيرة بينهم وأنه كان الأولى به أن يكون بابه مفتوحا لهم غير محتجب عنهم حتى لا تلجئهم المنازعات إلى تسور الحيطان أو التمادى فى الشقاق والنزاع. واستنتج أيضا أن كثرة الخصومات تستدعى الجلوس طويلا من

الزمان ظاهرا بين الناس كل هذا يصح أن يكون سببا لظن داود أن الله ابتلاه بحب العزلة للعبادة وأن هذه الحادثة كانت وسيلة لتمحيص حالته وبيان ما هو الأولى والأليق بمن جعله الله خليفة في الأرض ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ مما ظنه فتنة وهو فعله ما يخالف الأولى به ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ تقربا إلى الله تعالى وشكرا إذ أرشده ونبهه بهذه الحادثة إلى ما هو الأولى به - وإنما قلنا شكرا لأن العادة أن الإنسان إنما يسجد للشكر والتقرب ﴿وَأَنَابَ﴾ أى رجع إلى ما هو الأجدر بمقامه فجازاه الله على الاستغفار بالغفران وعلى الشكر بالزلفى وعلى الرجوع إلى الأولى بمقامه بحسن العاقبة والمآب بقوله تعالى ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ثم قال تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ومن شأن الخليفة أن يباشر مصالح الناس وحوائجهم وأقضيتهم لا أن يتركهم ويدخل المحراب، ثم وصاه بأن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى لأن اتباع الهوى مضل عن سبيل الله بقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ وهذه الوصية تشابه وصية الله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ﷺ - بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩] فهى توصية تثبيت وإرشاد وتنبيه ليس غير.

يقول العلامة ابن كثير فى قصص الأنبياء فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به فى ذلك الزمان فى العدل، وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهارا كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا صالح

المرى من أبى عمران الجونى عن أبى الجلد، قال: قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصلُ إلى شكرك إلا بنعمتك؟ قال: فأتاه الوحي: «أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى؟ قال: بلى يارب قال: فإنى أرضى بذلك منك».

وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه، حدثنا محمد ابن يونس القرشي، حدثنا روح بن عبادة، حدثنى عبد الله بن لاحق عن ابن شهاب قال: قال داود: «الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود» ورواه أبو بكر بن أبى الدنيا عن على بن الجعد عن الثورى مثله.

وقال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد: أنبأنا سفيان الثورى عن رجل، عن وهب بن منبه قال: إن فى حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات وإجمام للقلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه، وحق على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم.

وروى الحافظ فى تاريخه فى ترجمة صدقة الدمشقى الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصى، عن أبى هريرة الحمصى عن صدقة الدمشقى أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال: لأحدثنك بحديث كان عندى فى البحث مخزونا إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صواما قواما وكان شجاعا لا يفر إذا لاقى، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، وقال رسول الله ﷺ أفضل الصيام صيام داود، وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا يكوِّن فيها، وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهموم والمحموم وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام – وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشَعَر، يأكل ما وجد، ولا يسأل عما فقد ليس له ولد يموت

ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صف بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح، وكان راميا لا يفوته صيد يريده، وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم. وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنها كانت تصوم يوما وتفطر يومين. وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول: «إن ذلك صوم الدهر».

وقد روى الإمام أحمد عن أبى النضر عن فرج بن فضالة عن أبى هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعًا فى صوم داود.

وأما وفاة داود عليه السلام فقال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو، عن المطلب، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له داود: أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله. ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أقبضى جناحا قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذ المضرحية.

انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوى ورجاله ثقات ومعنى قوله: «وغلبت عليه يومئذ المضرحية» أى وغلبت على التظليل عليه المضرحية وهى الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحى. قال الجوهرى: وهو الصقر الطويل الجناح.

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة عن الحسن، قال مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة وقال أبو السكن الهجرى: مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه ابن عساكر.



سليمان عليه السلام

قال الحافظ بن عسكر: هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر ابن سلمون بن نخشون بن عمينا دب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام «وكانت توليته الملك سنة ١٠١٥ق. م» قيل وكانت الأيام التى ملك فيها سليمان فى أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة «١ ملوك ١١ : ١٣».

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) مرشد الطالبين ص ٩٧.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ١٥–٤٤].

أخبر الله تعالى عن أنه سبحانه بفضله وكرمه – قد أتى عبديه داود وسليمان علما، وأشرف العلم: علم الوحي المعصوم، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك فكانا نبيين ملكين ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء، حمداه على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين، ولقد ورث سليمان داود في الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة.. فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

وقد أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم

حتى أنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا، وهذا شيء لم يُعْطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله، ومن زعم من الجهلة أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود – فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ولكن الله – سبحانه – كان قد أفهم سليمان ما تتخاطب به الطيور في الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر البين لله علينا، وقد جمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام وتبسم من قولها وطلب من الله تعالى أن يلهمه أن يشكر نعمته التى من بها عليه من تعليمه منطق الطير والحيوان وعلى والديه بالإسلام لله سبحانه وتعالى والإيمان به وأن يعمل العمل الصالح الذى يحبه الله ويرضاه، وأن يلحقه بالصالحين من عباده، والرفيق الأعلى من أوليائه.

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه، عن جابر، عن النبى ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود: يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة» رواه ابن ماجة عن أربعة من مشايخه عنه بنحوه.

وقال عبد الرزاق عن معمر، عن الزهرى أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه: أرجعوا فقد سقيتم، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

وقال السدى: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهى تقول «اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غناء بنا عن فضلك» قال: فصب الله عليهم المطر.

قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان - عليه السلام - على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ويعرف كم مسافة بعده من وجه الأرض فإذا دلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان - عليه السلام - يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾.

وقال محمد بن اسحق: كان سليمان - عليه السلام - إذا غدا إلى مجلسه الذى يجلس فيه تفقد الطير وكان - فيما يزعمون - يأتيه نواب من كل صنف من الطير كل يوم طائر فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد عن ابن عباس: يعنى ينتف ريشه (أو لأذبحنه) يعنى قتله ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ بعذر بين واضح قال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد قالت له الطير: ما خلّفك فقد نذر سليمان دمك؟ فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم، قال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قال: نجوت إذاً. قال مجاهد إنما دفع الله عنه ببره بأمه. ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ غاب الهدهد زمانًا يسيرا ثم فاجأ سليمان بقوله ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى علمت بأشياء لم تعلمها أنت قال صاحب الكشاف: ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة،

ابتلاء له فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة وقال ﴿**بِنَبَأٍ يَقِينٍ**﴾ حتى يعلم سليمان أنه خبر جدير بالمعرفة والبحث ولم يدع الهدهد النبأ غامضا إنما فصله مبينا فى قوله ثلاثة أشياء:

- إن ملكتهم امرأة وهى بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك.

- إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال الشىء الكثير الذى لا يوجد مثله إلا فى الممالك العظمى.

- إن لها سريرا عظيما تجلس عليه مرصعا بالذهب واللآلئ والجواهر فى قصر كبير رفيع الشأن.

وفى هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك.

وبعد أن بين الهدهد لسليمان شئون القوم الدنيوية شرع يبين شئونهم الدينية وما هم عليه من مخالفات جسيمة: من الشرك وعبادة غير الله فقال: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**﴾.

وجدتها وقومها فى ضلال مبين فهم يعبدون الشمس لا رب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شىء علما وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم فظنوا حسنا ما ليس بالحسن وصدهم عن الطريق القويم الذى بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده. ﴿**فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**﴾ فعل الشيطان بهم ذلك حتى لا يعرفوا الطريق القويم وحتى لا يسلكوا الصراط المستقيم ولئلا يسجدوا لله رب العالمين الذى يخرج كل شىء مخبوء فى السماوات والأرض فهو الذى ينزل المطر وينبت النبات له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى فوجب إفراده بالعبادة فلا سجود إلا له ولا خضوع إلا له ولا تعظيم إلا له.

قال سليمان عليه السلام للهدهد: سنختبر مقالك ونتعرف حقيقته بالامتحان أصادق أنت فيما تقول أم أنت من الكاذبين؟ وهذا شأن الحاكم العادل إذا وصله نبأ

عن قوم لابد أن يتثبت، ومن الخطأ الشنيع أن يصدر الأحكام دون أن يتبين عندئذ سيخطىء الحساب ويأتى بأوخم العواقب ثم شرع يفعل ما يختبر به فكتب له كتابا موجزا وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ وقال: اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونقاشهم فيه. وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب ألقاه إلى الملكة ففضت خاتمه ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وقرأته، وجمعت أَشراف قومها ومستشاريها وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها وبينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى في مملكتها فقالت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ونَصُّ هذا الكتاب على وجازته يدل على أنه مشتمل على إثبات الإله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيما، كما أنه مشتمل على نهيهم عن اتباع أهوائهم، ووجوب اتباعهم للحق كما اشتمل أيضا على أمرهم بالمجىء إليه منقادين خاضعين وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه في الدنيا والآخرة حينئذ قالت بلقيس لأشراف قومها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أشيروا عليَّ فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلى فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه. وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم وحزمهم فيما يقيم أمرهم وإمضاءهم على الطاعة لها ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ نحن ذو بأس ونجدة فى القتال إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح وإن أمر القتال والسلم مفوض إليك فانظرى وقلبى الرأى على وجوهه ثم مرينا نأتمر. ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب، وأنهم فى غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه وقالت لهم: إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرها وإتلاف أموالها، وأذلوا أهلها بالأسر والقهر والإجلاء عن موطنهم، أو قتلوهم تقتيلا، ليتم لهم الملك والغلبة وتتقرر لهم فى النفوس المهابة، وهكذا

يفعلون معنا، وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ودخوله بلادهم. وبعد أن أبانت ما في الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ سأرسل إليهم هدية من نفائس الأموال لأختبر أمره أنبي هو أم ملك؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين فإن الهدايا مما تورث المودة وتذهب العداوة.

ولما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان عليه السلام وكانت من ذهب وجواهر ولآلئ وغيرها مما يقدمه الملوك العظام قال سليمان للرسول أتصانعونني بالمال لأترككم على شرككم وكفركم، لن يكون ذلك أبدا. إن الذي أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء، والمال الوفير، خير مما أنتم فيه فلا حاجة لي بهديتكم وليس رأيي في المال كما ترون فأنتم تفرحون به دوني، فارجع بما جئت به إلى من أرسلك ولنأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين إن لم تأتوني مستسلمين منقادين.

ثم يعقد سليمان عليه السلام جلسة طارئة يلقي فيها هذا السؤال على الملأ ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾.

قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد - والله - عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئا وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيْل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي

بعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذى لم يُعْطَه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا عمل خارق عظيم أن يأتوا بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالإغلاق والأقفال والحفظة أراد سليمان أن يثبت لها أن قوة الله فوق كل قوة وإرادته فوق كل إرادة، وما كان الله ليعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليمًا قديرًا. سبحانه كل شيء قائم به، وكل شيء خاشع له، عز كل ذليل وغنى كل فقير، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ – أى: مارد ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أى بعرشها ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنه يعنى قبل أن تقوم من مجلسك ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قوى على حمله والإتيان به أمين لن تمتد يدى إليه بسوء بل سآتى به كاملاً غير منقوص. لكن سليمان قال: أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: هو آصف كاتب سليمان وكذا روى محمد ابن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء وكان صديقًا يعلم الاسم الأعظم. وقال قتادة: كان مؤمنًا من الإنس واسمه آصف ويقول العلامة ابن كثير – رحمه الله تعالى – فى قوله ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أى: ارفع بصرك وانظر مَدَّ بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك. وقال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى – قال مجاهد: قال: ياذا الجلال والإكرام. وقال الزهرى: قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها. قال: فمثل بين يديه.

وهكذا طويت المسافات الشاسعة وقطعت مئات الأميال من اليمن إلى القدس بقدرة من لا يغفل ولا ينام، وبعظمة من يقول للشيء: كن فيكون. فماذا قال سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقرًا عنده؟ قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين وبقلب ذاكر وفؤاد شاكر ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ إنه

منطق الأنبياء وإنها صفة الصفوة ولغة المصطفين الأخيار ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ فالله غني عن العباد وعبادتهم كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد.

أراد سليمان – عليه السلام – أن يختبر ذكاء بلقيس وحصافة عقلها ورجاحة رأيها فلما جيء له بالعرش قبل أن تأتي إليه قال ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي غيروا فيه بعض معالمه ولقد بين سليمان الحكمة من هذا فقال: ﴿ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون (٤١) فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ لقد ألقت بلقيس نظرة فاحصة على العرش فلم تعرفه وفي نفس الوقت لم تنكره فقالت ﴿كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه وهذا دليل على أنها كانت صائبة الرأي ثاقبة الفكر متوقدة الذكاء. وقيل: إنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها فلما كان السؤال بـ: أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو. ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: إنه هو. أما قوله تعالى ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾. قال مجاهد: إن هذه العبارة من كلام سليمان، أي: الله آتانا العلم بأنها ستسلم وعلمنا ذلك قبل أن تعلنه علينا وكنا مسلمين لله رب العالمين. وقال غيره: إن هذه العبارة من كلام بلقيس كأنها تقول لسليمان لما نكَّر لها عرشها: لست في حاجة إلى كثير من المعجزات، فقد أوتينا العلم بنبوتك وصدق رسالتك، فقد قامت الأدلة على ذلك– فقد كان الهدهد آية من آيات الله دلت على صدق رسالتك وما سمعناه عنك من معجزات أخرى كتسخير الريح والشياطين والطير وكنا مسلمين وما صدنا عن الإسلام إلا أننا نشأنا في بيئة تعبد الشمس فتكيفنا بتلك البيئة وتقليد الآباء الأقدمين.

قال تعالى: ﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: ومنعها من الإسلام ما كانت تعبده من دون الله، ولو أنها فتحت أمامها نوافذ المعرفة وأزيل عنها التقليد الأعمى لأسلمت من قبل أن يأتي الهدهد بخبرها لكنها كانت من قوم كافرين جاحدين مقلدين والتقليد شر ما يبتلى به الإنسان.

﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

روى أن سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس في صدره، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل أذيالها - كما هى عادة من يخوض الماء - فقال لها سليمان إن من تظنينه ماء ليس بالماء بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسترت ساقيها وعجبت من ذلك، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها، وسلطان أعز من سلطانها. ودعاها سليمان إلى عبادة الله، وعابها على عبادة الشمس من دون الله، فأجابته إلى ما طلب وقالت: رب إني ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء وأخلصت له العبادة. قالت بلقيس ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقولها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين دليل ساطع وبرهان قاطع وحجة بالغة على أن دين الأنبياء هو الإسلام. فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد، وتحت لواء واحد هو قول: لا إله إلا الله.

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٠-٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ أى وآتينا داود ابنا يسمى سليمان ومدحه سبحانه وأثنى عليه فقال ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مدحه لأنه كثير الطاعات والعبادة والإنابة إلى ربه فى أكثر الأوقات وفى كثير من المهمات، اعتقاداً منه بأن كل شيء من الخير لا يتم إلا بإعانته وتوفيقه. ثم ذكر حالاً من أحواله تستحق الإطراء والثناء فقال ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أى: أمدحه حين

عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره «والصافن من الخيل هو الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها» وقد وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها، وقيل وصفها بالصفون لأنه لا يكون فى الهجن، بل يكون فى العراب الخلص.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ قال سليمان عليه السلام إنى أحب حبى لهذه الخيل، وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربى وأمره لا عن الشهوة والهوى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ حتى غابت عنى بسبب العثير المتطاير من سنابكها. فالمراد أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ وما زال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهة، ولبعد المسافة من جهة أخرى - والمقصود بالخير هنا الخيل - وبعد أن اطمأن إلى حالها وحمد جميل أمرها قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فقد كفى ما قامت به من حصر دلت به على نجابتها وفراصتها وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات، وفيها الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات من غزو وغيره. ولما ارتاح إليها وسر بما بذلته من جهد وما ينتظر منها إذا جد - أظهر استحسانه لها ولفرسانها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أى فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارًا لكرامتها لديه، إذ هى أعظم الأعوان فى دفع العدوان ولاسيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها وأنها خلو من الأمراض التى قد تعوقها من عملها حين البأساء.

والخلاصة: أن سليمان احتياطًا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه وقال: إنى ما أحببتها للدنيا وإنما أحببتها لأمر الله وتقوية دينه، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره أمر راكضيها بأن يردوها إليه، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها، سرورًا بها وامتحانًا لأجزاء أجسامها ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.

يقول صاحب التفسير الواضح – رحمه الله – في هذه القصة ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ فتنة الله أعلم بها، وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب، وهذه الفتنة تكلم فيها القصاص والإسرائيليون كثيراً، والذى نختاره ما ذكره أئمة التفسير المحققون من أمثال أبى السعود والفخر والألوسى وغيرهم من أفاضل العلماء، وكان مرجع آرائهم إلى القول بعصمة الأنبياء، ومنع تمثل الشيطان بهم وغلق باب زعزعة الناس فى معتقداتهم وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان عليه السلام ما روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال **«لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل (إن شاء الله) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعين»** – الحديث فى صحيح البخارى ج٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان.

تلك هى فتنة سليمان كما وردت فى الحديث وأما إلقاؤه على كرسيه جسداً فلأنه حين الفتنة كان يجلس على كرسى الحكم جسداً لا روح فيه لأنه لما لم يقل: إن شاء الله، كأنه ارتكب ذنباً فصار جسداً ثم تاب وأناب وأما قول سليمان ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ فليس يصح أن يكون هذا دليلاً على صدور الزلة منه فالإنسان ولو كان نبياً لا ينفك عن ترك الأفضل والأولى وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ألم تر إلى قول النبى ﷺ **«إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة»** الحديث فى صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وانظر إلى سليمان وقد طلب المغفرة من الله تعالى قبل طلبه الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده فهذا دليل على أن طلب المغفرة والرجوع إلى

الله سبيل وطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ولقد طلب سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فسخر له ربه الريح حالة كونها جارية بأمره لينة لا تعب معها، وإن كانت في الأصل عاصفة قوية فهي رخاء لينة تجري بأمره حيث أراد، وسخر الشياطين له تعمل تحت أمره من كل بناء وغواص تغوص في البحار لاستخراج الدر منها والأصداف وآخرين منهم مقرنين في الأصفاد والقيود خاضعين لأمره عاملين تحت إذنه هذا - والإشارة إلى ما تقدم من إعطاء الملك الواسع والتسليط على الرياح والجن والشياطين - عطاؤنا الخاص بك فاعط من تشاء وامنع ممن تشاء غير محاسب على ذلك يوم القيامة وإن لسليمان عند ربه لزلفى وقربة وكرامة وحسنى وله حسن مآب ومرجع في الجنة. وإن ختام القصة بهذا لدليل على أن كل ما قيل عن سليمان مما هو ثابت في كتب أهل الكتاب أو عند قصاص الأخبار من المسلمين خرافة وأكاذيب لا تليق بمركز النبوة والله أعلم.

وفاته ومدة ملكه وحياته:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

قال أبو داود في كتاب القدر عن خيثمة قال: قال سليمان بن داود - عليهما السلام - لملك الموت إذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني. قال: ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب يلقى إلي فيها تسمية من يموت. وقال أصبغ بن الفَرَج وعبد الله ابن وهب عن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم قال. قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فرارًا

من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى، قال فبعث الله دابة الأرض - حشرة تسمى الأرضة تأكل الخشب وتنخره - يعنى إلى منسأته - إلى عصاه - فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا. قال أصبغ وبلغنى من غيره أنها مكثت سنة تأكل فى منسأته حتى خر، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم.

قال إسحق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة. وقال إسحق أنبأنا أبو ورق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفا وخمسين سنة وفى سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال: ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل.



العزير عليه السلام

يقول العلامة ابن كثير «المشهور أن عزيراً نبى من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل كما قال وهب بن منبه: أمر الله ملكًا فنزل بمغرفة من نور فقذفها فى عزير فنسخ التوراة حرفًا بحرف حتى فرغ منها.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قوله الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبِه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب وإن عزيرا قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله. ولهذا يقول كثير من العلماء: «إن تواتر التوراة انقطع فى زمن العزير».

وقال إسحاق بن بشر عن سعيد عن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عبد الله ابن سلام أن عزيرا هو العبد الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه.

قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قال جمهور السلف رضى الله عنهم إن هذا الذى مر على قرية هو العزير أحد أنبياء بنى إسرائيل، مر على بلد بيت المقدس، بعدما دخلها بُخْتُنصَّر وخربها، فرآها العزير وهى خاوية على عروشها، أى ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت

تسقط أولاً ثم تتهدم الجدران وتتساقط عليها أى على السقوف ﴿ **قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ قال ذلك استعظامًا للأمر وتفخيمًا وتعجبًا من عظمة قدرة الله تعالى القدير على كل شيء، لا من باب الاستبعاد والإنكار.

وذلك نظير قول زكريا عليه السلام فيما أخبر الله تعالى عنه لما بشر بالغلام ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ يعنى أن ذلك الأمر عظيم جدير بأن يتعجب من عظمته وفخامته.

﴿ **فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ** ﴾ أحياء بعد موته.

﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتَ** ﴾ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العزير وغيره عن الإحاطة بشئون الله تعالى وعظيم قدرته.

﴿ **قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ وإنما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبعث بعد المائة قبل الغروب.

فقال قبل أن ينظر إلى الشمس: ﴿ **يَوْمًا** ﴾ ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب بل آثار أنوارها على الأماكن العالية فقال: ﴿ **أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ على طريق الإضراب.

﴿ **قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ أى لم يتغير فى هذه المدد الطويلة والسنين العديدة وكان طعامه على ما روى عنبًا وتينًا وشرابه عصيرًا أو لبنا. ﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ** ﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت أوصاله.

وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أولاً إلى طعامه وشرابه، حيث أنها لم تتغير حتى يبين له أن الذى حفظ له طعامه وشرابه من التغير والفساد على طول السنين المائة هو الذى حفظ العزير من التغير ومن أن تأكله الأرض وتفسده على السنين العديدة؛ بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه من البلى لأن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. وأمره الله تعالى أن ينظر ثانيًا إلى حماره وقد بلى وتفرق وتمزق ليزداد يقينًا بأنه مر عليه مائة سنة.

ثم قال تعالى له: ﴿ **وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ أى عبرة ودليلاً على قدرة الله تعالى

على إحياء الأموات وبعثها وأنه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد من أراد حفظهم، وأنه سبحانه قدير على كل شيء ولا يعجزه شيء.

ثم قال له ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ أى إلى عظام الحمار البالى المتفرقة أوصاله وعظامه ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أى كيف نرفعها من الأرض ونركبها فوق بعضها ونعيدها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ أى نستر العظام باللحم كما نستر الجسد باللباس. ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ فلما اتضح له اتضاحًا تامًا وعاين كيفية الإحياء ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وذلك علم رؤية وعيان فوق ما أنا عليه من اليقين والإيمان.

قال ابن عباس: فكان كما قال الله تعالى ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعنى لبنى إسرائيل وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شابًا كهيئته يوم مات.



زكريا ويحيى عليهما السلام

ورد ذكر زكريا عليه السلام فى القرآن الكريم فى الآيتين ٣٧، ٣٨ من سورة آل عمران وفى آية ٨٥ من سورة الأنعام وفى الآيتين ٢، ٧ من سورة مريم وفى آية ٨٩ من سورة الأنبياء.

وذكر يحيى – عليه السلام – فى الآية ٣٩ من سورة آل عمران وفى ٨٥ الأنعام فى الآيتين ٧، ١٢ من سورة مريم وفى الآية ٩٠ من سورة الأنبياء وتحدثت سورة آل عمران عن كفالة زكريا لمريم البتول.

قال تعالى: ﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

ثم عقب بعد ذلك بالحديث عن دعاء زكريا لربه أن يهبه ذرية طيبة وقد جاء فى السنن الصحاح أن زكريا كان زوج أخت مريم وقد جعل الله كفالتها له ليسعدها بعلمه وتقواه وطاعته لمولاه، فقد كانت مريم يتيمة كما ذكر بعض المفسرين.

وأما قوله تعالى ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا**﴾ فهذا إخبار عن صبرها وجلادتها ورضاها.

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى كتابه التاريخ المشهور الحافل زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان، ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق ابن حشبان ابن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقه بن برخيا بن بلعاطه ابن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود، أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد يعنى ابن هارون، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت

عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال كان زكريا نجاراً. وهكذا رواه مسلم وابن ماجة من غير وجه عن حماد بن سلمة به.

قال الله تعالى: ﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١ - ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٣٧-٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٥].

أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام حين نادى ربه ودعاه نداء ودعاءً خفيًا وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ لقد ضعفت وخارت القوى واضطرم المشيب في السواد وإنك لن ترد دعوتى كما عهدتك سميعاً مجيباً قريبًا تجيب المضطر إذا دعاك وتكشف السوء عمن ناداك وإنى خشيت العصبات من بعدى أن يغيروا ويبدلوا فى ميراث النبوة فأسألك يا رب ولداً صالحًا يرثنى ويرث من آل يعقوب ويقوم على ميراث النبوة قيامًا صحيحًا مستقيمًا واجعله مرضيًا عندك وعند خلقك تقيًا نقيًا لا جباراً ولا عصيًا ولا شقيًا فاستجاب الله له وأجاب دعاءه فبشرته الملائكة بغلام اسمه يحيى ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم نسم أحداً قبله بهذا الاسم. ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ أى على أى وضع وعلى أية حال سيولد لى، هل سأعود شابًا وتعود امرأتى كذلك أم ستهب لنا الغلام ونحن على ما نحن عليه من كون امرأتى عاقراً ومن كونى قد طعنت فى السن ووهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا، إذا فلم يكن هذا الاستفهام استفهام استبعاد شيء عن قدرة الله بل كان استفهامًا عن الحال التى سيكون عليها عندما يرزق الغلام لذا جاء الرد ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ إن الله لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء وإن الذى أوجدك من العدم قادر أن يهب لك الغلام قال رب اجعل لى علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال علامتك أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح من غير مرض ولا علة. قال بعض المفسرين: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة وقال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة. كما قال تعالى فى سورة آل عمران ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]
فلما بشر بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه **﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾** أشار إلى قومه إشارة موحية بالأمر لهم أن يسبحوا بكرة وعشيا طرفى النهار أوله وآخره. فلما ولد له هذا الغلام وبلغ مبلغ العقلاء قال الله له يا يحيى خذ الكتاب بقوة أى التوراة بقوة وعزيمة وجد وحرص واجتهاد **﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾** أى الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب معنا نلعب فقال: ما للعب خلقنا قال: فلهذا أنزل الله **﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾**. وأما قوله تعالى **﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾** أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الغلام **﴿وَزَكَاةً﴾** أى طهراً ونقاء وكان تقيًا يخاف ربه ويخشاه وكان براً وفيًا مطيعًا لوالديه ولم يكن جباراً ولا غليظًا ولا فظًا ولم يكن عصيًا متمردًا على حدود الله ثم قال تعالى **﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾** هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان فإنه ينتقل فى كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة فى الصور ليوم النشور فَمِنْ مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد وأنبأنا على بن زيد، عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أوهم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغى لأحد يقول أنا خير من يونس ابن متى»**.

وقال رضى الله عنه: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور، عن

الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشَّرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤوى غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فى إثره فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل.

قال: وقال رسول الله ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربْق - حبل - الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم. قال: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل - وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن أبان بن زيد عن يحيى بن أبى كثير به وكذلك رواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به.

وذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير البكاء حتى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه.

قال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه، فقال يا بنى أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه؟ فقال يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين. فقال له: ابك يا بنى. فبكيا جميعاً.

واختلف فى مقتل يحيى بن زكريا هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره على قولين: فقال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام. وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصّر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن، وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضى أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قال عطاء والحسن البصرى. فالله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد، قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخْرج من تحت ركن من أركان القبلة الذى يلى المحراب مما يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير. وفى رواية كأنما قتل الساعة.

وذكر فى بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة. فالله أعلم(١).

ويقول العلامة ابن كثير:

روى الحافظ ابن عساكر فى المستقصى فى فضائل الأقصى من طريق العباس بن صبيح عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال: كان ملك

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ط ١٩٨١ جـ ٢ ص ٣٤٩.

هذه المدينة يعني دمشق هداء بن هدار، وكان قد زوج ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيداً، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا. ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدتْ عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد حبرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول له لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره - فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدى أمها خُسف بها... ولم يزل دم يحيى عليه السلام يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا.

وروى من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبيه، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام».



المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

والمقصود بالاصطفاء الأول فى الآية الكريمة أن الله اختار مريم لخدمة بيت المقدس مع أنها انثى والتطهير هنا حسي ومعنوى أما كونه حسياً فقد طهرها الله من دم الحيض والنفاس وغير ذلك، والمراد بالتطهير المعنوى تطهير قلبها ونفسها من الرذائل وتوافه الأشياء فقد كانت رضى الله عنها ذات همة عاليةوأما الاصطفاء الثانى هو أن الله تعالى اختص مريم بمولد المسيح على غير العادة المتبعة فقد خلقه الله فى رحمها بدون أن تتزوج. وقد يكون المقصود بالاصطفاء الثانى ما جاء فى الحديث الشريف:

« كمل من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة »

وبُشرت بأنه سيكون نبيًا شريفًا ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أى فى صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك فى حال كهولته فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها. أُمرت مريم بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة- وإنما قدم السجود على الركوع فى الذكر لأنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ولذا فإن السجود من مواضع استجابة الدعاء.

ويخبر الله تعالى رسول الله ﷺ أن هذا القصص الذى قصه عليه من أخبار مريم وزكريا من الأخبار التى لم يشهدها هو ولا أحد من قومه ولم يقرأها فى كتاب ولا تعلمها من معلم بل هى وحى من الله تعالى على يد الروح الأمين لتكون دلالة على صحة نبوته ﷺ وإلزامًالمن يحاجه من الجاحدين المعاندين ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ والمراد بالأقلام السهام التى كانوا يضربون بها القرعة. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى وما كنت شاهداً وهم يتنازعون ويختصمون فى كفالة مريم ولم يتفقوا عليها إلابعد القرعة. والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل الفضل والدين ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها، إما لأن عمران كان رئيسًا لهم فأرادوا مكافأته قيامًا ببعض ما يجب له من الحقوق، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب دينى إذا كانت محررة لخدمة بيت العبادة.

ثم تحدد الآيات معالم الحق فى شأن المسيح عليه السلام فهو مخلوق وهو بشر وهو وأمه كما قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. فقد حل الإسلام كل المشاكل بقول الله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ فمن أكل الطعام فهو جسم إذ الخلية الحية تتكون من هذا الغذاء ومن الخلايا تتكون الأنسجة، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة. وهل الانسان إلا مجموع هذه الأشياء، ومن الطعام والشراب تكون الإفرازات التى تذهب إلى الأمعاء والمثانة، وهل ينكر أحد على وجه الدنيا أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ومن كان شأنه كذلك فحتم عليه أن يذهب إلى الخلاء.. قال الله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

والمراد بالكلمة التى بشر بها مريم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقوله جل شأنه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فهو فى الدنيا له وجاهته فى قلوب المؤمنين بالله وهو فى الآخرة له شفاعته ومكانته عند الله فهو من أولى العزم من الرسل وهو من المقربين من الله وجنته ورضوانه ومن صفاته أنه يكلم الناس فى المهد أى وهو فى أيامه الأولى بعدمولده وفى سن الكهولة وهى من الثلاثين إلى الأربعين، ومن الصالحين.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ هذا استفهام لا يقصد به الاستبعاد فهى تعلم أن الله على كل شئ قدير لكن تريد أن تستفهم عن الكيفية!

ولذا جاء الجواب ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى الذى خلق الأسباب والمسببات وجرت العادة على ذلك - قادر أن يخرق العادة بقدرته فيغنى المسببات عن أسبابها،وإلا فمن أبو آدم ومن أمه؟ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] والله جل شأنه لا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليمًا قديرًا ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقد أنعم الله على المسيح ابن مريم بأنه علمه الكتابة والخط والعلم الغزير والحكم الصواب والعمل الموفق ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وعلمه التوراة وهو الكتاب المنزل على نبى الله موسى وبه أحكام وتشريعات، والإنجيل وهو الكتاب المنزل على نبى الله عيسى وبه وصايا وتوجيهات وقد جاء الإنجيل مصدقًا لما فى التوراة قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة: ٤٦] وجاء القرآن الكريم مصدقًا لما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ومهيمنا على جميع الكتب قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد بعث المسيح عليه السلام إلى بنى إسرائيل خاصة قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

قال ﷺ: «كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، والمقصود بالأحمر غير العرب - وجعلت لى الأرض مسجداً وترتبها طهوراً فأيمارجل أدركته الصلاة صلى حيث كان وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة» رواه الشيخان.

وقد ذكر الله تعالى قصة السيدة مريم فى السورة المسماه باسمها وأخبر حبيبه المصطفى بأنها اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى ببيت المقدس لتتخلى للعبادةواتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليكلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، إذ ربما يشتبه عليها الأمرفتقتل نفسها أسى وغماً، وإنما مثل لها بهذا المثال لتانس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت ولم تستطع محاورته. فلما رأته فزعت منه وقالت: إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حرم الله عليك إن كنت ذا تقوى له تتقى محارمه وتجتنب معاصيه. إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومهاحجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت: إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه - لأن الاستعاذة لا تؤثر إلا فى التقى - فلما علم جبريل خوفها «قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماًزكياً» أنا لست ممن تظنين لا يقع منى ما تتوهمين من الشر ولكنى رسول ربك بعثنى إليك لأهب لك غلاماً طاهراً مبرأ من العيوب - وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله. ولما عجبت مريم مما

سمعت ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أجابها الملك بأن الله تعالى قد قال إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكوني ذات بعل ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قديرولا يمتنع عليه فعل ما يريده، ولا يحتاج في انشائه إلى المواد والآلات. . ﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧]. وليكون خلقه بُرهانًا على قدرة الله ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ – فلقد خلق الله أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق الله عيسى من أنثى فحسب، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى – ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ رحمة من الله لعباده إذ بعثه نبيًا يدعو إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أى قد قضاه الله في سابق علمه ومضى به حكمه فلا يغير ولا يبدل ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]. فلما قال لها جبريل ما قال استسلمت لقضاء الله فنفخ جبريل فى درعها فدخلت النفخة فى جوفها فحملته، قال ابن عباس وقال غيره: نفخ فى كمها والقرآن أثبت النفخ فقال ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] ولم يعين موضع النفخ فلا نجزم بشئ من ذلك إلا بالدليل القاطع وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام – مكانا قصيًا عن الناس –بعيداً عن أهلها وراء الجبل – والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل. لقد اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها وهى من سلائل بيت النبوة.

ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت أن لا تراهم وأن لايروها.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ لقد ألجاها وجع الولادةو ألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به لسهولة الولادة وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت حياء من الناس وخوفًا من لائمتهم أوكانت شيئًا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ ناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى وسعيد بن جبير وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبًا لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بادئ ذى بدء علو شأن ذلك المولود الذى بشرها به جبريل عليه السلام – ألا تحزنى قد جعل ربك – المحسن إليك – تحتك غلامًا

رفيع الشأن سامى القدر ذا سخاء ومروءة وأميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه يسقط عليك رطبًا جنيًا تأكلين منه ما تشائين.

وقد روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر، وكان الوقت شتاء فأنزل الله لها رزقًا فجعل للنخلة رأسًا وخوصًا، وجعل لها ثمرًا رطبًا، وهذه رواية يعوزها الدليل - وفي هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية، وإلى أن السعي في الرزق مطلوب ولا ينافي التوكل ﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ فكلى من تلك الرطبة واشربى من عصيرها وطيبى نفسًا وأبعدى عنك الأحزان فإن الله قدير أن ينزه ساحتك ويبعد عنك تخرصات المبطلين ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسةوالطهارة والنقاء. ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ إن رأيت أحداً من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته، فأشيرى إليهم إنى أوجبت على نفسى لله صمتًا ألا أكلم اليوم أحداً ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لا يقبل كلامه الدفع والرد، وإنى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجى الخالق.

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال: إن الإسلام قد هدم هذا فتكلمى. وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا فقال القوم: ما لصاحبك لم يسلم؟ قال: إنه نذر صومًا لا يكلم اليوم إنسيًا. فقال له ابن مسعود: بئس ما قلت إنماكانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا، فتكلم وأمر بالمعروف، وأنْه عن المنكر فإنه خير لك.

إن مريم حين أمرت أن تصوم يومهاولا تكلم أحداً من البشر سلمت أمرها إلى الله واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا ما رأوا واستنكروا وقالوا: يا مريم لقد جئت شيئًا عظيمًا منكرًا، ثم زادوا تأكيداً فى توبيخهاوتعييرها فقالوا: ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ أى يا من أنت من نسل هارون أخى موسى، كما يقال للتميمى يا أخا تميم ويقال للمصرى يا أخا مصر، أو يا من أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى

بهذا الاسم الذى كنت تقاسين به فى العبادة والزهد - ما كان أبوك بالفاجر وما كانت أمك بالبغى. فمن أين لك هذا الولد؟

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة قال: «بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ماتقرأون «ياأخت هارون»: وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف في ذلك وبعدما سمعت مريم من قومها هذا التوبيخ وضاق بها الحال وانحصر المجال و امتنع المقال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال «فأشارت إليه» أشارت إلى عيسى أن كلموه، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق لأنها نذرت للرحمن صومًا عن الكلام أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبادة لكنهم قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ «كيف نكلم من كان فى المهد صبيًا» فعندها «قال إنى عبد الله» أنا عبد الله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره لقد اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أى سينزل على الإنجيل وسيجعلنى نبيًا وفى هذا براءة لأمه لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أى سيجعلنى نفاعًا للناس هاديًا لهم إلى سبيل الرشاد فى أى مكان كنت، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً باعتبار أنها واقعة فهى نزلت منزلة ما قد حصل ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ لما فى ذلك من تطهير للنفوس من الأرجاس ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ماظهرمنها وما بطن وتطهير للمال بإعطاء جزء منه للبائس والمحتاج. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ وجعلنى برًا بوالدتى مطيعًا لها محسنًا وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مستكبرًا عن عبادته بعقوق والدتى وعدم البر بها ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أى والأمنة من الله علىَّ فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة التى هى أشق ما تكون على العباد.

وينكر اليهود والنصارى أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد. ونحن المسلمين نقول: كفى إثباتًا لذلك نص القرآن القاطع بله أن العقل يرشد إليه إذ لولا كلام عيسى الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها وربما كان الحاضرون حين كلامه عدداً قليلاً ومن ثم لم يشتهر بينهم وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى ذلك الذى فصلت نبوته وذكرت مناقبه وأوصافه هو عيسى ابن مريم ذلك قول الصدق الذى لا ريب فيه، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه، ولا كما تقول طائفة من النصارى أنه ابن الله، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء، إنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، إذ لا يليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد لأنه لو أراده لخلقه بقوله: ﴿كُن﴾ فلا حمل ولا ولادة ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظا لأبيه يعوله وهو حى، وذكرا له بعد الموت، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك، والعالم كله خاضع له لا حاجة له إلى ولد ينفعه وهو حى أبداً.. ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال سبحانه أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى إذا أراد شيئًا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم وأن هذا هو الصراط المستقيم.

ولقد اختلف قوم عيسى فى شأنه قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذه اعتقادات أكبر الفرق المسيحية فيما يتعلق بعيسى عليه السلام:(١)

---

(١) راجع (المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام) للدكتور محمد وصفى.

– الفرقة الملكانية تزعم أن المسيح إله تام كله وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر وأن الإنسان منه هو الذى صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معًا شيء واحد.

– الفرقة النسطورية: وهذه الفرقة تنسب إلى نسطور بطريرك القسطنطينية وتزعم كسابقتها أن المسيح له طبيعتان، ولكنها تقول إن مريم ولدت الإنسان ولم تلد الإله، وإن الله تعالى لم يلد الإنسان وولد الإله ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [يونس: ٦٨].

– الفرقة اليعقوبية: وهى تنسب إلى يعقوب البردعانى الذى كان راهبا بالقسطنطينية وتزعم أن المسيح بجملته المركبة هو الله ويقول الله تعالى فى هذا: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [المائدة: ١٧]

– الفرقة الموحدة: وهذه الفرقة تقول بوحدانية الله تعالى وتقول برسالة ابن مريم وأن المسيح هو رسوله ولا يمكن أن يكون غير ذلك، وهذه الفرقة تضم عقلاء من المسيحيين وفلاسفتهم. ومن هذه الفرقة الفيلسوف «تولستوى» الذى يعتبره الألمان أكبر فيلسوف أنجبه القرن العشرون.

– باقى الفرق المسيحية: وهذه يزيد عددها على ٧٢ فرقة يتشعب كل منها إلى مذاهب لا حصر لها وأهم هذه الفرق: فرقة تقول بألوهية المسيح وأمه مريم كليهما وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾

[المائدة: ١١٦]

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ العذاب الشديد للكافرين يوم القيامة فالأيدى والأرجل والألسن تشهد على أصحابها وقد أجل الله عقابهم إلى هذا اليوم

حلما منه وثقة بقدرته عليهم فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء في الصحيحين: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١) ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود:١٠٢]

وفي الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه، من الله، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم**».

ولئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أندادا وزعموا أن له ولدا عميا في الدنيا عن إبصار الحق والنظر إلى حجج الله التي أودعها في الكون دالة على وحدانيته وعظيم قدرته، وبديع حكمته، صما عن سماع آي كتبه، وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة، وما أبصرهم حينئذ حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئا، ويعضون على أناملهم حسرة وأسفا، ويتمنون على الله الأماني. فيودون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان مصداقا لقوله تعالى: ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾.

قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا الوليد، حدثنا الأوزاعي حدثني عمير بن هانئ، حدثني جنادة بن أبي أمية، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر، عن عمير، عن جنادة: وزاد: **من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء**.

وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد، عن الوليد، عن جابر به ومن طريق أخرى عن الأوزاعي به.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١: ٥ ومسلم في البر والترمذي في تفسير سورة ١١: ٢.

وهذه شهادة عظيمة حقة قالها المسيح عليه السلام وحفظها الله تعالى عن التشويه والتحريف تلك هى قول ابن مريم عليهما السلام: «وهذه هى الحياة الأبدية.. أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك وأن يسوع الذى أرسلته» [يوحنا ١٧: ٣] لقد شهد المسيح أن الحياة الأبدية هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن يسوع رسول الله وهو عين ما يؤمن به المسلمون جميعًا ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة ٧٢، ٧٣].

منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام ومرباه وبيان بدء الوحى إليه من الله تعالى

يقول العلامة ابن كثير:

ولد عيسى عليه السلام ببيت لحم قريبا من بيت المقدس قال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره، عن موسى بن وردان عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، وعن مكحول عن أبى هريرة قال: إن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذى تكلم به وهو طفل، فمجد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمسا ولا قمراً ولا جبلا ولا نهراً ولا عينا إلا ذكره فى تمجيده فقال «اللهم أنت القريب فى علوك، المتعال فى دنوك، الرفيع على كل شىء من خلقك، أنت الذى خلقت سبعا فى الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك، وجعلت فيهن نورا على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك، وجعلت فيهن مصابيح يهتدى بهن فى الظلمات الحيران فتباركت اللهم فى مفطور سمواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلال التظاهر، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال

فوتدتها أوتادا على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها وجلمودها. فتباركت اللهم! فمن يبلغ بنعته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك، تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السماوات عن الناس لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنك لست بإله استحدثناك ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك، نشهد أنك أحد صمدٌ لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد».

وقال إسحاق بن بشر عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦]

وقال أبو زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح عمن حدثه قال: «أنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشر ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة، وأنزل الإنجيل على عيسى بن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان».

وذكر ابن جرير في تاريخه أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي، عن عبد الله بن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى بن مريم: أنزلني من نفسك كهمّك، واجعلني ذخرا لك في معادك وتقرب إلي بالنوافل أحبك ولا تول غيري فأخذلك، اصبر على البلاء، وارض بالقضاء، وكن لمسرتي فيك، فإن مسرتي أن أطاع فلا أعصى، وكن مني قريبا وأحي ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك، تيقظ من ساعات الغفلة

واحكم في لطيف الفطنة، وكن لي راغبا راهبا وأمت قلبك في الخشية لي، وراع الليل لحق مسرتي وأَظْمِ نهارك ليوم الري عندي، نافس في الخيرات جهدك واعترف بالخير حيث توجهت، وقم في الخلائق بنصيحتي واحكم في عبادي بعدلي فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ولا تكن حلما كأنك مقبوض وأنت حي تنفس.

يا عيسى بن مريم.. ما آمنت بي خليقة إلا خشعت، ولا خشعت لي إلا رَجت ثوابي فأشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنتي. يا عيسى بن مريم البكر البتول.. ابك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن في ذلك تُلين الكلام وتُفشي السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذار ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال، قبل أن لاينفع أهل ولا مال، واكحل عينك بملول – كحل – الحزن إذا ضحك البطالون، وكن في ذلك صابرا محتسبا، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين، ارْج من الدنيا بالله يوم يبعثون وذق مذاقة ما قد حزب منك أين طعمه، وما لم يأتك كيف لذته، فرح من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجئيب –أي الغليظ– قد رأيت إلى ما يصير، اعمل على حساب فإنك مسئول، لو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا علي بن ثابت عن الخطاب بن القاسم، عن أبي عثمان، كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل، فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم قال: ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر الله علي. فقال: يا لعين! الله يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عز وجل.

من أقوال عيسى عليه السلام

قال سفيان الثوري عن أبيه عن إبراهيم التيمي، قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه. وقال ثور ابن يزيد عن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: من تعلم

وعلم وعمل دعي عظيماً في ملكوت السماء .. وقال أبو كريب: روى أن عيسى عليه السلام قال: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي.

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها. وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً.

وعن عيسى عليه السلام: يا بن آدم الضعيف: اتق الله حيث ما كنت وكن في الدنيا ضيفا، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبروقلبك التفكر، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة[١] وعنه عليه السلام أنه قال: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلا يتخذ الدنيا قرارا. وعنه عليه السلام: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه.

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعا أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل.

وعن عيسى عليه السلام: إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع المال وتزينه مع الهوى واستمكانه عند الشهوات.

وعنه: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته وطوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم.

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسى عليه السلام وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها فقال: ما أشد بياض أسنانها. لينهاهم عن الغيبة.

وعن عيسى عليه السلام: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة

---

(١) إنما يكون خطيئة إذا كان الهم يقارنه الشك في الرازق أما العمل لرزق اليوم وغد فهو التشريع الأحكم المحمدي وهو لا يختلف عما في شريعة عيسى عليه السلام من وجهة الهم واليقين بالرزاق.

تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدَّفْلى -شجر مُرٌّ سام- تُعْجب من رآها وتقتل من أكلها.

وقال وهب: قال عيسى يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلوها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه.

وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى عليهما السلام فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يابن خالة مالى أراك ضاحكا كأنك قد أمنت؟ فقال عيسى: مالى أراك عابسا كأنك قد يئست؟ فأوحى الله إليهما: إن أحبكما إليّ أبشكما بصاحبه.

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه فى أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسع وسع.

وقال إبراهيم الحربى عن داود بن رشيد، عن أبى عبد الله الصوفى قال: قال عيسى عليه السلام: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشا حتى يقتله.

وقال سفيان الثورى: قال عيسى بن مريم عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء.

نعم الله على عبده ورسوله عيسى عليه السلام

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

[المائدة: ١١٠، ١١١]

يذكر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام بنعمه عليه وإحسانه إليه بأنه قد أنعم عليه بالنبوة وجعله آية للناس ورحمة من الله، وجعل خلقه معجزة فقد خلقه من غير أب وأنعم على والدته بالاصطفاء والطهر، وأيده بالروح القدس أى الروح الطاهر وهو جبريل الأمين ويدعو الناس فى صغره وكان من الذين تكلموا فى المهد وكان كلامه بمثابة دعوة إلى الله وتبرئة لساحة أمه البتول الطاهرة الناسكة كذلك يدعو الناس فى كهولته وأن من نعمه سبحانه على عبده عيسى أنه علمه الكتابة وأنعم عليه بالحكمة والحكمة علم غزير وعمل موفق وحكم صواب قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[البقرة:٢٦٩]

كذلك علمه التوراة والإنجيل فعرف ما فى التوراة من أحكام وما فى الإنجيل من وصايا. وأظهر على يديه المعجزات وخوارق العادات فيأتى من الطين كصورة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ويبرئ الأكمه الذى ولد أعمى فيرد عليه بصره، والأبرص المصاب بهذا الداء الجلدى الخطير فيشفيه من مرضه، وكل ذلك بإذن الله. ومن المعجزات التى أجراها الله تعالى على يديه أنه يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله ومن نعمه عليه أنه كف أذى بنى إسرائيل عنه ومنعه منهم بعنايته ورعايته وأنه حفظه وصانه إذ جاءهم بالبينات الواضحات وخوارق العادات فقال الكافرون منهم -كما قالوا للأنبياء من قبل- إن هذا إلا سحر مبين. ومن نعم الله عليه أنه أوحى إلى الحواريين -وهم أصحابه الخلص- وحى إلهام كالوحى إلى أم موسى ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ .

وفى الآية دليل على أن دين الأنبياء جميعا هو الإسلام: قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١].

وقال إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال يعقوب: ﴿ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال الله تعالى فى حق الأنبياء: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ [المائدة: ٤٤]

وقال فى حق خاتمهم ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر بأسانيده عن كعب الإحبار ووهب بن منه وابن عباس وسلمان الفارسي، دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا: لما بعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بنى إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون: ما أكل فلان البارحة وما ادخر فى منزله؟ فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شركا وكفرانا. وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوى إليه إنما يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فقال لها: ما لك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنةٌ لى لم يكن لى ولد غيرها وإنى عاهدت ربى أن لا أبرح من موضعى هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لى فأنظر إليها. فقال لها عيسى عليه السلام: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم قالوا فصلى ركعتين، ثم جاء فجلس عند القبر فنادى: يا فلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى. قال: فتحرك القبر ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله، ثم نادى الثالثة فخرجت وهى تنفض رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عنى؟ فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكا فركّب خَلْقى، ثم جاءتنى الصيحة الثانية فرجع إلىّ روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة ثم أقبلت على أمها فقالت: يا أماه ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين، يا أماه اصبرى واحتسبى فلا حاجة لى فى الدنيا، يا روح الله وكلمته سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض. فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه حقداً وغضباً.

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان.

ولقد بعث عيسى بن مريم فى زمن الطبائعية الحكماء فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت في قبره؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

قصة المائدة:

﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

يقول العلامة ابن كثير: «أمر عيسى - عليه السلام - الحواريين بصيام ثلاثين يومًا، فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم. فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل. فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحا من شعر وصف بين قدميه واطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا فأنزل الله تعالى المائدة من السماء».

وقصة المائدة التى سميت السورة الكريمة باسمها وقد تسمى السورة فى القرآن الكريم بأعجب ما فيها كسورة البقرة إذ لها شأن عجيب، وهذه السورة سميت بالمائدة أيضًا لأن المائدة آية من آيات الله تعالى، وقد يراد بالمائدة الخوان الذى عليه

الطعام وقد تطلق أيضًا على الطعام نفسه لكن الذى يجب الوقوف عنده كثيرًا كيف يقول الحواريون وهم الأصحاب الخلص لنبيهم عيسى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هو سؤال خطير خاصة وأن الله قد أجرى على يدى المسيح من المعجزات ما يملأ النفس يقينًا وصدقًا وإيمانًا وإذْعانًا لقدرة الله تعالى وعظمته فإذا كان هذا قد صدر من الحواريين فما بالنا بغيرهم. من هنا فقد أعمل العلماء عقولهم فى تخريج هذه الآية مستظلين بظل الشرع واقفين عند حدود النص فقالوا فى تفسير هذا المشهد، قال العلماء: واذكر يا محمد وقت قول الحواريين لعيسى بن مريم والمراد فى مثل هذا التركيب ذكر ما حصل فى الوقت لا نفس الوقت. قال الحواريون وهم المؤمنون الخلص ردًا على عيسى حين قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ ومع هذا قالوا: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ وهذا سؤال لا يليق بهم قطعًا ولذا خرجه العلماء على وجوه أحسنها أن يستطيع بمعنى يطيع كاستجاب بمعنى أجاب، أو المعنى: هل تستطيع أمر ربك أى سؤاله وقيل إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية، أى هل ينافى الحكمة إنزال المائدة أم لا؟ فإن ما ينافى الحكمة لا يقع قطعًا وإن كان ممكنًا. ولذا قالوا معتذرين عن إيراد السؤال بهذه الصورة نريد أن نأكل منها، فنحن فى حاجة إليها ونحن إذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فى أن الله تعالى أرسلك نبيًا واختارنا أعوانًا لك، وقد رضى عنا بإجابته سؤالنا، ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة، إذ هذه كالدليل على ذلك. قال عيسى بن مريم: يا ربنا يا مالك أمرنا ومتولى شئوننا أنزل علينا مائدة من السماء يراها هؤلاء وتكون لنا معشر المؤمنين مصدر فرح وسرور يوم نزولها نتخذه عيدًا نجتمع فيه للعبادة والشكر ويعود علينا كل عام باليمن والإقبال لأولنا وجودًا وآخرنا كذلك وتكون آية منك ودلالة وحجة ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق رسالتى وارزقنا ما به نقيم أودنا ونغذى أجسامنا وعقولنا فأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب. قال الله تعالى: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وقد نزلت إذ وعده الحق وقوله الحق فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة: ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾.

وورد فى قصة المائدة روايات كثيرة عن شكلها ولونها وطعامها والظاهر - والله أعلم - أنه كان لخيال الإسرائيليين فيها نصيب، ونحن نلتزم حدود القرآن والسنة الصحيحة. وفقنا الله تعالى إلى الصواب.

بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾

[الصف: ٦].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل وقد قام فيهم خطيبًا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده ونوه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه. يقول تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لقد أقام عيسى عليه السلام فى ملأ بنى إسرائيل مبشرًا بمحمد ﷺ وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى لا رسالة بعده، ولا نبوة وما أحسن ما أورد البخارى، الحديث الذى قال فيه حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب**»(١) ورواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه. وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا المسعودى عن عمرو بن مروة عن أبى عبيدة عن أبى موسى قال سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال: «**أنا محمد وأنا أحمد والحاشر والمقفى ونبى الرحمة والتوبة والملحمة**»(٢) ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مروة به.

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨ كتاب الفضائل باب فى أسمائه ﷺ رقم ١٢٥ / ٢٣٥٤ انظر صحيح البخارى كتاب الفضائل باب فى أسماء رسول الله جـ ٢ ص ٢٧٠ ط الحلبى.

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨، ١٨٢٩ كتاب الفضائل باقى أسمائه ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي لتتبعنه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

وقال محمد بن إسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «**أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام**»(١)، وهذا إسناد جيد وروى له شواهد من وجوه أخر. فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بى ورؤيا أمي التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين**»(٢).

وقال أحمد أيضًا حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان بن عامر قال سمعت أبا أمامة قال: قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك قال: «**دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام**».

وقال أحمد أيضًا حدثنا حسن بن موسى عن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة.

وقرر سادة قريش إرسال مبعوثَيْن إلى النجاشي يحملان هدايا قريش النفيسة ويحملان رجاءها فى أن يُخرج من بلاده هؤلاء الذين جاءوا إليها لائذين

---

(١) انظر تفسير البغوى جـ١ ص ١١١ وكنز العمال حديث رقم ٣١٨٣٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٦٨ ج ٦ ص ٤٢٥ ط الشعب ومجمع الزوائد جـ٨ ص ٢٢٣.

ومستجيرين وكان هذان المبعوثان: عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص وكانا لم يسلما بعد فلما دخلا علي النجاشى سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال فأين هم؟ قالا: هم فى أرضك فبعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر بن أبى طالب أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه، فسلم ولم يسجد فقالوا له مالك لا تسجد للملك؟ قال إنا لا نسجد إلا لله عز وجل قال وما ذاك. قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا الله – عز وجل – وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم قال: ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه. قال نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسها بشر ولم يعترضها ولد، قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان: والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذى نجد فى الإنجيل وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً وزعم أن النبى ﷺ – استغفر له حين بلغه موته وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما وموضع ذلك كتاب السيرة.

يقول الشيخ المراغى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يقول رحمه الله تعالى.

أى: واذكر لقومك ما قال عيسى بن مريم لقومه: يا قوم إنى مرسل إليكم من الله وإنى مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعًا من تقدم منهم ومن تأخر ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أى: وداعيًا إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران فإن معه

الربوات الأطهار عن يمينه، «سينا مهبط الوحى على موسى وساعير مهبط الوحى على عيسى، وفاران جبال مكة مهبط الوحى على محمد ﷺ . وفيها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر يا موسى: إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبيًا من إخوتهم مثلك، أجعل كلامى فى فيه ويقول لهم ما آمره به والذى لا يقبل قول ذلك النبى يتكلم باسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه. وكذلك جاء فى الإنجيل ما هو بشارة به – ففى إنجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر، قال يسوع المسيح: إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شيء.

وفيه أيضًا: قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبنى وأبى يحبه وعنده تتميز المنزلة كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلت لكم، أستودعكم سلامى، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فإنى منطلق وعائد إليكم لو كنتم تحبونى تفرحون بمضيى إلى الأب. وفيه أيضًا: إن خيرًا لكم أن أنطلق لأبى لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئته، وإن لى كلامًا كثيرًا أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب. «الأب بمعنى الإله».

«والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحامد ففى مدلوله إشارة إلى اسمه – عليه الصلاة والسلام أحمد».

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة فاجأوه بالتكذيب والإعراض عنه استكبارًا وعنادًا وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا ترّهات وأباطيل وسحر واضح لا شك فيه. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله جل شأنه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩].

لفظا آب وابن:

يقول الدكتور محمد وصفى فى كتابه المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام: إن لفظَىْ آب وابن من الألفاظ الشائعة فى الأناجيل، لذلك نرى من الواجب بحث هذه التسمية بحثًا مستقلاً حتى يمكننا توجيهها التوجيه الضروى لها ويمكننا تحديد معناها أو معرفة حقيقة ما ترمى إليه.

إن تسمية المسيح فى الأناجيل « ابن الله » وإطلاق لفظ « آب » على الله جل وعلا دعا الكنيسة إلى اتخاذ ذلك دليلاً على البنوة الحقيقية وحداها - أى دفعها - إلى اعتبار المسيح ابن الله حقًا، ومن ذلك قول بولس عن المسيح فى: [رومية ١ : ٤]، « وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات » وقوله فى [٢ كرا:٣] « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح ».

ولكننا إذا بحثنا فى الأناجيل وجدنا هذه التسمية عامة تطلق على غير ابن مريم كذلك، فقد روى عن المسيح أنه قال: « طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » [متى ٥ : ٩]، وكذلك قوله: « لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات » [متى: ٥ : ٤٥]، ومثله قوله في [متى ٦ : ٩] « فصلوا أنتم هكذا أبانا الذى فى السماوات » وكذلك قول يوحنا: « يا أيها الأحباء نحن أولاد الله » [يوحنا ٣ :٢] ويشبهه قول لوقا إن: « آدم ابن الله » [لو ٣ : ٣٨]. . . . إلخ إلخ.

والأناجيل تسمى المسيح « ابن الله » وتطلق على سواه كذلك هذا الاسم كما بينا، فبديهى أن لفظ « ابن » ليس معناه البنوة الحقيقية، سيما وأن متى فى إنجيله يذكر لنا أن « يسوع المسيح ابن داود ابن إسحاق » [متى ١ : ١] ومثله قوله [متى ١ :١٦] أن « يعقوب ولد يوسف رجل مريم الذى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح » وكذلك قول لوقا إن المسيح هو « ابن أنوش ابن شيث بن آدم ابن الله ».

فنرى من ذلك أن لفظ « ابن » المضاف إليه لفظ الجلالة قد استعمل مجازًا وقصد

به لفظ «حبيب» على سبيل الاستعارة، ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ويؤيد هذا ما روى عن المسيح وهو قوله لأتباعه «لكنى قد سميتكم أحباء لأنى أعلمتكم بكل ما سمعته من أبى» [يوحنا ١٥ : ١٥]. بل ربما قصد به لفظ «عبد».

﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وإنك لترى من المجازات فى الأناجيل استعمال لفظ «رب» بمعنى «معلم» وذلك كقول اثنين من التلاميذ لابن مريم «ربى الذى تفسيره يا معلم أين تمكث». وكيف نستطيع أن نقول إن المسيح ابن الله تعالى الذى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ إن كتب المسيحيين تقول إن أتباع المسيح جميعهم ولدوا من الله وذلك كما جاء فى [١ يو ٥ :١] «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله» ومثله ما جاء فى [١ يو ٤ : ٧] «فكل من يحب فقد ولد من الله» فلا مشاحة هنالك فى وجوب تأويل الولادة بما يطابق العقل. ولقد جاء فى يوحنا ما يفسر ذلك وهو قوله «لأجل هذا أظهر ابن الله لكى ينقض أعمال إبليس كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله» [١ يو ٣ : ٩].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾

[الأنعام: ١٠١]

وإننا إذا تركنا التأويل عند مصادمة العقل لظاهر الكلام لاعتبرنا إبليس أبا للناس مع كونهم أولاد آدم عليه السلام، فلقد جاء فى يوحنا قول المسيح: «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» [يو ٨ : ٤٤] وكذلك قوله: «بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس» [١ يو ٣ : ١٠].

ويفهم من الأناجيل أن المسيح كان يخاف الناس أن يأخذوا لفظ «ابن» على علاته أو يقف ذهنهم عن التفكير في حقيقته، أو ينقادوا إلى ظاهر معناه فكان ينهاهم عن تسميته بهذا الاسم خوفاً من الخلط والضلال وإنك لترى لوقا يذكر، أن المسيح كان ينهر الشياطين والمردة ويحاول منعهم من تضليل الناس بتسميته ابن الله خوفاً من جهل العامة وعدم تمييزهم وخشيته اعتقادهم بظاهر الكلام الذى ينافى العقل ويخالف حقيقة الأمر. ولبيان ذلك أذكر ما حكاه لوقا وهو قوله: «وكانت شياطين أيضاً تخرج من كثيرين وهى تصرخ وتقول، أنت المسيح ابن الله فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح» [لوقا ٤ : ٤١]. وإنى أعلم أن بعض الناس قد يقول إن قول لوقا «لأنهم عرفوه أنه المسيح» قد يكون قيداً للمعنى وأن المسيح انتهرهم تواضعا ولكن المقام ليس ذلك مطلقاً فمقتضى الحال يوجب التصريح بالحقيقة، ولو كان المسيح هو ابن الله بالمعنى الذى يريدونه لما نهر الشياطين المضلة – التى ليس التبليغ من شأنها – عن تكنيته بالكنية اللازمة. ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ويوجد فرق بين اللفظين: آب وأب Father: إن لفظ «آب» بمد الهمزة يخالف كل المخالفة لفظ «أب» ويدل كذلك على معنى مغاير للفظ الثانى. ولقد ذكر أحد الآباء الدومنيكان فى مقدمة الجزء الثانى من كتاب «التمرنه» المطبوع فى الموصل أن لفظ «آب» بمد الهمزة معناه «الله» ويثبت ذلك قول المسيح «إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» وإن لفظ «أب» Father الإنجليزى الذى ترجموا به لفظ «آب» والذى ينطق بالعربية «فاذر» وكذلك لفظ Vater «فاتر» الألمانى Pater «باتر» اللاتينى، «بدر» الفارسى، و«باتزا» اليونانى يشبه لفظ «فاطر» العربى.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٤].

وهكذا ترى مما سبق أنه ليس هناك ما يدعو إلى الأخذ بالبنوة الحقيقية أو الألوهية التى يزعمونها من تسمية المسيح «ابن الله» أو تسمية الله «بالآب»

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧١-١٧٤].

قيل لعيسى ﴿ كلمة الله ﴾ و ﴿ كلمة منه ﴾ لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير، من غير واسطة أب ولا نطفة، وقيل له ﴿ روح الله ﴾ و﴿ رُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لأنه ذو روح وُجد من غير جزء من ذى روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحى، وإنما أخترع اختراعًا من عند الله وقدرته خالصة، ومعنى ﴿ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها - قاله الزمخشرى فى تفسيره الكشاف - وقال البيضاوى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وذو روح صدر منه لا بتوسط ما يجرى مجرى الأصل والمادة. وقال أبو السعود ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ أى مكون بكلمته وأمره الذى هو ﴿ كُن ﴾ من غير واسطة أب ولا نطفة.

وهكذا بين الله تعالى حقيقة المسيح وأظهر أنه ما وُجد إلا بكلمته التى هى ﴿ كُن ﴾ وقال تعالى مبينًا ذلك:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

بل إن عيسى عليه السلام كآدم عليه السلام من حيث كونه ﴿ روح الله ﴾ أى ذا روح صدر من الله سبحانه وتعالى ويبين ذلك قوله تعالى فى حق آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ [السجدة: ٩] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

وبذلك سمى الله تعالى النفس الناطقة التى كانت لآدم ﴿ رُوحه ﴾ أى روحًا خلقه » وللمزيد راجع كتاب المسيح عليه السلام بين الحقائق والأوهام تأليف الدكتور محمد وصفى ط دار الفضيلة » .

صفة عيسى عليه السلام وشمائله

قال الله تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] .

يقول الحبيب المصطفى ﷺ : **«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»** رواه البخارى وهذا لفظه، ومسلم .

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : **«إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران»** هذا لفظ البخارى .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا هشام عن معمر وحدثنى محمود، حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ **«ليلة أسرى بى لقيت موسى. قال فنعته فإذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة قال ولقيت عيسى فنعته النبى ﷺ فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، يعنى الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به »** الحديث .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر، قال : قال النبى ﷺ : **«رأيت عيسى وموسى وإبراهيم. فأما عيسى فأحمر جعْد - يعنى كثيف الشعر - عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبْط كأنه من رجال الزُّط»** تفرد به البخارى .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن

همام بن منبه، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والذى لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ عيني»** وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق. وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدّم حلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذبًا على ما شاهده منه عيانًا فقبل عذره ورجع على نفسه فقال: آمنتُ بالله - أى صَدَّقْتُك وكذَّبْتُ بصرى لأجل حلفك.

قال أحمد: حدثنا يحيى، عن ابن أبي عروبة، حدثنا قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«الأنبياء إخوة لعلات ودينهم واحد وأمهاتهم شتى وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مَربُوع إلى الحمرة والبياض، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخصرتين - [المخصر يعني العصا القصيرة] - فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى تهلك فى زمانه كلها غير الإسلام ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعًا والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضًا فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه»**.

ثم رواه أحمد عن عثمان، عن همام، عن قتادة، عن عبد الرحمن، عن أبى هريرة فذكر نحوه. وقال: فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد، عن همام بن يحيى به نحوه (١).

رفع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ

(١) للمزيد راجع قصص الأنبياء لابن كثير - باب ذكر صفة عيسى عليه السلام.

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٨].

أعلن المسيح عليه السلام كلمة التوحيد عالية فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١] وهذه الركيزة الأولى والقاعدة الأصيلة فى رسالات الأنبياء فقد بعثوا لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد فكان رد الفعل لهذه الكلمة أن صدق البعض وكفر البعض: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وقال آخرون ما قالوا من الافتراء الذى يؤدى إلى الكفر وهكذا آمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأما الطائفة التى كفرت فقد فكرت ودبرت لقتل المسيح بمساعدة الرومان وكادت له ونسيت أو تناست أن يد الله تعمل فى الخفاء وأنه سيفسد مكرهم وخداعهم وتدور الدائرة على من مكر قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] لقد مكروا ودبروا ليصلوا إلى قتل نبى الله عيسى عليه السلام. والله تعالى دبر لينتقم وهو خير من يدبر وينتقم فألقى شبه المسيح على من مكر به، ورفع المسيح إليه ونجاه، وقتل صاحب المكر السيىء. قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

قال جل شأنه ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إذ أنه تعالى لا يظلم أحداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤] ومن خير الله تعالى أنه رفع المسيح روحاً وجسداً والوفاة تطلق ويراد بها كثير من المعانى فقد يقصد بها: توفية الأجر لأصحاب الدعوات والرسالات والمجاهدين والمسيح منهم بل من أوائلهم لأنه من أولى العزم، وقد تطلق الوفاة ويراد بها النوم قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام:

٦٠]، وقد يراد بالوفاة الموت قال تعالى على لسان المسيح يوم القيامة ﴿ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [المائدة : ١١٧] أى فلما أمتنى فى الدنيا قبل القيامة كنت أنت الرقيب عليهم. والذى نختاره فى قوله تعالى لعيسى ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** ﴾ أى متوفيك أجرك على ما قدمته لهؤلاء القوم من نصح وعلى صبرك على آذاهم وما بذلوه فى سبيل قتلك ، لأن الآية سبقت لبيان ما أنعم الله به على المسيح بدليل قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ أى منجيك من مكرهم فقد خدعوا ودبروا وأنا انتقمت منهم ورفعتك إلى ﴿ **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى مما قالوه من سب أمك ورميها بالبهتان العظيم فقد قال تعالى : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ وقد رفع المسيح ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ وسينزل إلى الأرض فيكون نزوله علامة من علامات الساعة الكبرى.

قال ﷺ : **«لينزلن ابن مريم حكمًا عدلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية»** [متفق عليه].

وقوله تعالى ﴿ **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى إن الذين اتبعوك فآمنوا بالله ربا وبك نبيا وبقولك ﴿ **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف : ٦] فهؤلاء مؤمنون ولا شك أن درجة المؤمن المعنوية والحسية أفضل عند الله من الكافرين، ذا حُكم حَكم الله به . وهو مستمر إلى يوم القيامة ﴿ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ هذا خطاب من الله تعالى إلى الذين اختلفوا مع المسيح وطال عنادهم وكثر جحودهم فالله تعالى سوف يفصل بينهم فإنه يقضى بالحق وهو خير الفاصلين وسيكون الحكم والجزاء عادلاً ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ فالله تعالى إن يعاقب فبمحض العدل وإن يثبنا فبمحض الفضل ﴿ **ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ** ﴾ أى إن ما سبق أن ذكرناه وتلوناه عليك كل هذا جاءك به النبأ اليقين والذكر الحكيم الذى ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢].

وفي قول الله تعالى في سورة النساء ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ .

هذا منهم ادعاء باطل وكذب على الله ورسوله وقد وصفوه بأنه رسول الله لا لإيمانهم بذلك إنما قالوها على سبيل التهكم والسخرية ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ لقد خلع الله شبهه على الذى دل عليه وهو يهوذا الإسخريوطى وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى تردد من حقيقة أمره وهم يتبعون الظن ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطى نفسه ظنًا أنه المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ومن هنا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وهذه عقيدة المسلم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤] فالله هو العزيز الذى لا يغلب ولا يعجز، الحكيم الذى لا يعبث فقد رفعه بعزته وقدرته وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق (١) فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيمانًا حقًا لا زيغ فيه ولا ضلال، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته وليس بالكذاب، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله، وليس بإله ولا هو بابن لله وفائدة إخبارهم بذلك بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم، كما حكى الله عنه من قوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧] فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر، إذ هو مرسل إليهم

---

(١) قال بذلك ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة رواه القرطبى جـ٦ ص ١٠ وما بعدها.

وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقد ورد فى الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته .

روى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما « **ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار** » .

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس (١) رضى الله عنهما فى تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقبيح .

قال الحسن البصرى : كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعا وثلاثين سنة . وفى الحديث « إن أهل الجنة يدخلونها جُرْدًا مردًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » وفى الحديث الآخر : « على ميلاد عيسى وحسن يوسف » وكذا قال حماد بن سلمة عن على بن يزيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال قالت فاطمة : قال لى رسول الله ﷺ : **« إن عيسى بن مريم مكث فى بنى إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع . وقال جرير والثورى عن الأعمش عن إبراهيم : مكث عيسى فى قومه أربعين عاماً »** .

ويروى عن أمير المؤمنين على أن عيسى عليه السلام رُفع ليلة الثانى والعشرين من رمضان .

وحكى الحافظ ابن عساكر عن طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه أن مريم سألت من بيت الملك بعدما صلب المصلوب بسبعة أيام وهى تحسب أنه ابنها، أن ينزل جسده، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى : ألا تذهبين بنا

---

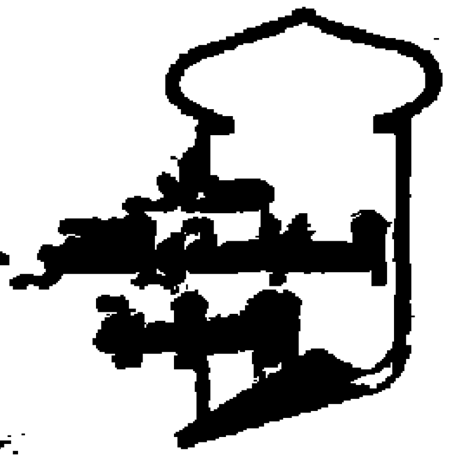
(١) القرطبى جـ ٦ ص ١٠ وما بعدها .

نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت: ممن أستتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذى هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إنى لا أرى أحداً، فَرَجَتْ مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به. فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل، وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا، ولكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال يا أُمَّه إن القوم لم يقتلونى ولكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك، والموتُ يأتيك قريباً فاصبرى، واذكرى الله كثيراً. ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت. قال: وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة. رضى الله عنها وأرضاها» (١).

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٤- ٣٦].



(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير جـ ٢ ط دار الكتب الإسلامية ص ٤٤٠، ٤٤١.



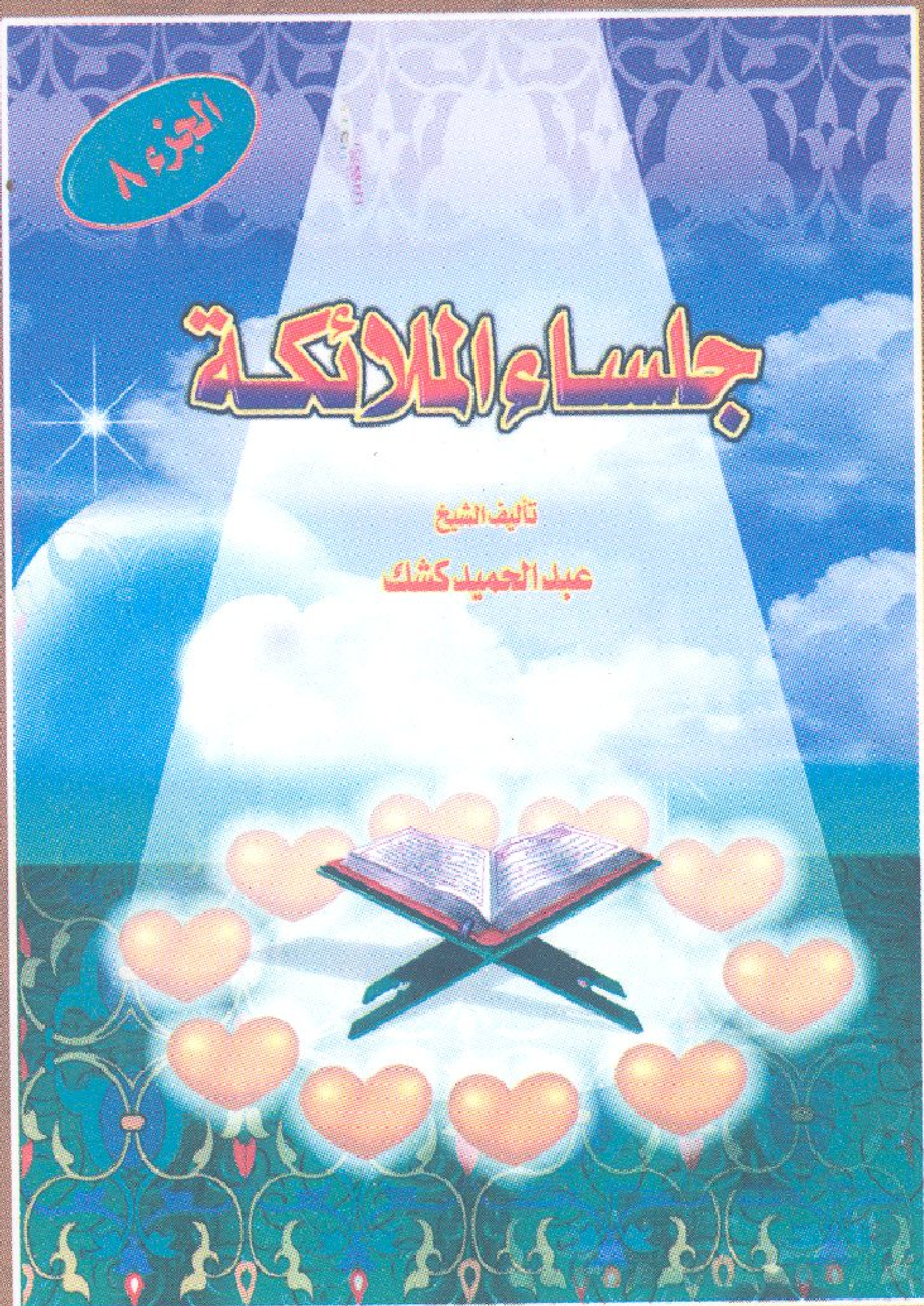
مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

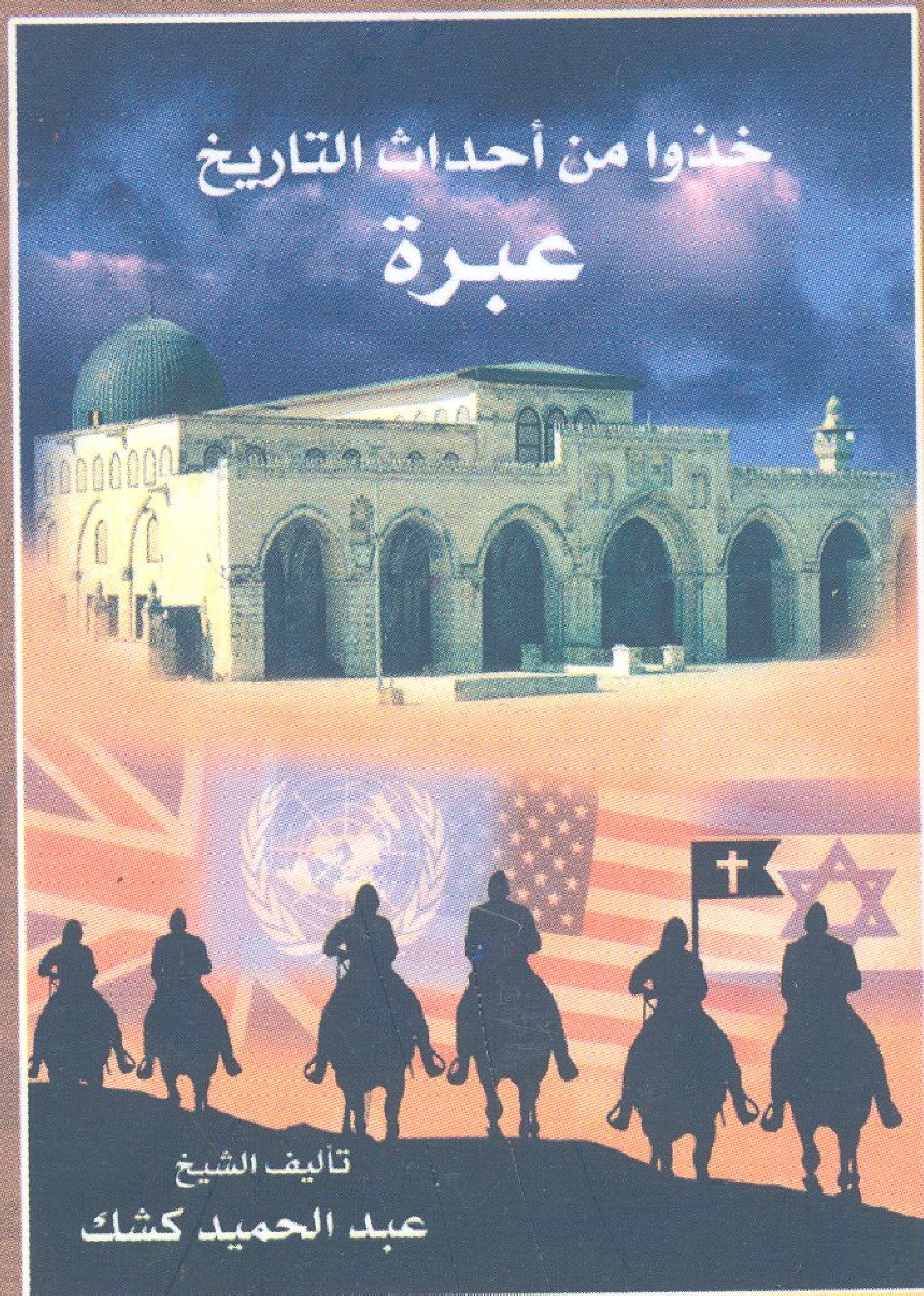
Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313

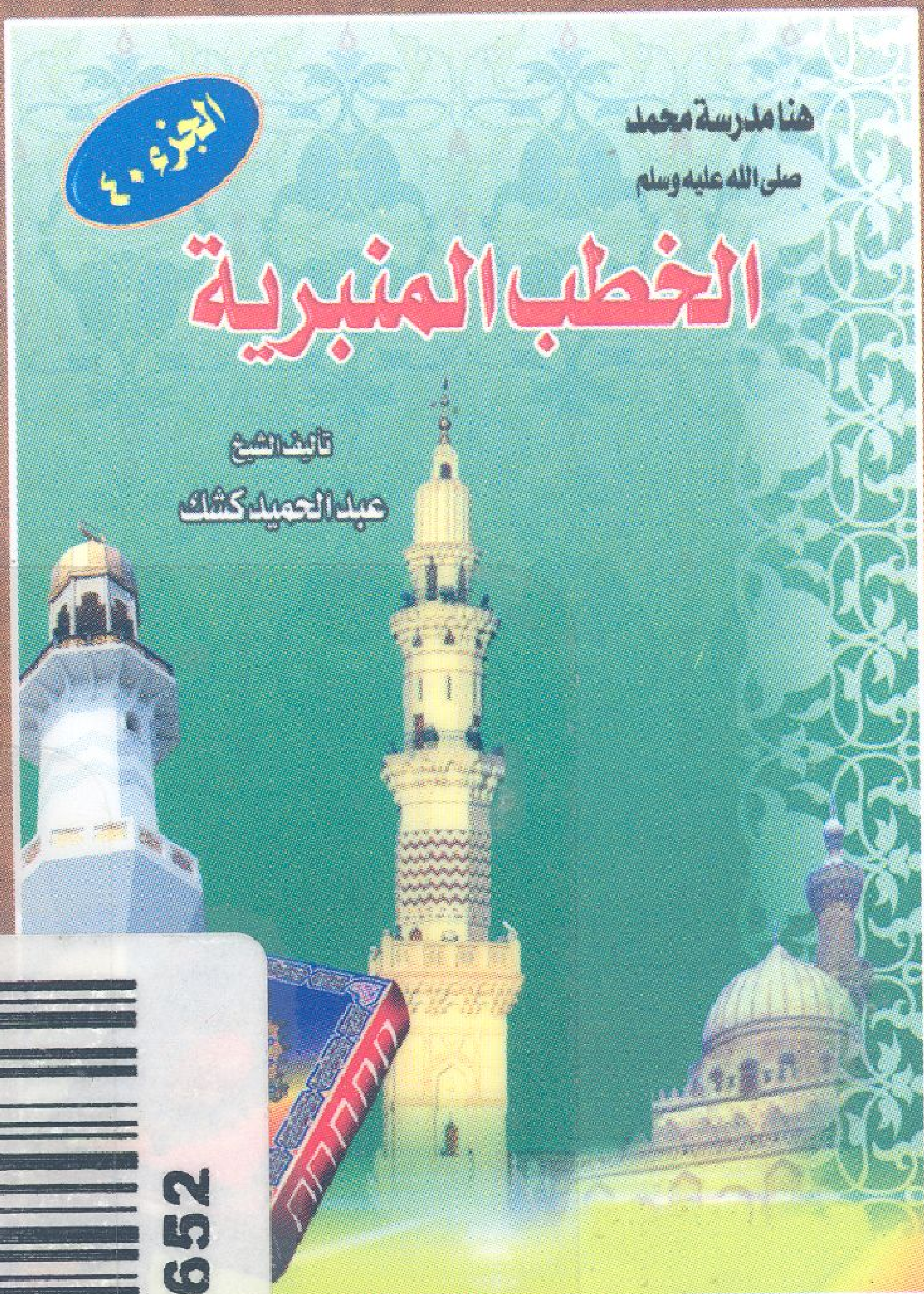
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

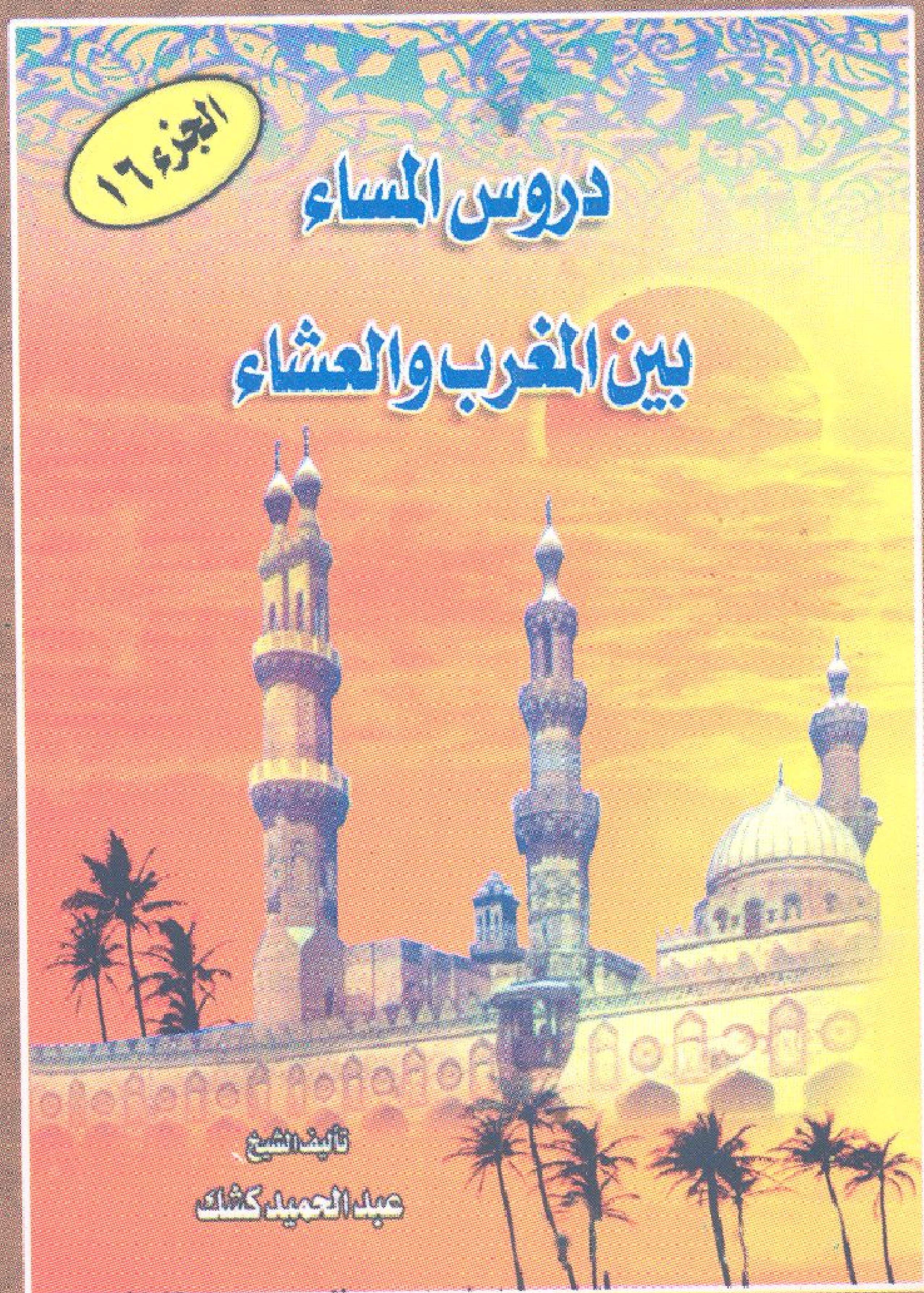
الفهرس

مع الباعة



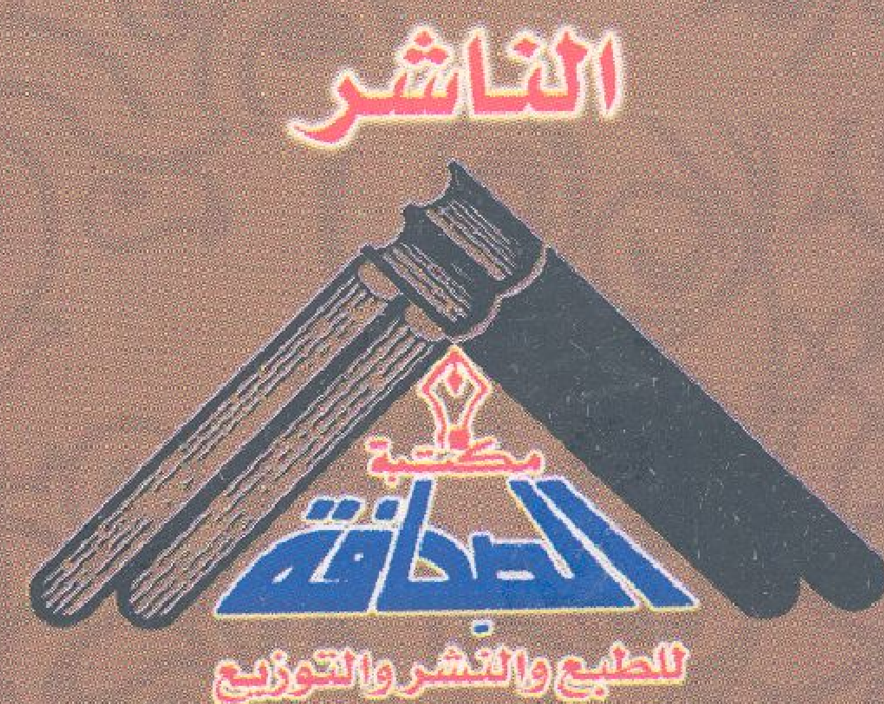








الناشر



العباسية ت: ٦٨٣٤٧٨١ - ...